د. أنور عبد الحميد الموسى

أبجديات

اللغة وعلم الأصوات واللسانيات



دار النهضة العربية

«أبجديات»

اللغة وعلم الأصوات واللسانيات

الإهداء

إلى حبيبتي أمي (أم أنور)

ورفيقة دربي (أم سلمى)...

لأنهما علمتانا الحرف الأول والصوت الأول...

الدكتور أنور عبد الحميد الموسى

"أبجديات"

اللغة وعلم الأصوات واللسانيات



دار النهضة العربية



دار النهضة العربية
بيروت ـ لبنان

منشورات: دار النهضة العربية
بيروت ـ شارع الجامعة العربية ـ مقابل كلية طب الأسنان
بناية إسكندراني # ٣ ـ الطابق الأرضي والأول

رقم الكتاب :	17224
اسم الكتاب :	«أبجديات» اللغة وعلم الأصوات واللسانيات
المؤلف :	د. أنور عبد الحميد الموسى
الموضوع :	لغة وأدب
رقم الطبعة :	الاولى
سنة الطبع:	2016م. 1437هـ
القياس :	17 × 27
عدد الصفحات :	336

تلفون : 854161 ـ 1 ـ 961 +
فاكس : 833270 ـ 1 ـ 961 +
ص ب : 0749 ـ 11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 ـ لبنان
بريد الكتروني: e-mail: darnahda@gmail.com

ISBN 978-614-442- 495-7

المقدمة

اللغة أداة الفكر، ووسيلة للتعبير عما يدور في خاطر الإنسان من أفكار، وما في وجدانه من مشاعر وأحاسيس... وهي وسيلة الاتصال والتفاهم بين الشعوب والناس...وأداة التعلم والتعليم؛ ولولاها لما أمكن للعملية التعليمية/ التعلمية أن تُنَفَّذَ، ولانقطعت الصلة بين المعلم والمتعلم؛ أي: لتوقفت الحضارة الإنسانية، وظلت حياة الإنسان في نطاق الغرائز الفطرية والحاجات العضوية الحيوانية...

إنها الخزانة التي تحفظ للأمة عقائدها الدينية، وتراثها الثقافي، ونشاطاتها العلمية، وفيها صور الآمال والأماني للأجيال الناشئة...بمعنى آخر، إن اللغات هي ذاكرة الإنسانية، وواسطة نقل الأفكار والمعارف من الآباء إلى الأبناء... ولولاها لانقطعت الأجيال بعضها عن بعض، وحينئذٍ، سيضطر كل جيل إلى أن يبدأ من نقطة الصفر، وبالتالي، تبقى الإنسانية في مهد طفولتها العلمية والمعرفية والحضارية...

أضف إلى ذلك، فإن اللغة تمثل إحدى الروابط بين الناطقين بها، إذ تسهل عليهم الاتصال والتفاهم؛ إنها تلازم الفرد في حياته، وتمتد إلى أعماق كيانه، وتجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين...

فإذا كانت هذه هي الوظائف الرئيسة للغات بعامة، فإن للغة العربية شأنا آخر يزيدها أهمية وخطورة؛ نظرا إلى أنها لغة القرآن، يقول تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[1]، ولغة الفصاحة والإعجاز والبلاغة، فضلا عن أنها

---

1 ـ يوسف: 2

تحمل السّنة النبوية الشريفة، وفقه العلماء، وحضارة الأمة وتاريخها وأمجادها وثقافتها...

وبناء على أهمية اللغة في كل المجالات، جاء هذا الكتاب بعنوان: «أبجديات اللغة وعلم الأصوات واللسانيات»؛ ليلبي حاجة الدارسين في التعرف إلى اللغة، ولا سيما علم اللغة الحديث (الألسنية)... وما يتفرع عنه من علم الأصوات وغيره...

ومن أهداف الكتاب أيضا:

أ-التعرف إلى اللغة ومفاهيمها وخصائصها ووظائفها ومراحل اكتسابها...

ب-شرح مفاهيم علم الأصوات؛ ولا سيما تعريفه، وميادينه، ووظائفه، ومعايير تصنيف الأصوات....

ج-توضيح قضايا لسانية؛ كتعريف الألسنية وجذورها وميادينها وعلاقتها بعلم النفس والدلالة، والألسنية المقارنة...

د-تحليل نصوص، بالاستناد على اللسانيات وعلم الأصوات...

هـ -تزويد المكتبة العربية بدراسات شاملة تتعلق باللغة ونموها وخصائصها، فضلا عن علم اللغة الحديث... تنظيرا وتطبيقا...

و-عرض جهود المجامع اللغوية العربية في ما يتعلق باللغة... ولا شك أن في ذلك فائدة لدارسي الألسنية...

ولذا، يتناول هذا الكتاب ثلاثة فصول؛ الأول بعنوان: اللغة: تعريفها وخصائصها... ونموها...، يتطرق إلى تعريف اللغة، ووظائفها، ووسائل الاتصال غير الكلامية، ووسائل التواصل عند الحيوان والحشرات... ونظريات تعلم اللغة، ونظريات تفسير اكتساب اللغة: 1 - نظرية التعلم كما وضعها سكنر (Skinner)2- والنظرية اللغويَّة كما وضعها تشومسكي (Chomsky).3- ونظرية المعرفة التي ترتبط بأعمال بياجيه (Piaget)....

أما الفصل الثاني بعنوان: "ماهية علم الأصوات ومجالاته..."، فيتطرق إلى علم الأصوات (تعريفه ووظائفه، وميادينه، ومعايير تصنيف الأصوات... والفرق بين الفوناتيكا والفونولوجي، فضلا عن التحليل الصوتي والمقطعي، والفرق بين علم الأصوات وعلم التجويد... وعلم الأصوات في معجم العين... متوقفا عن الحروف وأصواتها ودلالاتها... وعلاقة علم الأصوات بعلم التجويد... وخصائص الحروف العربية...)،...

ويركز الفصل الثالث على الألسنية: تعريفها، وجذورها، واتجاهاتها ومفاهيمها، متوقفا عند الألسنية المقارنة، وجذورها، وميادين دراساتها... واللغات السامية، فضلا عن دور المجامع اللغوية في الدراسة اللسانية المقارنة، من خلال الكلام بإسهاب على مجمع اللغة العربية بالقاهرة ...

ويعرض الفصل الأخير أيضا لعلاقة الألسنية بعلم النفس والدلالة... ولا يهمل هذا جوانب تطبيقية كتحليل قصيدة تبعا للمقاربة اللسانية السيكولوجية...

وبعد، فإن هذا العمل المتواضع، لا أدعي فيه الكمال، إنما يعد خطوة قد تساهم في إعانة محبي اللغة و«الأبجدية» على إعداد دراسات لسانية تثري واقعنا الفكري، وتغنيه...

الفصل الأول

اللغة (تعريفها وخصائصها ونموها...)

نتيجة لوصف تشومسكي اللغة على أساس أنها ظاهرة عامة، يشترك فيها أبناء الجنس البشري، وعده إياها ظاهرة إنسانية مشتركة، صار الاهتمام بها يشمل المختصين وغير المختصين، كعلماء الحاسوب والاجتماع والنفس... وبذلك صارت اللغة مثار اهتمام تخصصات أخرى....

ورأى علماء النفس أن اللغة مجموعة إشارات تصلح للتعبير عن حالات الشعور؛ أي: عن حالات الإنسان الفكرية والعاطفية والإرادية، أو أنها الوسيلة التي يمكن بوساطتها تحليل أية صورة أو فكرة ذهنية إلى أجزائها أو خصائصها، وتركيب هذه الصورة مرة أخرى في أذهاننا وأذهان غيرنا، عبر تأليف كلمات ووضعها في ترتيب خاص؛ وهذا التعريف يتضمن وظيفة اللغة إجمالا...[1]

بيد أن اللغة أكثر من مجموعة أصوات، وأكثر من أن تكون أداة للفكر، أو تعبيرا عن عاطفة؛ إذ هي جزء من كيان الإنسان الروحي، وعملية فيزيائية بسيكولوجية على غاية التعقيد...

وحاول تعريف اللغة مئات العلماء من اجتماعيين وفلاسفة ولغويين وتربويين؛ ومن تعاريفها تلك التي قدمها ابن جني، وفندريس (Vendryes)، وسابير (Sapir)، وكاتز (Katz)...[2].

---

1 ـ نايف معروف. خصائص العربية وطرائق تدريسها، بيروت، دار النفائس، ط2، 1987، ص2

2 ـ للمزيد عن تعريف اللغة، ينظر: أنور الموسى. في علوم اللغة العربية وفنون الضاد، بيروت، دار النهضة العربية. ط1، 2.1.

وفي هذا السياق، عرفها ابن جني التعريف الجامع المانع في القرن الرابع الهجري، حين قال: «اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم...»، يرى فندريس أن أعم تعريف للغة هو «أنها نظام من العلامات»، أما الأنثربولوجي واللغوي المعروف سابير، فأكد في تعريفه أن «اللغة وسيلة إنسانية محضة، وغير غريزية لإيصال الأفكار والعواطف والرغبات من طريق نظام من الإشارات المقصودة».

بدوره، يعرف كاتز اللغة بصفتها «وسيلة للاتصال ذات عناصر مركبة نحوياً، وموجودة صوتياً لنقل رسائل مفيدة من متكلم إلى آخر»؛ هذا التعريف يأخذ في الحسبان النظريات والآراء التي أصبحت متداولة في هذا الحقل؛ ولا سيما نظريات دي سوسير.

جلي أن التعاريف السابقة وغيرها، تتفق حينا وتختلف أحيانا؛ ولعل مصدر التباين فيها، ناشئ عن المنطلقات الفكرية لدى أصحابها؛ فمن تعريف وصفي خارجي، إلى نفسي داخلي، إلى آخر يمثل نظرة فلسفية معينة لواقع الإنسان ووجوده ونشأته...

كما أن اللغة العربية كلمات وألفاظ يعبر بها أهلها عن أغراضهم، وصلت إلينا من طريق النقل، وحفظها لنا القرآن الكريم. ومع انتشار الإسلام ودخول غير العرب في حظيرته، واختلاط العرب بالأعاجم، خشي أهل العربية من ضياعها، فوضعوا العلوم العربية لصون اللسان والقلم من الخطأ والزلل، ولتبيان الجواهر الرفيعة التي تحتضنها اللغة؛ ومن هذه العلوم: النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والعروض... [1]

---

1 ـ أنور الموسى. في علوم اللغة العربية وفنون الضاد، بيروت، دار النهضة العربية. ط1، 2.1.

أ- خصائص اللغة الإنسانية

للغة الإنسانية مجموعة من الخصائص والسمات، بعضها تنفرد به، وبعضها تشترك فيه مع غيرها من وسائل الاتصال... ومن هذه الخصائص[1]:

1- أنها وسيلة إيصال المعلومات وتبليغها، بشكل هادف... وهذه سمة عامة يمكن أن يشاركها فيها غيرها من الإشارات غير المقصودة...

2- أنها أصوات ذات معنى؛ وهذا يعني أنها تتكون من جانبين: عضوي ونفسي، وسر العملية الكلامية كلها يكمن في الصلة القائمة في عقول اثنين بين الرمز ومدلوله؛ ولذلك، يلاحظ أن «الأصوات اللغوية تمثل كل حقيقة إنسانية في هذا العالم الفيزيائي»[2]. ويترتب على هذه الصفة وجود طبيعة تجريدية للغة، تتمثل في عالم الذهن الذي يختزن المدركات... وتصور ما لا يمكن حصره من صور الشيء الواحد وإدراكها في الوقت المناسب[3].

3- الخطية (Linearity) وقد أرسى مفهوم هذه الصفة العالم اللغوي دي سوسير[4]... ويترتب على هذه الصفة أن العناصر اللغوية تتوالى وتتعاقب زمنياً، مرتبة على نحو ممتد شبيه بالخط لتكون وحدات أكبر، ولتشكل السلسلة الكلامية التي لا يمكن لعناصرها الظهور معاً في وقت واحد، ولهذا نجد أن الأصوات تتوالى فتتكون الكلمة، والكلمات تتوالى فتتكون الجملة، والجمل

---

1 ـ جورج يول، معرفة اللغة، ترجمة د. محمود فراج (دار الوفاء ـ الإسكندرية ـ 1999) 4-31.، وماريو باي: أسس علم اللغة، ترجمة وتعليق د. أحمد مختار عمر (عالم الكتب بالقاهرة ـ 1998م) 4.-42، ويوسف غازي: مدخل إلى الألسنية، 64 - 75، ومازن الوعر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث (دار طلاس بدمشق ـ 1988م) 45 - 52.

2 ـ مازن الوعر: قضايا أساسية 48.

3 ـ سمير ستيتية: المشكلات اللغوية في الوظائف والمصطلح والازدواجية (دار القلم بدبي ـ 1996) ص24، 25.

4 ـ فردينان دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة د. يوئيل عزيز (جامعة الموصل بالعراق 1988م) ص89.

تتابع فيتكون الخطاب، وبهذا التتابع تصبح الأصوات المركبة ذات معنى، كما أن هذا التتابع نفسه هو الذي يجعل الكلام قابلاً للتحليل...

4- صفة التمايز (Discreteness) ويقصد بها: "تمايز العناصر اللغوية تمايزاً واضحاً، على الرغم من تتابعها في الاستعمال؛ فأصوات اللغة تتابع في الكلام، ولكن أبناء اللغة يميزون كلاً منها سمعياً ونطقياً، وكلمات اللغة تتابع وتختلط حدودها؛ ولكن أبناء اللغة يدركون تلك الحدود؛ ولذلك، يمكن وصف اللغة بأنها نظام متمايز[1]. ومن فوائد هذه الصفة الأساسية الخاصة باللغة الإنسانية؛ أنها تعد الشرط الأساسي لتقطيع السلسلة الكلامية إلى وحدات من مراتب مختلفة، بناء على صفة الخطية المشار إليها سابقا...

5- الإنتاجية (Productivity)، وهذه صفة تتعلق بحقيقة مؤداها أن العدد الحقيقي للعبارات في أية لغة لا نهائي. ويأتي هذا من منطلق أن الإنتاجية تعني قدرة المتكلم على إنتاج عدد غير متناه نظرياً من الجمل وفهمه؛ ولهذا تتسم اللغة بأنها خلاقة مبدعة على لسان المبدعين من الشعراء والأدباء والبلغاء الذين يتمكنون من خلق عوالم جديدة من خلال اللغة. ومن أجل ذلك أيضاً تسمى هذه الصفة: الإبداعية (creativety) أو اللانهائية المطلقة (open endedness)[2].

6- الثنائية (Duality): وتعني هذه الصفة أن اللغة تشتمل على مستويين في آن واحد؛ الأول: مستوى رئيس هو مستوى الوحدات ذات المعنى؛ كالمورفيمات والكلمات والجمل، والثاني: مستوى ثانوي وهو خاص بالوحدات غير ذات المعنى؛ كالأصوات والمقاطع؛ وهي التي تتألف منها وحدات المستوى الرئيس. مثال ذلك أصوات مثل: (أ، م، ل)؛ فهي مفردة لا تعني شيئاً؛ ولكنها

---

1 ـ رمزي بلعبكي: معجم المصطلحات اللغوية ص 154.

2 ـ جورج يول، معرفة اللغة ص36 ،37، ورمزي بعلبكي، ص4.1.

بالتركيب والضم، يمكن أن تكوّن كثيراً من الكلمات؛ مثل: أمل، ألم، ملأ... ومعنى هذا أن لدينا أصواتاً محددة على مستوى، وعلى مستوى آخر لدينا المعاني المحددة؛ "وفي الحق فإن هذه الثنائية... مظهر من أكثر المظاهر الاقتصادية أهمية في لغة الإنسان؛ لأنه بوساطة مجموعة محددة من أصوات بعينها، يمكننا إنتاج عدد هائل من المركبات (الكلمات) التي يتحدد لكل معناها"[1]...

8- الإزاحة (Displacement) وهي تعني أن اللغة تتيح لمستعمليها التعبير عن الأشياء والأحداث غير الموجودة في البيئة والسياق الحاليين[2]...

9- الاعتباطيـة (Arbitrariness) وهي من أكثر سـمات اللغة الإنسانية أهمية، ويقصد بها عدم وجود علاقة سببية، أو مناسبة طبيعية بين العلامة اللغوية ومعناها»[3]، وفي هذا الصدد، يفرق دي سوسير بين ما هو اعتباطي مطلق كشجرة، وما هو اعتباطي نسبي كشجرة تفاح، بناءً على أن الاعتباطي المطلق هو غير المعلل، أما النسبي فهو ما يمكن تعليله. وفائدة هذه الصفة أنها تضفي على اللسان البشري طابع المرونة والتكيف...[4]

10-اللغة نظام ونظام الأنظمة. ويقصد بكونها نظاماً «أن هناك عدداً محدوداً من الوحدات اللغوية التي يمكن أن تجتمع فقط في عدد من الطرق المحددة،

1 ـ جورج يول ص39، وانظر: يوسف غازي ص 69 - 72.

2 ـ انظر: جورج يول، معرفة اللغة ص33.

3 ـ يخالف سمة الاعتباطية هذه ما كان عليه رأي معظم اللغويين العرب القدماء؛ حيث كادوا يجمعون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني. وقد نقل أهل أصول الفقه عن عباد الصيمري من المعتزلة أنه كان يذهب إلى هذا أيضاً. والفرق بين رأيه ورأي أهل اللغة أن المناسبة عنده ذاتية موجبة بخلافهم. وقد أنكر الجمهور على عباد هذه المقالة. انظر: السيوطي، الأشباه والنظائر (طبعة دار أحياء الكتب العربية بالقاهرة) المسألة العاشرة من النوع الأول ـ 1/ 47، وابن جني: الخصائص (باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني) 2 /154.

4 ـ دي سوسير، علم اللغة العام ص86 - 89، ويوسف غازي 64 - 66.

لتنتج هذا الكل المسمى لغة... ومثال ذلك أننا في العربية نصوغ مثلاً كلمة (طالب) بطريقة معينة ونقبلها، ويمكن بطريقة أخرى أن نضيف إليها التاء فنأتي بصيغة أخرى مقبولة أيضاً؛ وهي: طالبة، وكذلك يمكننا بإضافة ثالثة أن نقول: طلابهم، لكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نضيف جزءاً نحوياً آخر إلى هذه الكلمة الأخيرة؛ لأننا عندئذٍ سنأتي بما هو خارج عن نطاق اللسان العربي...

أما كون اللغة نظام الأنظمة؛ فالمقصود به أن للغة نظاماً صوتياً متناسقاً، ونظاماً نحوياً منظماً، وأن كل واحد من هذين النظامين لـه وحداته المناسبة وقواعده وعلاقاته التي تتركب في تنسيق مترابط ومستساغ[1]. ويمكن أيضاً ـ من زاوية أخرى معرفية ـ عد اللغة نظام الأنظمة، بناء على أنها تتدرج في التكون من «التشكل» الذي يدرك بالحس، حتى تصل إلى كونها جهازاً، ثم كونها مؤسسة اجتماعية، ويمكن التعبير عن هذا التدرج بسلسلة من المعادلات على الشكل الآتي:

- صورة × قناة حسية = تشكل
- شكل × مواضعة = علامة
- علامات × علائق = بنية
- بنى × تنضيد (تكاتف) = نظام
- أنظمة (كالنظام النبري والنظام الكلامي) × نسق (تواؤم) = جهاز
- جهاز × وظيفة = مؤسسة
- مؤسسة × عقد جماعي = مؤسسة اجتماعية

11- صفة الثبوت والتبدل، وتعني هذه أن العلامات اللغوية ثابتة تتوارثها الأجيال، فيؤدي هذا إلى بقاء الاتصال بين الماضي والحاضر، ولكن مع وجود

---

1 ـ مازن الوعر: قضايا أساسية ص47

التطور في الألفاظ والمعاني على مدى الزمن[1].

12- «انتفاء» الجهة (non-directionality) وتعني هذه الصفة أن بإمكان أي شخص استقبال العلامات اللغوية سمعاً أو قراءة.

13-سـرعة التلاشـي (rapid fade)؛ أي أن العلامـة اللغوية تنتج سريعاً كما تختفي سريعاً. وهذا يصدق على اللغة المنطوقة[2]...

وفضلا عن أن اللغة نظام اتصال تترجم من خلاله الأفكار والمشاعر والآراء... ترتبط اللغة بثقافة معينة، ومجتمع ما، وهي نظام اتصال فريد يختلف عن أنظمة الاتصال السائدة لدى بعض الحيوانات أو الأصوات الموسيقية الأخرى...[3]

وظائف اللغة

ليس للغة وظيفة واحدة؛ فهناك وظائف كثيرة بعضها يمكن تمييزه، وكثير ربما يكون غامضا، تبعا للقصد من الكلام والظروف التي قيل فيها. وهذه الوظائف ربما تكون أكثر وضوحاً عندما نربطها بكيفية نقل الرسالة من متكلم إلى آخر. فعند أي محادثة، يوجد هناك دائماً عدد من العناصر المؤلفة لظروف الكلام.

1- المتكلم: وهو المرسل.

2- المخاطب: وهو المتلقي، وقد يكون معينا أو غير معين.

3- قناة: متخيلة أو حقيقية.

4- رسالة: ترسل عبر القناة، وهذه الرسالة تحمل موضوعاً.

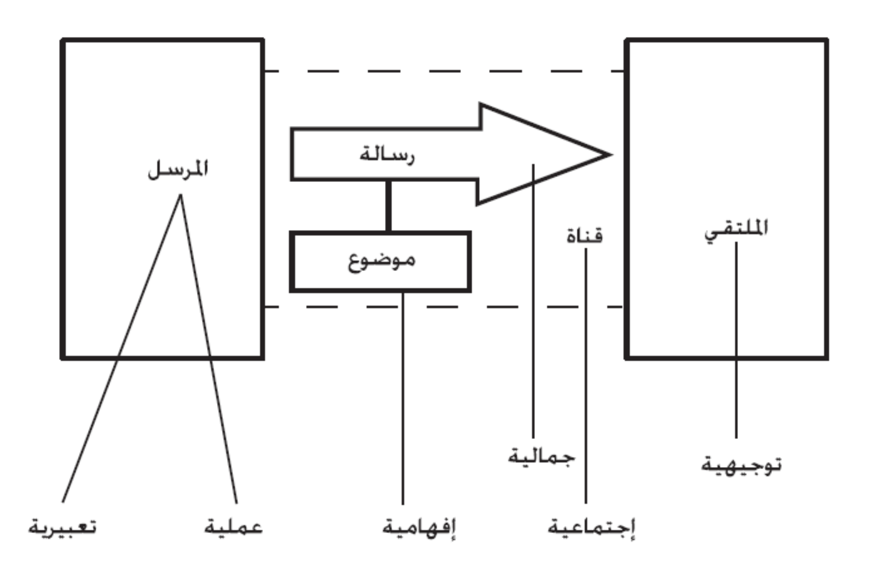
5- موضوع: تحمله الرسالة.

---

1 ـ مازن الوعر، قضايا أساسية ص47.

2 ـ جورج يول، معرفة اللغة ص4..

3 ـ Guenther. R.K. (1998). Human cognition. Prentice-Hall. Inc



ووظائف اللغة ترتبط بهذه العناصر، وتختلف باختلافها التركيز على أيّ منها دون الأخريات.

1-الوظيفة التعبيرية: هي استخدام اللغة للتعبير عن مشاعر المتكلم، وعواطفه، ومواقفه من الآخرين والحالات الراهنة. ويكون التركيز فيها على المرسل. تتميز اللغة هنا بالتعبير عن المشاعر، والاعتماد على الكلمات التقييمية؛ مثل: هذا أمر قبيح (القبح أمر نسبي)، فلان خائن، هو شهم؛ واستخدام الكلمات الإيحائية، مثلاً: وجب جهاد العدو... فالكلمة التي تحتها خط، تنبئ عن موقف المتكلم لقيمتها الإيحائية، ولكن لو قيل: اقتحمت مجموعة من الشبان مركزا عسكريا... فإن هذه الجملة غير تعبيرية؛ لأنها تخلو من التعبيرات التي توحي بموقف المتكلم.

وتستخدم الوظيفة التعبيرية في مواقف معينة؛ مثل: الشجب، والاستنكار،

والاعتذار، والشكر، والمدح، والتعزية، والتعجب.

2- الوظيفة العملية: هي استخدام اللغة مقام الفعل، وهذا يظهر في عبارات إمضاء العقود والمعاملات والزواج والطلاق وإصدار الأحكام والتسمية. نحو قولك: زوّجتك بنتي فلانة، أو: وهبتك هذه الدار، وأنت طالق؛ فهذه العبارات تحل مكان الفعل، ويترتب عليها أمور قضائية ودينية واجتماعية.

3- الوظيفة الاجتماعية: هي التي يراد منها فتح قنوات الاتصال بين الناس، وتوثيق الصلات بينهم. هذه الوظيفة ليس الهدف منها نقل المعلومة بالدرجة الأولى؛ بل توثيق الروابط الاجتماعية، فالإنسان مخلوق اجتماعي بطبعه، يكره الصمت ويفضل التواصل، لذلك لا بد له من أن يستخدم هذه الوسيلة لتحقيق ذلك. وهذا يتأتى من خلال ثلاثة أمور:

1- فتح قنوات الاتصال بينه وبين الآخرين، ويكون ذلك من طريق: (أ) عدد من أساليب التحية (ب) السؤال عن الطقس والأحوال المعيشية، (جـ) الكلام عن الظرف أو الحال الراهنة التي يوجد فيها مع غيره.

2- المحافظة على سلامة القناة الاجتماعية من طريق تشجيع المتكلم على الحديث، أو حثه على الاستماع.

3- إغلاق قناة الاتصال بطريقة مقبولة اجتماعياً، مثل: «سلم لي على والدك»، أو «هل توصينا بخدمة،» أو «أستأذنك الآن،» «مع السلامة».

4- الوظيفة الإعلامية: وهي استخدام اللغة لنقل الحقائق ووصف الوقائع بطريقة موضوعية مجردة عن الرأي الشخصي والانفعالي للمتكلم، نحو قولك: شب حريق ضخم في غابة استوائية... فهذه الجملة يغلب عليها الطابع الموضوعي الحيادي. وكثيرا ما تبرز هذه الوظيفة في الأخبار الصحفية والشهادات القضائية. وتظهر أيضا في اللغة الإرشادية ولغة العلوم والتاريخ والقانون.

5- الوظيفة الجمالية: تتضح هذه الوظيفة في الفنون الأدبية؛ كالشعر والقصة

والمسرحية؛ ففي هذه الفنون يكون الاحتفاء بشكل الرسالة وجمالها أكثر بروزا من موضوعها؛ ففي القصيدة مثلا، يكون الاهتمام بالوزن والقافية والصور الشعرية والمحسنات البديعية...

6- الوظيفة التوجيهية (التأثيرية): هي استخدام اللغة للتأثير في سلوك الآخرين ومواقفهم وآرائهم. ومن أبسط مظاهر الوظيفة التوجيهية: الأمر والنهي والإغراء والتحضيض.

ولكن هناك طرق معقدة للتأثير تلاحظ في الخطب الدينية والسياسية، وفي الدعاية والإعلان، حيث تستخدم جماليات اللغة وتستغل العواطف والغرائز للتأثير في المتلقين. وقد أصبح الإعلان صناعة معقدة تتضافر فيها جهود كثير من علماء الاجتماع والنفس واللغة لصنع إعلان واحد...

وسائل الاتصال غير الكلامية

مع أن اللغة الصوتية هي الوسيلة الإنسانية الشائعة بين الأمم إلى حد أنه لم يثبت وجود شعب لا يستعمل اللغة الصوتية في الاتصال، إلا أن الإنسان يستخدم بجانب ذلك وسائل اتصالية غير كلامية، بعضها قد يصاحب الكلام وبعضها الآخر مستقل عنه[1].

(أ) الملابس والأزياء: وهي تستخدم للتعبير عن الأحوال النفسية كلبس الملابس البراقة والجديدة في الأعياد ومناسبات الزواج والفرح. وتُرتدى الملابس السوداء للتعبير عن الحزن على موت قريب أو صديق. وقد ترتدى ملابس خاصة في مناسبات دينية كارتداء الإزار والرداء في الحج. والملابس لها قيمة اجتماعية

1 ـ سالم سليمان الخماش، جامعة الملك عبد العزيز بجدة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

تشي بانتماء الفرد إلى مجتمعه وتقاليده، وهي رمز للمحافظة، والتساهل فيها قد يكون مؤشرا للتمرد الاجتماعي. والملابس قد تدل على وظيفة الفرد أو نوع نشاطه واهتماماته، فهناك ملابس خاصة للملوك والعسكر، وخدم المطاعم والفنادق، الأطباء والممرضين، وعمال الصيانة وغيرهم.

(ب) الرسوم والصور: استخدم الإنسان الصور والرسم منذ عصور بعيدة جداً، وقد وجدت على جدران الكهوف التي عاش فيها الإنسان القديم، وهذه الصور لم تكن جمالية بحته، وإنما كانت للاتصال وتبادل الرسائل مع أفراد جنسه. وفي عصرنا الحاضر أصبحت الصور لا غنى عنها في التعلي والإعلام. لذا يندر أن تخلو صحيفة أو مجلة منها. وأصبحت الصور التلفزيونية الحية أقوى تعبيرا من الكلمة.

(جـ) الإشارات والإيماءات: قيل إن الإنسان يستطيع أن يصنع آلاف الإشارات من طريق استعماله كل حواسه وأطرافه، حتى إن (بياجيه Piaget) ذهب إلى القول إن اللغة الإنسانية بدأت بحركات إشارية ثم تطورت إلى صيحات تطورت إلى كلمات تصاحب تلك الحركات، ثم أصبح الإنسان بعد ذلك يعتمد على الصوت أكثر من الإشارات. واللغة الإشارية تبدأ منذ مراحل الطفولة الأولى، فصغير البشر يقرأ الغضب في وجه أبيه والاستحسان في وجه أمه قبل أن يفقه كلمة واحدة. والإشارة ضرورية لإيضاح الاتصال الكلامي. إن الكلمات المكتوبة لا تنقل إلا 7 % من شعور الإنسان وموقفه، أما النطق فيرتفع فيه المردود إلى 38 %، في حين أن تعبيرات الجسم تقفز بالرقم إلى 55 %. وقد وجد أولئك الذين حرموا نعمة السمع في اللغة الإشارية وسيلة تمكنهم من التعبير عن مشاعرهم وآرائهم. وقد أصبحت لغة الإشارة معترفا بها في كثير من دول العالم، يُنظر إليها على أنها اللغة الطبيعية الأم للأصم، بل لقد أصبح لدى المبدعين من الصم القدرة على إبداع قصائد شعرية ومقطوعات أدبية ، وترجمة الشعر الشفوي

إلى هذه اللغة التي تعتمد على الإيقاع الحركي للجسد ولا سيما اليدين، فاليد وسيلة رائعة للتعبير بالأصابع وتكويناتها، يمكنه أن يضحك ويبكي، أن يفرح ويغضب، كما يمكنه الغناء والتمثيل باليد، بدلا من الغناء والتمثيل الكلامي، وأطلق أحدهم شعار "عينان للسماع."

(د) النار والدخان: استخدمت النار وسيلة للاتصال في المجتمعات القديمة، فالعربي يشعل النار ليبدي استعداده لاستقبال الضيوف، وقوة النار دليل على صدق كرم صاحبها وضعف النار أمارة على ضعف الجود والمروءة ، قال الشاعر يهجو:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النار

وقد استخدم اليونان النار وسيلة للاتصال السريع في أثناء الحروب، حتى قيل إن أخبار سقوط طروادة نقلت من بلاد الأناضول إلى أثينا من طريق إشعال سلاسل من النيران. والدخان أيضاً يستخدم إشارة لطلب النجدة أو للإعلام بمواقع التائهين في الجبال أو الغابات. ويستخدمه الهنود الحمر للاتصال.

(هـ) الطبول: يقال "دقت طبول الحرب" لأنها كانت تستخدم وسائل للإنذار من عدو داهم، أو لدعوة حشد الجنود والجيوش والناس إلى الحرب والغزو. وتستخدم الطبول أيضا لإشهار الزواج والفرح. وفرق الموسيقى في الجيوش الحديثة تعطى إشارات معينة باستخدام الطبل وبعض الآلات المزمارية والنحاسية لتنفيذ تشكيلات معينة في أثناء الاستعراضات العسكرية.

(و) البوق والصفارات والأجراس: يستخدم اليهود البوق للدعوة إلى صلواتهم، وتدق الكنائس أجراسها لدعوة أتباعها. والبوق أيضا أداة للإنذار، قال تعالى: {فإذا نفخ في الصور}، ونحن اليوم نستخدمه في السيارات لتنبيه المارة أو تنبيه قائدي السيارات الأخرى إلى تجاوزاتهم المرورية. والجيوش الحديثة تستخدم الأبواق لإصدار إشارات عسكرية تتعلق ببعض التشكيلات والتحركات الميدانية،

ويذكر أن الجيش الأمريكي يستخدم 40 نوعاً من أصوات البوق كل منها له دلالة معينة. والصفارات أيضا تستخدم للاتصال عبر مسافات طويلة. ففي قرية Kusnoy كسنوي التركية يتبادل الناس الرسائل بواسطة الصفير بشكل ملفت للنظر، إلى درجة أنهم يتبادلون الشتائم والسباب في شكل أنواع من الصفير. وسكان Gomera غوميرا في جزر الكناري عرفوا بإسرافهم في استخدام الصفير وسيلة للاتصال بينهم عبر مسافة بعيدة. والصفارة يستخدمها العسس للإنذار والإشعار بوجودهم. ويستخدمها رجال المرور لتنظيم حركة السيارات في مناطق الاختناقات وتقاطع الشوارع. وحكام الرياضة ومدربوها يستخدمونها لتنظيم بداية الألعاب ونهايتها أو للتنبيه إلى الأخطاء التي يرتكبها المشاركون في هذه الألعاب.

(ز) أصوات غير لغوية: هذه الأصوات تستخدم لزجر الحيوانات أو حثها. منها مثلا: ده، جَه، لزجر الإبل، إسّ، هِسّ هج لزجر الغنم، وكخ لزجر الطفل. وقد تستخدم هذه الأصوات للتعبير عن الألم، مثل أح، أخ، أو الحزن والأسف أوّه آه ...

أنظمة الاتصال عند الحيوانات والحشرات

وسائل الاتصال عند الطيور:

تصدر الطيور أصواتاً مختلفة، منها ما تستخدمه لتحذير بعضها البعض، ومنها ما تعبر به عن مرحها ولعبها، وتصدر ذكور الطيور أصواتاً، تحذر بها غيرها من الذكور من الاقتراب من أعشاشها. كما تصدر أسراب الطيور أصواتاً معينة، عندما تهم بالهجرة، فيجتمع الآخرون لدى سماع تلك الأصوات للاستعداد للرحيل. أما عند العصافير، فهناك زقزقة النداء التي يحدثها الذكر لاجتذاب الأنثى عند التزاوج، وزقزقة التحذير التي تحذر العصافير بها بعضها البعض، عند اقتراب الأعداء.

ومن أعجب أساليب التفاهم أسلوب الحديث بين الطائر الذي يسمى «الهادي إلى العسل»، والحيوان المعروف باسم «آكل العسل». فالأول منها يحب أكل يرقات النحل حين تكون كالدود، وآكل العسل مغرم بالعسل. فنرى الهادي إلى العسل، يطير مطوفاً في أنحاء الغابة، باحثاً عن شجرة فيها خلية نحل، ثم يرتد مسرعاً إلى «آكل العسل»، فيحوم فوق رأسه، صارخا: «سِرْ، سِرْ» ليقوم آكل العسل فيتبع أثر الطائر. ولما كان هذا الحيوان في حماية من جلده كثيف الشعر، فلا يضره لسع النحل، فهو يهجم على الخلية، ويمزقها إرباً، ثم يجتمع هو والطائر على هذه المائدة الشهية.

وسائل الاتصال عند الحشرات:

عكف العلماء، على دراسة ما وصفوه بلغة النحل، ولغة الحشرات، وكانت خلاصة مشاهداتهم، ورصدهم لها كالآتي:

لغة النحل

لما كان العمل الذي تؤديه النحلة محدوداً، ألا وهو صناعة العسل، وجمع المواد الأولية اللازمة له، وما يتبع ذلك من أعمال، فإنها لم تكن بحاجة في لغتها إلى ما يعبر عن أكثر من هذه المعاني...ولديها ما نسميه «قاموس لغة التفاهم» بين النحل، وهو مفردات تصلح للتشجيع على جلب الرحيق، والدلالة على مكان وجوده. وفي ما عدا ذلك، فإن بقية الأعمال داخل الخلية، تحدث بصورة آلية. أما إذا ظهر عامل مفاجئ، كهجوم جسم غريب على الخلية، فتكفي الإشارة المعبرة عن ذلك. فالنحلة الجامعة للرحيق مثلاً، عندما تأتي إلى الخلية، وتفتح فمها، وتدلي لسانها على ذقنها، وتدفع نقطة الرحيق إلى قاعدة اللسان، بحيث تراها الشغالة، الصانعة للعسل؛ إنما تقف في وضع يغنيها عن الطلب من النحلات صانعة العسل، أن تأتي وتمتص الرحيق من فمها.

ولكن، كيف تكون اللغة بالنسبة إلى الأمور التي هي أكثر تعقيداً كالدلالة على بستان ممتلئ بالزهور، اكتشفته إحدى الشغالات؟ إن اللغة التي تستخدم هنا هي لغة الرقص، وهو نوعان:

أولاً : الرقص الدائري: إذا كانت المسافة التي تفصل مكان الرحيق، عن مكان الخلية لا تتجاوز خمسين مترا، فإن الشغالة تقف على أحد الأقراص الشمعية، وتجري رقصات دائرية يميناً وشمالاً، ويراقبها باقي النحل، ثم يشاركها رقصاتها، ويدور معها حيث دارت، ثم يتجه الجميع مسرعين، لمغادرة الخلية والوصول إلى المكان الذي استمدت منه النحلة الأولى رحيقها. والشغالات يذهبن إلى المكان،

وقد عرفنه جميعاً، من دون أن يتبعن النحلة الأولى. والعجيب أن النحلة الراقصة لا تدل برقصها على المكان فحسب، بل إنها تعبر عن وفرة الرحيق، ومدى تركيز المواد السكرية فيه من خلال مدة الرقص التي كلما ازدادت دل ذلك على زيادة كمية الرحيق، ما استدعى خروج عدد أوفر من الشغالات، يخرجن إلى ذلك النوع المحدد، ولا يضيعن الوقت في البحث بين الأنواع الأخرى.

ثانياً: الرقص الاهتزازي: عندما يكون مكان الرحيق أكثر من خمسين مترا، إلى 11 كم، تستخدم النحلة السارحة، الرقص الاهتزازي، وهو عبارة عن لفات تتناقص كلما بعدت المسافة، بحيث تكون سبع لفات عندما تكون المسافة 200 متر، وتكون 4.5 إذا كانت المسافة كيلومترا واحداً، بينما تكون لفتين إذا كانت المسافة 6 كم .

ولغة الرقص تحدد الاتجاه كذلك، فإذا كان رأس الشغالة إلى أعلى خلال الرقص، فمعنى ذلك أن الرحيق في اتجاه الشمس، وإذا كان رأس الشغالة إلى أسفل فالاتجاه مضاد للشمس، وإذا كان مائلاً بزاوية 60ْ، فمعنى ذلك أن الرحيق على زاوية 60ْ على يسار الشمس، وهكذا.

تعتمد الحشرات على حواس الشم، والرؤية، والسمع، في تفاهمها واتصالها، بحسب البيئة والظروف التي تعيش فيها. فالجراد يعتمد على الرؤية أكثر من أي حاسة أخرى، بينما غيره من الحشرات يعتمد على السمع، أو الشم، ويعد الرعاش، من الحشرات التي تعتمد على الرؤية أكثر من أي حاسة أخرى، حتى يطلق على الرعاشات، حشرات التجسس.

أمّا لغة الإشارات، والألوان، فهي شائعة في كثير من الحشرات، فمثلاً حشرة الصرصور المدغشقري العملاق، نجد الذكر منه يستخدم خمسة أنواع من الإشارات، للدلالة على العداء أو الصداقة أو التناسل، أو الجوع، أو العطش، وكل إشارة لها معناها الذي تفهمه بقية أفراد النوع. أما الفراشات، فتستخدم

إناثها الألوان، وتوزيعها بطريقة معينة، حينما تلمحها الذكور تتجه إليها مباشرة. وتستخدم الحشرة النارية لغة الإضاءة، حيث تقبع الأنثى بين الأعشاب ليلاً، وترسل ومضات صوتية كل سبع وخمس ثوان، ويبادلها الذكر ومضات أخرى، ثم يحدث اللقاء عقب ذلك، وكذلك الحال في الذبابة النارية.

وهناك اللغة الكيماوية التي تسمى في بعض الأحيان لغة الرائحة، وهي تعتمد على بث روائح معينة، أو فرز مواد معينة، أطلق عليها العلماء اسم الفيرمونات، وهي شائعة بين النمل، والنحل، وعديد من الحشرات حرشفية الأجنحة، مثل الفراشات. وتستخدم الفيرمونات، للتعارف بين الأنواع، حيث تنتشر الفيرمونات في الجو، أو على سطح الماء. وكل مستعمرة لها رائحة خاصة، وفي خلايا النحل، مثلاً، عندما يوجد عابر سبيل، أو جنود من مستعمرة أخرى، لها رائحة مختلفة، فإنهم يتعرضون للمقاومة الشرسة. كذلك عندما يقترب غريب من مستعمرة النحل، تلسعه إحدى الشغالات، ثم بعد مدة قصيرة، تنضم مجموعات أخرى من الشغالات، تشاركن في الهجوم عليه، لأن الشغالة الأولى، أفرزت رائحة خاصة، دلت الأخريات على وجود غرباء وأنهن لا بد من أن يسارعن إلى المشاركة في التصدي له.

وهناك لغة اللمس: حيث نجد كثيراً من الحشرات، مزودة بشعيرات خاصة تكتشف بها الظروف المحيطة بها، وحيوان الأرضة، يستخدم شعيرات اللمس، للتعرف على الأماكن، مثل إجراء بناء أماكن خاصة لها. ونجد الذكر في ذبابة الفاكهة، يتعرف على الأنثى عن طريق اللمس.

وسائل الاتصال عند الحيوان

أورد كثير من العلماء المتخصصين في علوم الحيوان، صوراً من أساليب التفاهم بين الحيوانات والطيور، ونختار أمثلة لتبيان تلك الأساليب:

-اللغة المرئية، وذلك بأن يأتي الحيوان بمجموعة حركات، لها معناها عند بقية الحيوانات من جنسه، كهز الذيل، وتحريك قرون الاستشعار. فمثلاً الفيلة، تُحيِّي بعضها البعض، عند لقائها في الغابة برفع الخرطوم إلى أعلى، وبعد التعارف وتجاذب أطراف الحديث يودع بعضهم بعضاً برفع إحدى الساقين الأماميتين، والانحناء إلى الأمام قليلاً، والخراف تلعب، وتمرح، وتتفاهم، في أثناء اللعب بهز أذيالها بحركات مختلفة، وكذلك الكلاب.

-المحادثة الصامتة، أو اللغة الكيماوية، وذلك عن طريق إنتاج روائح خاصة وبثها في الهواء، فمثلاً. في حالة حيوان الأرضة، يقف الحراس عند باب مملكتهم، وعند دنو خطر ما من باب المستعمرة، يفرز هؤلاء الحراس مادة كيماوية، لها رائحة مميزة، فيستعد باقي الأفراد للدفاع.

والذئب إذا زاد طعامه عن حاجته، دفن جزءاً منه في التراب، وخلف هناك شيئاً من رائحته، عالقاً بالمكان، فيفهم سائر الذئاب فحوى رسالته حق الفهم. والكلاب كذلك تدور بينها أحاديث لا تنقطع عن طريق الشم.

-اللغة المسموعة، عن طريق موجات الصوت، التي تنتقل في الهواء، أو تحت الماء بين الأسماك، لتحذر بعضها البعض، عند حدوث الأخطار. فأسراب الأسماك في البحار والمحيطات، تصدر تلك الأصوات، عن طريق مثانات هوائية، بداخل أجسامها، وتعمل هذه المثانات عمل الطبول...إلى جانب حركات وإشارات، تعتمد عليها الأسماك خصوصاً في مواسم التزاوج. والدلفين ينتج أنواعاً من النباح والصفير والطقطقة وأصوات فوق صوتية وتحت صوتية لا تستطيع الأذن الإنسانية سماعها.

والضفادع مزودة بأكياس تحت ذقونها، تملؤها بالهواء، وعند مرور هذا الهواء، فإنه يصطدم بالحبال الصوتية، محدثاً «النقيق»، كأسلوب للتفاهم بين الضفادع.

أمّا الحصان، فإن الأم تصدر صوتها، «الصهيل»، فنرى صغارها تسرع إليها على الفور.

والدببة كذلك، تتحدث في ما بينها، ونرى الدبة الأم عند دنو خطر ما، تأمر صغارها بالهرب، وتسلق الأشجار ليكونوا في مأمن من الأعداء، ثم إذا شعرت بالأمان، ضربت بكفها جذع الشجرة، فيسرع صغارها بالنزول. كما تصدر القردة أصواتاً متنوعة، ويجتمع أفرادها، يتجاذبون الحديث بهذه الأصوات.

هذا دفع عدداً من علماء النفس واللغة إلى محاولة تعليم اللغة الإنسانية لبعض الحيوانات، وكان التركيز على الشمبانزي... الذي حاولوا أن يعلموه ألفاظاً ينطقها، لكن التقارير تقول إنه تعلم معاني عددٍ من الكلمات لكنه أخفق في النطق بها لأن تركيب فكيه لا يسمح له بنطق أصوات إنسانية.

فعمدوا إلى تعليم قردة لغة الإشارة... وذكر إنهم استطاعوا أن يعلموها ما يقارب مئة كلمة، وزعم أنها أصبحت تركب جملاً بسيطة من الإشارات، بل ذهبوا إلى القول إنها اخترعت كلمات وإشارات من ذاتها.

وحاول آخرون أن يعلموا قردا كلمات عن طريق الأشكال... ولاستبعاد عامل المحاكاة حاولوا أن لا تكون هناك علاقة محاكية بين الشكل والمعنى، وزعموا أنه تعلم عدداً من الكلمات وأنتج عن طريقها عددا من التركيبات.

وقد شكك بعض العلماء في هذه التجارب...

ب - مراحل تطور اللغة عند الطفل (مراحل اكتساب اللغة)

اللغة هي وسيلة الاتصال الأساسيَّة بين الأفراد في المجتمع؛ فبعض أخطاء الاتصال الإنساني في العلاقات الاجتماعيَّة ناتج عن أخطاء في استعمال اللغة، وهي كذلك وسيلة من وسائل النمو العقلي، والتَّوافق الانفعالي والتَّنشئة الاجتماعيَّة، واللغة نوعان لفظيَّة وغير لفظيَّة؛ أي مكتوبة...

فاللغة تلازمنا منذ الولادة، ونحن نستخدمها في جميع أوجه الحياة... فاللغة – ولا سيما قواعدها - ميزة إنسانيَّة فطريَّة؛ لأن الاستعداد للكلام فطري، أمَّا اللغة التي يتحدَّث بها الفرد فهي مكتسبة؛ أي متعلمة... ما يدفع إلى طرح السؤال الآتي: ما هي مراحل التطور اللغوي عند الطفل؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، لا بد من الإشارة إلى أن اكتساب المهارات اللغوية، ومهارات الاتصال، يعد في غاية الأهمية لتحقيق النمو الشامل المتكامل للطفل؛ نظرا إلى أن الطفل المعوق لغويا، لا يتمكن من التفاعل السليم والآخرين، ويسعى إلى الابتعاد من المجتمع، (كحالة الطفل فيكتور)... ويتقوقع في داخل ذاته المغلقة، ولا يرغب في الحركة والنشاط، إنما يسعى إلى الانفراد بذاته والابتعاد من الأشخاص، ويترتب على ذلك قصور في جميع مجالات نموه...[1]؛ آية ذلك، أن النقص في التعلم اللفظي، ولا سيما من طريق الاكتساب والانتقال من الكبار إلى الصغار من خلال عمليات التفاعل اللفظي... تكون له علاقة مباشرة بالضعف العقلي والتخلف الدراسي العام؛ إذ إن هذا النوع من التعلم يؤدي الى مثل هذه الإعاقات...[2]

وفسر كل من برايتر وأنجلمان الحرمان الثقافي كمرادف للحرمان اللغوي والتأخر العقلي والدراسي، نظرا الى أن اللغة ليست مجرد التمثيل الرمزي للأفكار والأشياء؛ إنما هي الوسيلة المباشرة للتعبير عن المشاعر والأفكار، ويدخل ضمن ذلك لغة الجسد والإيحاءات وغيرها من وسائل الاتصال؛ ولقد اعتقد بياجيه بأن التفكير يسبق اكتساب اللغة... والواقع أن أول اتصال لغوي للطفل يظهر في شكل انفعال وبكاء وصراخ، بهدف التعبير عن المشاعر والرغبات... أما استخدام الكلمات والمفاهيم والرموز للتعبير عن الأشياء والأحداث المختلفة، فيتطور في وقت لاحق...

---

1 ـ مريم سليم. علم نفس النمو. ص293

2 ـ سعدية بهادر. المرجع في برامج تربية الأطفال. القاهرة، 1994، 235

وتوصل الباحثان الى أن تعليم الطفل الحروف الأبجدية، وتدريبه على تحليل المفاهيم، ونطق الألفاظ المختلفة قبل التعرض إلى الخبرات الحياتية المرتبطة بالطفل[1]... لا تكفي لاكتساب الطفل اللغة وتدريبه على المهارات اللغوية، وتمكينه من تحقيق النجاح في مستقبل حياته...[2]

وفي هذا السياق، يمكن التوقف عند عدد من التجارب التي تشير إلى أن هناك مرحلة حرجة لتعلم اللغة عند الإنسان، وإن تجاوزها الفرد، وهو لم يتعلم لغة إنسانية، خملت قدراته الفطرية اللغوية، ولم يعد قادرا على إتقان اللغة.... ومن هذه التجارب:

1- فيكتور (Victor) الفرنسي: وُجد هذا الفتى في إحدى غابات فرنسا يعيش بين الحيوانات، وعند القبض عليه، وجد أنه لا يمتلك أي لغة. وكان عمره 12 سنة، وأدخل مدرسة للصم مع أنه لم يكن أصما. وسماه الذين تعهدوا حضانته (فيكتور). وقد عُهد به إلى طبيب فرنسي اسمه إيتارد (Itard) ليعلمه اللغة... ولم يستطع أن يتعلم إلا جملا قليلة مختلة التراكيب، وبعد محاولات كثيرة أعلن هذا الطبيب إخفاقه، وتنصل من هذه المسؤولية، وتركه عند خادمته حتى مات....

2- الطفلة الأمريكية جيني (Genie): وهي فتاة حبسها أبوها بعيداً من الناس، ولم تختلط بأحد من البشر حتى وصل عمرها إلى ثلاث عشرة سنة... ووصل خبرها إلى السلطات الأمريكية التي حجرتها من عزلتها. ووجد أنها لا تتكلم أي لغة... ووجد علماء اللغة والنفس فرصة لفحص الأفكار والنظريات اللغوية السائدة... وحاول كثيرون أن يعلموها اللغة الإنجليزية؛ لكنهم لم يستطيعوا أن يعلموها إلا ألفاظاً قليلة، ولم تستطع أن تتقن تراكيب الجمل بشكل طبيعي...تنقلت بين العلماء وبيوت الرعاية، وفي النهاية انقطعت أخبارها ولم تعد محط اهتمام

---

1 ـ تلك التي تحرك من مشاعره وعواطفه وتجعله يفكر...

2 ـ مريم سليم. علم نفس النمو. ص294

الباحثين... [1]

3-طفل صحراء حلوان: هذا غلام عثر عليه في صحراء حلوان بين قطيع من الغزلان، وسمع بعد أن قبض عليه يصيح بأصوات غير مفهومه... وقد ذكر إبراهيم أنيس أنه زاره في أحد الملاجئ بعد شهور من العثور عليه، وظهر له أنه ينطق كلمات متقطعة غير مفهومة استمدها ممن حوله... وكان يتعثر في النطق بها كأنه طفل في السنة الثانية من عمره[2]...

4- طفلا كوبنهاجن: يروي يسبيرسون أن طفلين (توأما) نشأا في كوبنهاجن مع أمهما التي أهملتهما بشكل شائن، فشبا منعزلين عن الناس زمنا ما. ثم مرضت الأم، وأودعت المستشفى، تاركة طفليها في رعاية عمة لهما صماء بكماء... وسُمع هذان الطفلان يتكلمان لغة غريبة، وسمع يسبيرسون هذه اللغة ودرس مفرداتها، فوجد أنها تتصل بلغة البيئة؛ غير أنها كانت ممسوخة؛ حذفت منها أصوات، وعوض منها بأخرى، كما وجد أن بعض كلماتها يمكن أن يُعد صدى لأصوات الطبيعة...

جلي مما سبق، أن لمرحلة الطفولة دورا مهما في اكتساب اللغة وتطورها عند الطفل... ذاك التطور الذي يمر بمراحل عديدة... قبل اكتمال النضج اللغوي... وهو ما توضحه الخطوات الآتية:

1- مرحلة ما قبل الكلمة الأولى:

عندما يأتي الوليد إلى هذا العالم، تكون أجهزته الإدراكيَّة والصوتيَّة غير قادرة بعد على إصدار الكلام؛ ولكن هذه القدرة تكتسب بناءً على عمليَّة نضج الجهاز العصبي المركزي، وتتمثَّل مرحلة ما قبل الكلمة الأولى بالصراخ، ثم المناغاة،

---

1 ـ تطرقنا إلى هاتين التجربتين سابقا

2 ـ إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، ص 3.-31.

وفي ما يأتي موجز لكل منهما...

أ-الصراخ: يبدأ الطفل تعبيره الأول عندما يبعث بصيحته الأولى عند الولادة؛ تلك الصيحة التي تصدر نتيجة اندفاع الهواء السَّريع إلى الرئتين مع عملية الشَّهيق الأولى في حياة الوليد،

ثم تصبح الأصوات، والصراخ بعد ذلك، نتيجة انفعال وتعبير عن الضيق؛ لقضاء الحاجة، أو التَّعبير عن حاجة الوليد إلى الطعام، أو الإعلان عن الضيق والألم الفسيولوجي... وتتسم الشهور الأولى من حياة الرضيع بنشاط صوتي حاد، وتشكل صرخاته في الأسابيع الأولى ألوانا من النشاط الصوتي الفطري الصرف...[1]

كما أنَّ للصراخ وظيفة أخرى؛ لكنها تأتي عرضًا، وهي تدريب عضلات النطق على إصدار الأصوات وصقلها وتطويرها.

وعلاوة على الصراخ، هناك أصوات في الشَّهرين الأول والثاني من حياة الطفل، تنتج عن نشاط تلقائي صادر عن الجهاز التَّنفسي والصَّوتي...

ب-المناغاة: المناغاة هي أصوات تخرج لمجرد السرور والارتياح عند الرَّضيع، وهي تظهر في الشهر الثالث، أو منتصف الشهر الثاني من العمر، وتستمر حتى نهاية السَّنة الأولى، وفي هذه المرحلة يناغي الرَّضيع نفسه، من دون أن يكون هناك من يستجيب لصوته، والأصوات التي تظهر في المناغاة تكون عشوائيَّة وغير مترابطة... ويحتاج إصدارها إلى إسهام بعض أعضاء النطق، ما يشكل تمرينا لهذه الأعضاء على الحركة... بيد أن المناغاة، لا تشكل من الوجهة الوظيفية، أصواتا لغوية؛ فهي أصوات لا تنتمي إلى أية لغة، كما أنها توجد لدى الأطفال الصم-البكم؛ لذا، فإنها أصوات كونية وفطرية يعبر الأطفال بوساطتها

---

1 ـ كمال بكداش. علم النفس ومسائل اللغة. بيروت، دار الطليعة.ط1، 2..2، ص24

عن حالات الارتياح بأنواعها (الشبع، والنظافة...)[1].

يبدأ الرَّضيع بالنطق بالحروف الحلقيَّة المتحركة (آآ)؛ لأن الهواء يمر من تجويف «الزور» إلى تجويف الفم، من دون أية عقبة، ثم تظهر حروف الشفة (م م، ب ب)، ثم يجمع بين الحروف الحلقيَّة وحروف الشفة (ماما، بابا)، وبعد ذلك، تظهر المرحلة السنيَّة (د، ت)، ثم الحروف الأنفية (ن)، فالحروف الحلقيَّة الساكنة الخلفيَّة مثل: (ك، ق، ع)، عندما يسيطر الطفل على حركات لسانه، ثم يلي ذلك مرحلة المعاني، وفيها ترتبط بالحروف والكلمات معانٍ محددة؛ فكلمة: (ماما) تعني الأم، وكلمة (بابا) تعني الأب.

ويمكن القول: إنَّ المناغاة هي الطريق إلى تعلم اللغة؛ ففيها يستعذب الطفل إصدار الأصوات وإدراكها، ويحاول أن يحاكي بها ما يصل إليه من أصوات الآخرين وكلماتهم.

ويلاحظ أن المناغاة في هذه المرحلة، قد تكون وسيلة للاتصال مع الآخرين كما الابتسامة، وتزداد مناغاة الطفل إذا لاقى تجاوبا، و«يتكون» النقاش مع الطفل إذا لاقى تجاوبا... ولذا، يقول ولف (Wolf): "إن صوت الاسم هو الأكثر فعالية، والصوت المفضل للطفل هو صوت الإنسان..." إن التحدث إلى الطفل بعد الولادة مباشرة يساعده على الكلام باكرا، والطفل يستمتع بالحديث الموجه إليه؛ يحب النغم والإيقاع والتكرار، وهو يحتاج الى سماع الكلام العادي، وتجدر الإشارة الى أهمية إسماع الغناء الخاص بالأطفال منذ لحظة الولادة...

كما يحب الطفل الأصوات الناعمة والحديث اللطيف، وهذا يساعد على تهدئته، كما أن إغناء بيئة الطفل بالأصوات يساعده على التركيز وتحديد مصادرها...

وهناك من يقسم مرحلة ما قبل الكلمة الأولى إلى مرحلتين؛ الأولى: مرحلة

---

1 ـ كمال بكداش. علم النفس ومسائل اللغة. بيروت، دار الطليعة.ط1، 2..2، ص25

ما قبل الكلام، والثانية مرحلة "إدراك الأصوات وإصدارها"[1] التي تمتد خلال السنة الأولى من العمر، وفيها يبدأ الطفل بالانتباه إلى بعض الأصوات وتمييزها؛ وتصبح لديه القدرة على إنتاج العديد من الأصوات اللغوية التي تأخذ أشكالا متعددة؛ ففي الشهر الأول، يبدأ الطفل بتمييز الأصوات البشرية من الأصوات الأخرى، ويتجه على نحو تلقائي إلى الانتباه إلى بعض الملامح الصوتية، وفي الشهر الثاني من العمر، يتجه الطفل الى تمييز صوت أمه والاستجابة له على نحو مختلف عن بقية الأصوات الأخرى، ويبدأ في الأشهر المتعاقبة بإصدار الأصوات وتقليدها، وتكون مثل هذه الأصوات عديمة المعنى ولا تكتسب معانيها إلا بعد السنة الأولى من العمر، وتأخذ لغة الطفل في هذه المرحلة الأشكال الآتية: الصياح والصراخ، والهديل، والمناغاة، والكلام المنمط أو المشكل...

ويشار إلى أن المرحلتين السابقتين متشابهتان وعامتان لجميع أفراد الجنس البشري، بصرف النظر عن طبيعة اللغة السائدة في المجتمعات المتعددة...[2]

2 - مرحلة الكلمة الأولى:

تعد هذه المرحلة بداية النمو اللغوي الحقيقي عند الطفل، وتمتد بين نهاية السنة الأولى، حتى الشهر الثامن عشر من العمر...[3]

ينطق الطفل ببعض الكلمات المألوفة في نهاية السنة الأولى؛ كاسم الأخ أو

---

1 ـ رافع النصير الزغول وعماد عبد الرحيم الزغول، علم النفس المعرفي، دار الشروق، 2..3، ص24.

2 ـ جمعة يوسف، سيكولوجية اللغة وامرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 145، 199.

3 ـ رافع النصير الزغول وعماد عبد الرحيم الزغول، علم النفس المعرفي، دار الشروق، 2..3، ص241

بعض الأشياء التي يكثر استعمالها... [1]

ويتمكن الطفل من فهم اللغة قبل أن يتكلم بوقت طويل؛ إذ تعد السنة الأولى من حياته مرحلة حاسمة في التطور المبكر للقدرات اللغوية؛ فيتعلم النطق من طريق الانتباه والتقليد، وتدريجيا يحول الأصوات التي يصدرها الى كلمات يمكن فهمها...

والكلمة الأولى للطفل، تعبر عن اهتماماته وحاجاته المباشرة، وعما يجذب انتباهه من الأشياء التي تقع في محيطه...

ويلاحظ أنَّ أول نطق لغوي للطفل يكون من طريق الكلمات المفردة، لا الجُمَل، وأجمعت البحوث على أنَّ الطفل يكون قادرًا على نطق الكلمة الأولى في ما بين السنة، والسنة والنصف بعد الولادة، وأنَّ الطفل المتوسط يبدأ باستخدام كلمات مفردة في حوالي السنة، وأن مفرداته تزداد إلى نحو خمسين كلمة خلال السنة الثانية.

وهناك من يؤكد أن الكلمات الأولى للطفل أو أشباه الكلمات تظهر بين 12 و15 شهرا من العمر، وتمثل هذه الكلمات، في الواقع، ترجيعات تقريبية للكلمات التي يحاول الطفل محاكاتها، من دون أن تتطابق مع أصول النطق بها عند الراشدين تطابقا تاما... [2]

وصحيح أن الطفل ينطق بالكلمة الأولى في نهاية السنة الأولى[3]، إلا أنه لا يستطيع أن يصل إلى المرحلة الكلاميَّة قبل أن يتكوَّن لديه بوضوح مفهوم دوام الشيء؛ أي أنَّ الأشياء تظل موجودة حتى لو غابت عن مجاله الإدراكي الحسي... والمعروف أنَّ الطفل يصبح قادرًا على الاحتفاظ بصورة الشيء، حتى لو غاب

---

1 ـ مريم سلسم. علم نفس النمو. ص191

2 ـ كمال بكداش. علم النفس ومسائل اللغة. ص27

3 ـ مريم سليم. علم نفس النمو. ص192

عن نظره في سن السَّنة والنصف... فوضوح دوام الشَّيء عند الطفل يعطيه القدرة على تكوين معنى، أو دلالة للأصوات التي يستمع إليها، ويعد هذا ضروريًّا لظهور المرحلة الكلاميَّة، ولتوضيح ذلك نتساءل: كيف يستطيع الطفل أن يقول كلمة: (إمبو) مثلاً - أي أريد أن أشرب ماء - ما لم يكن لصورة الماء وجود لديه بشكل مستقِل عن وجود الماء أمامه، أو غيابه عنه؟ إذًا؛ لا بدَّ من تكوين مفهوم الشَّيء عند الطفل؛ حتى يكون قادرًا على النطق بالكلمة الأولى، مع ملاحظة أن النطق بالكلمة الأولى وتكوين مفهوم الشَّيء يظهران في المدة الزَّمنيَّة نفسها من عمر الطفل، ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى بعض الفروق الفرديَّة، إذ قد يتأخَّر بعض الأطفال عن نطق الكلمة الأولى حتى نهاية السنة الثانية.

لا يكتسب الطفل إذاً، معاني الكلمات إلا إذا تكونت لديه المفاهيم أو المعاني التي ترتبط بها هذه الكلمات...؛ أي يرتبط معنى الكلمات الأولى بحدث أو شيء معين، ثم يبدأ الطفل بملاحظة وجوه الشبه التي تجمع بين هذه الأشياء، وبعدئذٍ، يدخل الطفل مرحلة تصنيف الأشياء؛ ولذا، يمكن القول إن هناك مستويات لإدراك الكلمات، وإن الطفل يتعلم معنى الكلمة ووظيفتها وعلاقتها بغيرها من الكلمات على مراحل متتابعة... وبينما يتعلم الطفل النطق، يتعلم التفكير في الكلمات...

ويلاحظ أن الطفل يبدأ بفهم الكلمات والعبارات قبل أن يتمكن من نطقها بنفسه بمدة طويلة؛ فهو يستجيب لبعض الأوامر، مثل: إقفل الباب، أو أعطني اللعبة، أو يشير الى بعض الأشياء أو الأشخاص الذين تذكر أسماؤهم... قبل أن يتمكن من استخدام تلك الكلمات...

كما يلاحظ أن الطفل الذي يعيش في بيئة غنية بالمثيرات اللغوية، وينال عناية وتدريبا من الذين حوله... يتوصل إلى اكتساب اللغة قبل الطفل الذي يعيش في عزلة نسبية... ويجب أن لا ننسى أن الطفل مزود باستعدادات وراثية تعده للكلام، لكنها خاضعة لشروط البيئة؛ ولذا، يجب أن نساعده على تعلم الكلام من طريق

الإكثار من التحدث اليه، والنطق بالكلمات عدة مرات... مبتدئين بالكلمات السهلة البسيطة،... وتشجيعه عندما يتكلم، وعدم تحريف الكلمات أو لفظها بشكل مشوه كي لا ترسخ في ذهنه...[1]

والكلمات الأولى التي يستخدمها الطفل في التَّعبير؛ هي الكلمات التي تتضمَّن الأصوات الأكثر سهولة في النطق...، أمَّا من حيث دلالتها؛ فإنَّ الطفل يبدأ ألفاظه بالكلمات التي تعبر عن اهتماماته المباشرة؛ أي تلك التي تشبع حاجاته الأوليَّة؛ كالطعام، والشراب، واللعب، أو تجذب اهتمامه وانتباهه؛ كالأشياء التي تقع في محيط بيئته؛ كتلك القابلة للحركة؛ كالقطة، والكلب، وزجاجة الحليب (طعام)، والكرة (لعب)...؛ أمَّا الأسماء التي تدل على أشياء ساكنة مثل حائط، أو بيت، والكلمات الوصفية؛ مثل: أسماء الألوان، أو الأحجام (كبير، صغير)؛ أو الأحوال الطبيعية (حار، بارد)، فإنها لا توجد من ضمن مفردات الطفل الأولى.

3 - مرحلة الجملة الأولى (الكلمة الجملة):

في بداية تعلمهم الكلام، يتكلَّم الأطفال بكلمة واحدة يعبرون من خلالها عن جملة، ويظهر ذلك في نهاية السنة الأولى من عمر الطفل، فمثلاً إذا نطق الرضيع كلمة «محمد»؛ فإنه قد يقصد القول: «أريد أن أخرج مع محمد»، أو «محمد أخذ لعبتي»، أو «محمد ضربني»، وعندما يقول كلمة: «باب»، فقد يقصد أن يقول: «هذا باب»، أو «أغلق الباب»، أو «هل هذا باب؟»... وهكذا.

إنَّ الأم تفهم ما يريد الطفل التَّعبير عنه من السياق الذي تظهر فيه الكلمة؛ فهي تعرف بكل بساطة، أنَّ ابنها عندما ينظر إلى حذاء والده على الأرض، ويقول: «بابا»، فهو يقصد أن يقول: «هذا حذاء والدي»، كما أن الأم تفهم ما يريد أن يقوله من خلال نبرة الصَّوت، فإذا قال الطفل: «بابا» بنبرة عالية

1 ـ مريم سليم. علم نفس النمو. ص193

نسبيًّا في حالة غياب والده، فإن الأم ستترجم سؤاله فورًا في هذه الحالة «أين والدي؟»...

وتحمل هذه الكلمات وظيفة الجمل؛ ولذا، تسمى بـ«الكلمات – الجمل»، فكلمة «أنبو» أو «أنبوا» تؤدي، في الحقيقة، دور الجملة «أريد أن أشرب»، لذا، تشكل هذه الكلمات- الجمل إشارات أو علامات...أي أنها سلاسل صوتية ترتبط بمعان معينة...

خلاصة القول: إنَّ السياق الذي تظهر فيه الكلمة، ونبرة الصَّوت، يساعدان الطفل على التَّعبير عما يريد، باستخدام كلمة واحدة، ويساعد الآخرين على فهم ما يريد الطفل التَّعبير عنه.

و«تمتاز مفردات الطفل في هذه المرحلة، بأنها ذات معنى، على الرغم من أن الطفل يستخدمها بطريقة مختلفة عما هو حال الراشدين... ويستدل على معانيها من خلال السياق الذي يحدث فيه الكلام»...

وتسمى لغة الطفل في هذه المرحلة بالتعبير المختزل؛ حيث تشكل الكلمة جملة بحد ذاتها لتدل على المعنى الكلي الذي يسعى الطفل إلى إيصاله للآخرين، فكلمة «مم» قد يكون المقصود بها الإشارة إلى مكان الطعام أو وجود الطعام أو حاجته إليه...

ويمتاز لفظ الطفل بعدم النضج، ولا سيما المفردات الصعبة، نظرا إلى عدم قدرته على التحكم في اللسان وعضلات الأحبال الصوتية، وتكون قدرته على لفظ الأصوات الساكنة أكثر منها في الأصوات المتحركة، كما قد تحدث عملية استبدال أو قلب بعض الحروف بحروف أخرى عند لفظ بعض المفردات، كأن يقلب حرف الجيم بحرف الدال في لفظ كلمة «جاجة» لتصبح داجة، أو يسقط بعض الحروف، كقوله: «مام» بدل «تمام»...

كما يتجه الطفل هنا إلى التعميم اللغوي؛ كأن يستخدم كلمة «عو» للإشارة إلى كل الحيوانات...[1]

4 - مرحلة الكلمتين... ونضج اللغة

...مرحلة الكلمتين تأتي في السنة الثانية من عمر الطفل، وفي النصف الأخير منها على وجه الخصوص..(تمتد هذه الرحلة من نهاية الشهر الثامن عشر حتى نهاية السنة الثانية من العمر)[2]، وما يميز لغة الطفل في هذه المرحلة أنها تصبح أكثر تعقيدا، بحيث يعكس فيها الطفل البناءات الدلالية والنحوية، ويتجه من خلالها إلى تأكيد أنه أصبح قادرا على استخدام الكلام...

وفي نهاية العام الثاني، تحل العبارات المؤلفة من عنصرين أو كلمتين محل الكلمات-الجمل، ومثال ذلك قول الطفل «ماما تش»، داعيا الأم إلى القيام بمشوار، أو «دادا هو-هو» مناديا أباه للرد على الهاتف... وثمة من يعتقد بأن الطفل يعبر في هذه الرابطة التي يقيمها بين هذين العنصرين الصوتيين، عن العلاقة الوظيفية الرئيسة في نحو اللغة، أي علاقة المسند اليه بالمسند، أو الموضوع المحمول... [3]

وتسمى لغة الطفل في هذه المرحلة بلغة التلغراف، لأنها موجزة، لكنها تعكس معاني كثيرة، وتكون أقل تعقيدا من لغة الراشدين، ويستخدم الطفل فيها الأسماء والأفعال والصفات والأدوات والضمائر، وتأخذ الطابع الابتكاري...

ويبدي علماء نفس اللغة اهتماما بهذه المرحلة؛ نظرا إلى الأسباب الآتية:

أ-عندما يضع الطفل كلمتين معا في جملة ما، فهذا يستدعي دراسة الكيفية التي يلجأ من خلالها إلى ترتيب هاتين المفردتين؛ أي تحديد المنظمات والقواعد التي يستخدمها في بناء الجملة...

1 ـ رافع النصير الزغول وعماد عبد الرحيم الزغول، علم النفس المعرفي، دار الشروق، 2..3، ص242

2 ـ م.ن، دار الشروق، 2..3،ص243

3 ـ كمال بكداش. علم النفس ومسائل اللغة. ص28

ب-إن التغييرات في البناء والتركيب اللغوي التي تظهر في لغة الطفل في هذه المرحلة، تكشف عن بعض الأدلة المرتبطة بعملية اكتساب قواعد اللغة، وهذا، بالتالي، يساعد على فهم التطور اللغوي.

ج- عندما يستخدم الطفل كلمتين في جملة، فإن هذا يعني أنه أصبح يعكس أفكارا أكثر تعقيدا في هذه الجمل... وهو مؤشر على استخدام الطفل عمليات عقلية معقدة، ويتمثل ذلك في زيادة فعالية الذاكرة قصيرة المدى على الاحتفاظ بالمفردات، فضلا عن معلومات لغوية إضافية ضرورية لبناء الجملة...[1]

فمرحلة الطفولة المبكرة[2]، تحديدا بعد سن الثانية، تعد من أسرع مراحل النمو اللغوي لدى الطفل، تحصيلا وتعبيرا وفهما، وللنمو اللغوي قيمة كبيرة في التعبير عن الذات والتوافق الاجتماعي والنمو العقلي...[3]

وينزع التعبير اللغوي في هذه المرحلة نحو الوضوح ودقة التعبير والفهم، ويستطبع الطفل التعبير عن حاجاته وخبراته...

وتزداد مفردات الطفل سريعا ما بين الثانية والثالثة، كما يزداد أيضا عدد

---

1 ـ Ashcraft. M. H (1994). Human memory and Cognitive. Harper Collins College. N. Y

2 ـ من الظواهر التي تميز لغة الطفل في هذه المرحلة:

- يغلب على لغة الأطفال تناول المحسوسات لا المجردات.
- يغلب على لغة الأطفال التمركز حول الذات.
- يشوب كلمات قاموس الطفل الغموض، ويعوزه التحديد.
- تكرار الكلمات والعبارات.

-للمزيد، ينظر: محمد السيد حلاوة، مدخل إلى أدب الأطفال .. مدخل نفسي اجتماعي، مصر، المكتبة المصرية للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 2..3م. تقديم: الأستاذ الدكتور/ السعيد الورقي.

3 ـ فيصل عباس. النمو النفسي والانفعالي للطفل. ص31

الكلمات التي يمكن أن يركب منها جملة مفيدة وواضحة، أي تؤدي المعنى...

غير أنه في هذه المرحلة-من الثانية الى الرابعة- لا يستعمل الطفل التراكيب اللغوية الصحيحة؛ إذ إن له تركيبه الخاص...

إن الطفل في مثل هذه الحالة؛ إنما يبتدع صيغة للتعبير عن أفكاره؛ بمعنى أنه يستخلص قاعدة لغوية من النماذج التي يسمعها، ثم يعد لها بعد ذلك، لتأتي أكثر دقة في التعبير... [1]

ويمكن القول: إن التقليد والمحاكاة قد يمهدان للغة الطفل، وقد يعكس استخدام الطفل للرموز اللغوية، نزعة الى تأكيد ذاته وسيطرته... إذ تعد اللغة أداة يستخدمها الطفل للسيطرة على البيئة التي يعيش فيها... ودوافعه الخاصة، فبقدر ما يكون الطفل قادرا على التعبير عن رغباته بوضوح، تكون فرصته أكبر في إشباع حاجاته...آية ذلك، أنه حين يشعر بأنه يستطيع التعبير عن رغباته، فإنه يستطيع حينئذٍ أن يضبط مشاعره، وبذلك، تزداد قدرته على السيطرة على دوافعه ورغباته...

إن الطفل في هذه المرحلة يستطيع أن يعبر عن مشاعره، ويوصل احتياجاته للآخرين، لكنه مع ذلك، لا يستطيع تحقيق التواصل المطلوب مع الآخرين...

ويتأثر النمو اللغوي في هذه المرحلة بالخبرات وتنوعها، وبنوع المثيرات الاجتماعية؛ إذ يؤثر الكبار؛ لهجتهم وطريقة نطقهم، ومستواهم الثقافي في النمو اللغوي للطفل... كما تؤثر الحكايات والقصص تأثيرا كبيرا في هذا المضمار... خصوصا مع مراعاة التكرار (التأكيد) وإشراك الطفل في الموقف... إذ تبرز أهمية القصص المحكية في تدريب الطفل على الكلام... [2]

وهناك فريق من علماء نفس اللغة[3]، يرى أن الطفل في استخدامه جملة

---

1 ـ فيصل عباس. النمو النفسي والانفعالي للطفل. ص32

2 ـ م.ن.، ص32

3 ـ Ashcraft. M. H (1998). Fundation of memory and cognition. Longman

الكلمتين، يكون أكثر اهتماما بالمعنى، أكثر من البناء والتركيب، حيث يسعى الطفل الى نقل المعنى من خلال التركيز على العلاقات الدلالية بين مكونات الجملة التي ربما تتمثل في أحد الأشكال الآتية:

1. بين الفاعل والفعل مثل عبارة (ماما راح)
2. بين الفعل والمفعول به: (سوق سيارة).
3. بين الفاعل والمفعول به (بابا كتاب)
4. بين الفعل والموقع (أقعد كرسي)
5. بين الشيء والموقع (كاسه طاولة)
6. بين الشيء والصفة (لعبة كبيرة)
7. بين المالك والملكية (ماما فستان)
8. بين اسم الإشارة والشيء(هادا فستان).

خلاصة القول إن هناك تطورا واضحا وملموسا يحدث في هذه المرحلة، حيث تزداد حصيلة الطفل اللغوية من المفردات لتصل إلى نحو 2500 مفردة، وتصبح جمله أكثر تعقيدا من حيث التركيب، وتحمل في طياتها معاني حقيقية، وهذا من شأنه أن يسهم في تطور البناء اللغوي لديه في المراحل اللاحقة، ليقترب تدريجيا من لغة الراشدين...

5- شبه الجملة والجملة التامة

يبدأ الطفل حلال السنة الثالثة من العمر، وما بعدها، باستخدام أشباه الجمل التي تتألف من ثلاث أو أربع كلمات، وتزداد قدرته خلال المراحل العمرية اللاحقة على إنتاج الجمل المعقدة نتيجة لعوامل الخبرة والنضج...

ويلاحظ أن نمو اللغة لدى الطفل يكون بطيئاً في بداية هذه المرحلة؛ لأن بناء الجمل الطويلة يتطلب توظيف قواعد البناء الخاصة؛ ومثل هذه القواعد لم يكن

الطفل قد طورها بشكل جيد بعد، ويقترح سلوبن أن اكتساب مثل هذه القواعد يعتمد على مدى تعقيدها من جهة، ومدى الحاجة اللغوية لها من جهة أخرى، وبذلك لا تتطور مثل هذه القواعد لدى الطفل إلا بعد سن دخول المدرسة...

وفي سن الثلاث سنوات، يكون مُعظم الأطفال قد استعمل أنواعًا عديدة من الجمل السَّهلة، يصل طول الجملة أحيانًا من 5 إلى 6 كلمات، وفي السَّنة الرَّابعة يكون نظام الأصوات الكلاميَّة عند الطفل قد قارب كلام الكبار، وإذا وصلنا إلى الخامسة والسَّادسة من عمر الطفل، وجدنا أنَّ نضج اللغة عنده قد أصبح في مستوى كامل من حيث الشَّكل، والتَّركيب، والتَّعبير بجمل صحيحة تامَّة، وتكون الجمل متنوعة تتضمَّن حتى الجمل الشَّرطية والفرضيَّة، ويكون استعمال الألفاظ أكثر دقَّة من قبل.

وتزداد قدرة الطفل على إنتاج الجمل بعد سن الرابعة من العمر، فتصبح جمله أكثر طولا وتعقيدا، ويستطيع التواصل مع الآخرين مدة أطول من خلال الكلام للتعبير عن ذاته واهتماماته، وحاجاته، ووصف الأشياء، والإجابة عن بعض التساؤلات والإدلاء بالمعلومات الإعلامية وغير ذلك، ويستخدم اللغة أداة لحب الاستطلاع والتعلم، فهو غالبا ما يطرح الأسئلة... متسائلا عن الكثير من أسباب حدوث الأشياء وخصائصها ووظائفها واستخدامها.

ويصبح الطفل أيضا قادرا على تصريف الكلام حسب الجنس والعدد والزمن، بحيث يستخدم قواعد الصرف الخاصة بجنس المتكلم أو الغائب والعدد (مفرد، وجمع، ومثنى)، وزمن الفعل (ماض، وحاضر، ومستقبل)، وتزداد قدرته أيضا على الترتيب والتنظيم للمفردات اللغوية والابتكار اللغوي، حيث يستطيع توليد العبارات الجديدة وغير المألوفة، ما يؤدي إلى زيادة عباراته وتنوعها كما ونوعا، ومع دخول الطفل المدرسة، يكتسب تدريجيا القواعد الأكثر تعقيدا في البناء

اللغوي، وتصبح لغته أكثر انتظاما وتعقيدا، وهكذا يتجه تدريجيا لاستخدام لغة الراشدين...[1]

ج-المهارات اللغوية

نذكر أن الطفل ينهي عامه الثاني، وقد تجمع لديه قاموس لغوي يبلغ حجمه نحو خمسين كلمة، حتى تصل إلى نحو 2000 كلمة في السنة الخامسة، ويكون قد سيطر على مجمل الأصوات الرئيسة (المتحركة والساكنة)، وتوصف جمله بأنه برقية لقصرها، ويغيب عنها الالتزام بالقواعد اللغوية، لكنها تكفي الطفل الرضيع للتعبير عما يريده أو يشعر به أو يفكر به، وقد يظهر قدرة على استخدام أدوات الربط (حروف العطف) ليصل ما بين جملتين...

وبين سن الرابعة وست سنوات، تنزع لغة الطفل نحو الكمال، فيستعمل جملة مفيدة تامة، ويسيطر على الأجزاء المتداخلة في اللغة كالضمائر، ويدرك المعاني العامة مثل: في، وفوق، وعلى، وتحت...وبذا، يتمكن من التعبير عن نفسه، ويتصل بغيره من الأفراد بطريقة أكثر مرونة وسرعة من ذي قبل، ويظهر ميلا قويا إلى الاستطلاع؛ فيطرح الكثير من الأسئلة، مثل: لماذا: كيف؟ أين؟ من؟... ومن الضروري جدا الإجابة عن أسئلته، وعدم التذمر منها، وفي هذا العمر، تتضح الفروق الفردية بين الأفراد تبعا للخبرة والشخصية والقدرة العقلية والبيئة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، فتكون الحصيلة اللغوية للطفل متأثرة بمستوى ذكائه والمستوى التعليمي للأسرة...[2]

ويتوقع أن يأخذ كلام الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة بالاكتمال التدريجي،

1ـ رافع النصير الزغول وعماد عبد الرحيم الزغول، علم النفس المعرفي، دار الشروق، 2..3،ص243

2 ـ علي زيعور، ومريم سليم، حقول علم النفس. بيروت، دار الطليعة، 1986، ص1.2

وتزداد مفرداته، وتطول جملته، وينطق الكلمات نطقا صحيحا، ويلاحظ بزوغ التمييز بين التذكير والتأنيث، وكذلك الجمع وجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم...

إن المتتبع لنتائج دراسات الحصيلة اللغوية عند الطفل لا يجد اتفاقا في النتائج من حيث كم المفردات التي يتقنها الطفل، فبعض الدراسات يشير الى متوسط مقداره (2500) كلمة مفردة في نهاية هذه المرحلة، في حين يشير البعض الآخر الى نحو 4000 ، والبعض الثالث يزيد قليلا أو ينقص...

ولا شك في أن الأكثر أهمية من كم المفردات هو ظهور الأساليب اللغوية، وقدرة الطفل على إحداث تركيبات لغوية، وطول الجملة التي يكونها؛ بتعبير آخر كفاية الطفل اللغوية...[1]

د-نظرية التطور في نشوء اللغة ومراحل النمو اللغوي

الواقع أن هناك نظريات عديدة لبداية اللغة لا تخلو من نقد... منها نظرية التطور التي تعتمد كثيراً على معطيات نظرية دارون (Darwin) في النشوء والتطور في الأحياء. هذه النظرية أثرت في كثير من العلوم الإنسانية كالإنثروبولوجيا (علم الإنسان) وعلم الاجتماع والفلكلور وغيرها. ووجد فيها بعض علماء اللغة وسيلة لتفسير أصل اللغة؛ ولذا نجدهم يفترضون أن اللغة لم تبدأ كاملة منذ الوهلة الأولى، إنما تطورت مع تطور جسم الإنسان ومخه وقدراته العقلية. ويقارنون أطوار تطور لغة الإنسان القديم بمراحل النمو عند الأطفال. وهذه المراحل في نظرهم كالآتي:

1- مرحلة الأصوات الانبعاثية الساذجة؛ حين كانت أعضاء النطق غير ناضجة،

1 ـ Oleron P. Language et development mental. Bruxelles. 1972

والميول والرغبات غير واضحة، هذه المرحلة في نظرهم تشبه حالة الطفل في الشهور الأولى من حياته.

2- مرحلة الأصوات المكيفة؛ المنبئة عن الأغراض والرغبات، المصحوبة بإشارات متنوعة. في هذه المرحلة، يظهر التمييز للأصوات كالجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والتمييز في نطق بعض الأصوات الشفوية (ب، م)، وهذه المرحلة تناظر حالة الطفل في أواخر السنة الأولى عندما يبدأ بترديد أصوات مثل: با با، ما ما، دا دا ...

3- مرحلة المقاطع التي أصبح فيها الإنسان ينطق أصواتا محددة المعالم؛ في صورة مقاطع قصيرة محاكية أصوات الحيوانات والأشياء في الطبيعة، وتشبه هذه المرحلة حالة الطفل في بداية السنة الثانية عندما يبدأ بتسمية الأشياء بحسب أصواتها؛ مثل تسمية الكلب "هوهو"، والقطة "نَوْ نوْ"، والساعة "تك تك".

4- مرحلة تكوين كلمات من مقاطع، وهذه تمثل الجذور اللغوية الأولى التي استعملها الإنسان الأول لقضاء حاجاته، وقد بلغ هذه المرحلة اللغوية بعد أن اكتملت قدراته العقلية ونضجت أعضاؤه الصوتية، واشتدت حاجته إلى التفاهم مع غيره، ويناظر هذه المرحلة من أطوار نمو الطفل تلك التي يبدأ فيها التفاهم مع من حوله، ويصبح لديه قدر من المفردات التي تساعده في الإشارة إلى الأشياء في محيطه وبيئته[1].

هـ -كيف تكتسب الألفاظ معانيها؟

الكلمة الأولى هي لفظ له دلالة؛ أي: له معنى، سواء كان ذلك المعنى موجودًا في المجال الحسي للمتكلم، أو غير موجود، وسواء كان محسوسًا أو مجردًا، ومعنى ذلك أنَّ معاني الكلمات لا تكتسب إلاَّ بعد أن يكون الطفل قد استطاع أن

1 ـ رمضان عبد التواب، دراسات في فقه اللغة.

يكوِّن صورًا ذهنيَّة ثابتة للأشياء والأحداث التي تشير إليها هذه الكلمات، وإلاَّ لما استطاع أن يعبر عن الشَّيء في غيابه.

فالطفل الذي ينطق بلفظ (بابا)، وأبوه غير موجود، لا بدَّ من أن تكون لديه صورة ذهنية للأب، وبعبارة أخرى لا بدَّ من أن يكون قد تكون لديه (مفهوم دوام الشَّيء)، وباختصار فإنَّ الطفل لا يكتسب معاني الكلمات إلاَّ إذا تكونت لديه المفهومات التي ترتبط بها هذه الكلمات أولاً، بمعنى إذا استطاع أن يدرك أنَّ الشيء الذي يراه مرة بعد مرَّة إنَّما هو (مفهوم دوام الشيء)؛ أي تبقى صورته الذهنيَّة بعد زواله في ذهن الطفل، وتصبح الكلمات في النهاية عبارة عن رموز تشير إلى مفاهيم وعلاقات بين المفاهيم...

و-تطور دلالات الألفاظ «مراحل اكتساب معاني الألفاظ»:

يمُر اكتساب الطفل لمعاني الكلمات - الألفاظ بالمراحل الآتية:

-أولاً: يرتبط معنى الكلمات الأولى عند الطفل بشيء أو حدث معين واحد، ولا يعمم هذا المعنى على أشياء، أو أحداث من الفئة نفسها؛ فكلمة «كلب» مثلاً ترتبط بكلب واحد فقط، وكلمة «حذاء» ترتبط بحذاء معين، ويرجع ذلك بالطَّبع إلى قلَّة خبرة الطفل المعرفيَّة؛ من حيث ملاحظة أوجه الشبه بين أفراد النَّوع الواحد من الأحداث والأشياء، فيكون بالنسبة إلى الطفل كل من الكلب والحذاء... فئة مؤلفة من فرد واحد، وليس فردًا من مجموعة أفراد متماثلة.

-ثانيًا: يبدأ الطفل بعد ذلك بملاحظة أوجه الشَّبه التي تجمع بين الأشياء، فمثلاً يلاحظ ما يجمع بين الكلاب من أوجه الشبه، فيصبح لديه مفهوم عام عنِ «الكلب»، إلاَّ أنَّه في استخدامه لكلمة «كلب»، يلجأ إلى «التعميم» على كل ما يمشي على أربعة أرجل، فتدل كلمة «كلب» لديه على صنف الكلاب وعلى غيرها من الحيوانات، وبذلك فإنَّه يلجأ إلى تعميم زائدٍ... بعكس المرحلة السَّابقة؛ حيث كان

تعميمه ناقصًا، ومن أمثلة التَّعميم الزَّائد إطلاق الطفل كلمة «بابا» على كل الرجال، وكلمة «ماما» على كل النساء، والسَّبب في هذا التَّعميم الزَّائد هو عدم قدرة الطفل على التَّعبير؛ بسبب قلَّة المفردات اللغويَّة لديه.

-ثالثًا: وفي هذه المرحلة يصل الطفل إلى التَّعميم الصحيح، فيبدأ في تقليص تعميمه الزَّائد إلى أن يقترب من تعميم الكبار أو يتطابق معه، فقد يكتسب بعد كلمة كلب كلمتي: حصان، وبقرة، ويظل يطلق كلمة «كلب» على القطة والخروف، ثم يكتسب كلمة «قط»، فيقصر استعمال كلمة «كلب» على الكلب والخروف، ثم يتعلم كلمة «خروف» فيصبح مدلول كلمة «كلب» عنده كمدلولها عند الكبار، فيطلق لفظ الكلب على مدلوله فقط، وبهذا يكون قد وصل إلى التَّعميم الصَّحيح.

- الفروق الفرديَّة في النمو اللغوي:

إنَّ المراحل التي يمر بها الطفل في تعلم اللغة واحدة بالنسبة إلى كل الأطفال في العالم؛ فالسن التي يبدأ بها الطفل في نطق الحروف، وكذلك السن التي يكتسب فيها الكلمة الأولى، لا تتغيَّر كثيرًا من ثقافة إلى أخرى على وجه العموم، إلاَّ أنَّ أطفال السن الواحدة لا يتساوون في مقدار النمو اللغوي، ويرجع ذلك إلى العوامل الآتية:

1 - العلاقات الأسرية: تشير الدراسات إلى أنَّ الطفل الوحيد أو الأوَّل في الأسرة، يتمتَّع بمستوى لغوي أعلى منَ الطفل الذي يعيش مع عدد من الإخوة، والسبب في ذلك أنَّ اهتمام الأم والأب قد يؤدي إلى تنبيه الطفل إلى استخدام الألفاظ، وربطها مع ما يناسبها من معانٍ...

كما أنَّ نمط العلاقات السَّائد في الأسرة، يؤدي دورًا كبيرًا في تحديد المستوى اللغوي للأطفال، فإذا كان يغلب على العلاقات الأسريَّة الانسجام والود، فإنَّ الفرد فيها يستطيع أن يعبر عن أفكاره متى يشاء، فتنمو مداركه العقليَّة واللغويَّة نموًّا

سويًّا... أما في حال كانت العلاقات مبنيَّة على التَّسلط والتَّحكم، فإنَّ الطفل يحاول أن يتجنَّب المواقف، ويبتعد من التَّعبير عن آرائه خوفًا من اللَّوم والتَّأنيب.

2 - سلامة الأعضاء المتعلقة بالنمو اللغوي: وهي: الحنجرة، واللسان، والشفتان، وأعضاء السمع، والبصر، والمراكز المخية المسؤولة عن اللغة.

3 - الصحَّة العامَّة للطفل: إنَّ الصحَّة الجيدة؛ ولا سيما في السنوات الأولى من حياة الطفل، مصحوبة بحب الاستطلاع السَّليم، تدفع الطفل إلى تطوير الاهتمام بما يحيط به من ناس وأشياء، والرَّغبة في التَّعبير عن ردود فعله نحوهم، أمَّا المرض، فيؤدي إلى قلَّة نشاط الطفل وحيويَّته، والتَّفاعل مع الآخرين، وهذا يعطل نموه اللغوي، ويؤثر التَّعطيل في مرحلة من المراحل الأولى، في المراحل المبنيَّة عليها...

4 - الذكاء: تحدد القدرة العقليَّة للطفل درجة إتقانه للغة، فالأكثر ذكاءً يستعملون اللغة في وقت مبكر، وبمهارة أعلى، وهم أعلى في مستواهم اللغوي منَ الآخرين؛ سواء كان ذلك في عدد المفردات، أو في صحة بناء الجمل وطولها ودقة معانيها، أمَّا قليلو الذكاء؛ فهم أضعف من غيرهم في قدرتهم اللغويَّة.

5 - جنس الطفل: تؤكد الدراسات تفوُّق البنات على الأولاد في النمو اللغوي إذا تساوت الظروف الأخرى (الذكاء، والحالة الصحية...)، ويظهر هذا التَّفوق في وفرة المحصول اللغوي من المفردات، وفي تعلم القراءة، وصحَّة النطق، وتركيب الجملة...

6 - المستوى الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للأسرة: يساعِد ارتفاع المستوى الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للأسرة في تدعيم النمو اللغوي عند الطفل؛ من خلال تعريضه لمجال أوسع من الاتصالات... وللمثيرات المناسبة؛ كالرحلات والموسيقا والكتب (ولا سيما المتعلقة بأدب الأطفال) وما شابه ذلك، ويدرك الآباء المثقَّفون ضرورة تدريب الطفل على اتقان اللغة منذ البداية، ويدركون كذلك

أهميتها في تعزيز نموه الفكري، وتحقيق كل متطلباته...

7 - الخلط بين العامية والفصحى: يؤدي الخلط بين العاميَّة والفصحى عند الكلام مع الطفل إلى ارتباكه في انتقاء اللفظ المناسب؛ لأنَّ اللغة تحدث من طريق الاقتران بين الشَّيء ولفظ اسمه.

8 - وسائل الإعلام: إنَّ لوسائل الإعلام دورًا كبيرًا في إكساب الطفل المفردات والتَّراكيب اللغويَّة؛ من خلال البرامج الموجهة إلى الأطفال.

9 - الحكايات والقصص: إنَّ سماع الأطفال الحكايات والقصص يزيد من ثروتهم اللغويَّة.

ومن العوامل المؤثرة في الحصيلة اللغوية أيضا: عامل التشجيع، والتدريب، والاختلاط بالآخرين... وعامل الالتحاق بالحضانة والروضة؛ حيث تنمو خبرات الطفل، وعامل تطور النمو الحركي؛ ولا سيما أن النمو في اللغة يوازي نمو النمط الحركي، فضلا عن عامل الحالة الانفعالية؛ إذ يلاحظ أن نضج الطفل الانفعالي وثبات انفعاليته نسبيا يسهل عملية تعلم الكلام...[1]

ز-الفروق بين الجنسين في النمو اللغوي:

يؤكد «لويس» أنه توجد فروق فردية بين الجنسين، لصالح البنات، وأنهن أقدر من الأولاد على اكتساب اللغة وإتقانها في المراحل الأولى؛ ولكن هذا التَّفوق سرعان ما يتلاشى بعد السنين الست الأولى، ليكون التَّعادل والتَّماثل بين الأسوياء من الجنسين في ما بعد السادسة، ويرجع تفوق البنات على البنين إلى عوامل بيولوجيَّة وأخرى اجتماعية.

أما بالنسبة إلى العوامل البيولوجية، فيرى علماء النفس البيولوجيون أنَّ المخ عند البنت ينضج في وقت مبكر عنه عند البنين، خصوصا في ما يتعلق بتمركز

1 ـ مريم سليم. علم نفس النمو. ص3.1

وظيفة الكلام في الجانب المسيطر على هذه الوظيفة؛ لأنَّ النضج اللحائي في هذه الحالة يساعد على الإسراع في إخراج الأصوات، وكذلك على معدل اكتساب اللغة.

أمَّا بالنسبة إلى العامل الاجتماعي، فإنَّ الأمهات يتحدَّثن مع بناتهن في سن الثانية أكثر مما يتحدثن مع أبنائهن، من طريق الأسئلة التي توجه من الأمهات إلى البنات، أو من طريق الإجابة على أسئلتهن، وتكرار الألفاظ التي ينطقن بها... وغير ذلك من أشكال التفاعل اللغوي بين الأم وأطفالها، علاوةً على أن الأولاد، يسمح لهم بالنشاط الحركي في اللعب، بينما يقتصر نشاط البنت في ألعابها وعلاقتها على الأنشطة التي تعتمد على اللغة.

ح-نظريات في تفسير اكتساب اللغة

اهتم عدد كبير من الباحثين في تفسير اكتساب اللغة وتكوينها لدى الأطفال، فتوصلوا إلى ثلاث نظريَّات تفسر هذه العملية، ولكل منهم انتقادات...:

1 - نظرية التعلم كما وضعها سكنر (Skinner)

2 - النظرية اللغويَّة كما وضعها تشومسكي (Chomsky).

3 - نظرية المعرفة التي ترتبط بأعمال بياجيه (Piaget).

إنَّ أيًّا من النَّظريات الثلاث السَّابقة لم تنجح في إيجاد تفسير كامل ومقنع لعمليَّة اكتساب اللغة؛ ولذا يجب الاستفادة من الجانب الإيجابي في كل منها؛ لنحصل على تفسير يتَّفق مع الوقائع التَّجريبية والملاحظات الواقعيَّة لما يؤديه الطفل فعلاً، وذلك بالنسبة لنموه اللغوي في مراحله المختلفة، وسنُحاول في ما يأتي إعطاء فكرةٍ موجزة عن كل من هذه النظريات:

1 - نظرية التعلم:

تعد نظرية التعلم كما وضعها «سكنر»، السلوك مَثَله مَثَل أي سلوك آخر، هو نتاج لعملية تدعيم إجرائي، فالآباء والمحيطون بالطفل بشكل عام، يدعمون ما يصدر عن الطفل من مقاطع، أو ألفاظ لغوية دون غيرها، فيظهرون سرورهم للأصوات التي تعجبهم؛ كأن يبتسموا للطفل، ولا يحتضنوه، أو يقبلوه، أو يصدروا أصواتًا تدل على الرضا والسرور...

وفي المقابل؛ فإنهم يهملون تمامًا بعض الأصوات التي تصدر عن الطفل؛ ويستجيب الطفل لذلك بأن يكرر ما أعجب الأهل، وحصل من خلاله على الإثابة، ومع الأيام والتكرار يربط الطفل ما جرى إتقان لفظه بمدلوله، وبذلك تكتسب اللغة رويدًا رويدًا على هذا الأساس، أما الأصوات التي أهملها الأهل ولم يدعموها فإنها تختفي، ولا يتشجع الطفل على تكرارها.

إنَّ الأساس الذي تنهض عليه هذه النظرية هو التَّقليد والمحاكاة من الطفل لألفاظ الكبار، ثم التَّدعيم الإيجابي من الكبار، فضلا عن التَّدعيم من الكبار لما يصدر عن الأطفال من مقاطع أو ألفاظ لغويَّة في بداية نطقهم للحروف، وتكوين مقاطع منها (اللعب الكلامي)، والمثال الآتي يساعد في توضيح هذه النظريَّة:

عندما ينطق الطفل بمقطع من حرفين أو أكثر مثل: (ما)، أو (با)، أو (ماما)، أو (بابا)، يقدم الآباء التَّدعيم الإيجابي، وبتقدم الطفل في السن، يستطيع أي طفل أن يدرك الكلمات أو الجمل التي ينطق بها الكبار، ويحاول الطفل أن يقلد هذه الكلمات والجمل، وتستمر عمليَّة التَّدعيم، وتتمثل عملية التَّدعيم عادة في استجابة الفهم من ناحية الكبار عند استعمال الطفل استعمالاً صحيحًا؛ أي أن فهم الكبار لألفاظ الصغار، تعد تدعيمًا لهم، وبهذه الطَّريقة لا يكتسب الطفل المفردات فحسب؛ بل إنه يكون مفهومًا عن التَّركيبات اللغويَّة الصَّحيحة من

ناحية قواعد التَّركيب اللغوي[1].

- نقد نظرية التعلم:

من الانتقادات التي وجهت لهذه النَّظريَّة:

1 - ما وجهه تشومسكي (Chomsky) من انتقاد، يتلخص في اعتماد نظريَّة التعلم على أن اكتساب اللغة يعتمد على ملاحظة الصغار لكلام الكبار وتقليدهم له، والنَّقد الموجه لذلك هو أنَّنا لا نستطيع أن نعلل العدد الكبير من الجمل الجديدة التي يأتي بها الأطفال، مما لا شبيه له في ما يقوله الكبار؛ أي أن الصغار يلفظون جملاً لم يسمعوها من الكبار[2].

2 - وجه كلارك وكلارك (Clark and Clark) نقدهما لأثر التدعيم الذي تتبناه هذه النظرية، إذ إن الآباء قلما يوجهون اهتمامًا لما يقع فيه أطفالهم من أخطاء في قواعد التركيبات اللغويَّة، ومعنى ذلك أنَّ الآباء لا يقدمون لأطفالهم الحد الأدنى من التَّدعيم الذي تفترض نظريَّة التَّدعيم ضرورة وجوده في أي عملية تعلم.

---

1 ـ للمزيد عن النظريات السلوكية: رافع النصير الزغول وعماد عبد الرحيم الزغول، علم النفس المعرفي، دار الشروق، 2..3،ص247

2 ـ يذكر أنه في الستينات من القرن الماضي، ظهرت نظرية لتشومسكي.. ملخصا أن لدى الطفل جهازا لاكتساب اللغة، وجرى تصور هذا الجهاز كصندوق موجود افتراضيا في مكان ما من الجهاز العصبي المركزي، تصله من طريق الأذن المدخلات اللغوية، لتستنبط منها قواعد وقوانين اللغة بتعبير آخر، وعلى حد تعبير تشومسكي: إن اكتساب اللغة يقوم على اكتشاف الطفل لما يمكن أن ندعوه من وجهة نظر صورية، أصول قواعد لغته أو مجموعة القواعد التي تحكمها...

-للمزيد، ينظر: مريم سليم. علم نفس النمو. ص297

2 - النظرية اللغوية (Chomsky):

يرى تشومسكي (Chomsky) أنَّ كل طفل يمتلك قدرة لغويَّة فطريَّة تمكنه من اكتساب اللغة، لذلك فسَّر اكتساب اللغة على أساس وجود نماذج أوليَّة للصياغة اللغويَّة لدى الأطفال، أي أن الأطفال في رأيه، يولدون ولديهم نماذج للتَّركيب اللغوي تمكنهم من تحديد قواعد التركيب اللغوي في أي لغة من اللغات، حيث إن هناك عموميَّات في التَّراكيب اللغويَّة تشترك فيها جميع اللغات؛ كتركيب الجمل من الأسماء، والأفعال، والصفات، والحروف.

ويرى تشومسكي أنَّ هذه العموميَّات هي التي تتشكَّل منها النماذج الأولية المشار إليها، وهي أوليَّة بمعنى أنَّ الطفل لا يتعلمها، بل تمثل لديه قدرة أوليَّة فطريَّة على تحليل الجمل التي يسمعها ثم تكوين جمل لم يسمعها مطلقًا من قبل، وقد يفعل الطفل ذلك بشكل صحيح تمامًا من البداية، وإما بشكل يكون على الأقل مفهومًا ومقبولاً من ناحية الآخرين.

وغني عن البيان؛ أن هذه التظرية ووجهت بانتقادات جمة...

3 - النظرية المعرفية (Piaget)

هذه النَّظرية تقوم على أساس التَّفريق بين الأداء والكفاءة، ويعارض فيها بياجيه فكرة تشومسكي في وجود نماذج موروثة تساعد على تعلم اللغة، كما أنها في الوقت نفسه، لا تتَّفق مع نظرية التعلم في أن اللغة تكتسب عن طريق التقليد والتدعيم لكلمات وجمل معينة، ينطق بها الطفل في مواقف معينة.

إنَّ اكتساب اللغة في رأي بياجيه، ليس عمليَّة إشراكية (تدعيم)، بقدر ما هو وظيفة إبداعية (كفاءة في الأداء لتحقيق وظيفة)، فهو يفرق بين الأداء والكفاءة، فيرى أن الطفل يكتسب التَّسمية المبكرة لأشياء من طريق المحاكاة، ويقوم بعمليَّة الأداء في صورة تراكيب لغويَّة، إلاَّ أنَّ الكفاءة لا تكتسب إلاَّ بناءً على تنظيمات

داخليَّة تبدأ أولية ثم يعاد تنظيمها بناء على تفاعل الطفل مع البيئة الخارجية، ويقصد بياجيه بالتنظيمات الأولية وجود استعداد لدى الطفل للتعامل مع الرموز اللغوية التي تعبر عن مفاهيم تنشأ من خلال تفاعل الطفل مع البيئة منذ المرحلة الأولى؛ وهي المرحلة الحسيَّة الحركيَّة.

ميول الطفل القرائية

تظهر ميول الطفل القرائية، وهي متأثرة عادة بخبرات البيئة والحياة التي يعيشها في المنزل والمدرسة والمجتمع وبين الأصدقاء، وتنمو هذه الميول وتتغير تبعا لنمو الطفل، ومن خلال سني مراحل عمره...[1]

كما أن للصورة أهميّة كبرى في تنمية خياله، وتوسيع فكره، ونموّ أحاسيسه الجماليّة. وعندما يتعلّم الطفل القراءة، فإنّه ينتقل إلى مرحلة تالية، هي معرفة اكتساب المعارف الجمالية بمفرده، أو بالاستعانة بغيره من أترابه، أو من الراشدين. في هذه المرحلة تأخذ الكتب والصحف، ورسوم الكتب، وصور المجلاّت، في تكوين الطفل الثقافي والجمالي والحضاري. ويجب أن يشغل الكتاب أو الصحيفة... مكاناً بارزاً في انطباعات الأطفال، بما تحمله هذه الوسائط من أخبار ومعارف...وفي مراحل أخرى متقدّمة، يمكن أن يكون للمطبوعات المصوّرة دور مهم في حياة الأطفال.. وعلينا أن ندفعهم إلى الاهتمام بها، واقتناء ما يناسبهم منها، وتصنيفها. فمحتوياتها من الصور والرسوم والأفكار، تسهم في رفع الحساسية الجمالية والمعرفيّة لديهم بشكل تدريجي غير مباشر، لكنّه فعّال.

-الطفل من سن (2 - 4):

في هذه السن، يكون الطفل عادة بحاجة إلى الأمان قبل كل شيء؛ ولذا، ينبغي إعطاؤه هذا الأمان؛ كي يشعر بالطمأنينة...كما أنه يملك مقدرة لغوية تمكنه من

1 ـ هيفاء شرايحة، أدب الأطفال ومكتباتهم، ص71

بناء جملة مفيدة؛ ويحب التكلم، وأحيانا يتكلم عن نفسه، كما يبدأ الاستماع إلى الكبار حتى يتعلم منهم، ويحب سماع القصص بكثرة؛ وفي أثناء سرد القصة، يجب أن نجعله قدر الإمكان، جالسا إلى جانب الراوي، قريبا منه. وتكون كتبه جميعا مصورة، مليئة بالحركة والحياة ليجد الطفل المتعة بمجرد النظر إليها، كما يجب أن نقرأ له القصة، ويستمتع بسماعها، ليجلس بعد ذلك وحده ليقرأها، من طريق تفسيره الصور... ولذا، هناك أهمية كبرى لوجود الصور والرسومات لتكون معبرة توحي بالطفولة، وأن تكون الكلمات كبيرة الحجم، وقليلة، ومناسبة في الوقت نفسه، ويجب أن تكون الصورة مطابقة للنص إن وجد، كما علينا الالتزام بتصرفات الحيوانات؛ كأن نقول مثلا: إن الأكل المفضل للأرنب هو الجزر والخس...

وفي سن الرابعة بالذات، يلاحظ أن النمو العقلي يبدأ بزيادة ملحوظة وبشكل سريع، بينما يبطئ النمو الجسمي بعض الشيء، ويصبح عند الطفل الفضول وحب المعرفة لكل ما يعرض له من ميول،... بأسئلته الكثيرة والمستمرة، وهنا يبدأ الطفل بالتعرف إلى محيطه وبيئته في المنزل والشارع؛... من أشياء وطيور ونباتات وحيوانات، ولذا، يجب أن تكون القصة والرسومات من بيئته؛ لأنه لا يفهم أشياء غريبة عنه، بل يستطيع أن يعرف ما يشاهده في حياته اليومية، حتى الأسماء يجب أن تكون مألوفة لديه؛ فصورة رجل تعني بالنسبة إليه الأب، وامرأة تمثل له الأم أو الجدة أو الخالة أو العمة، وكذلك، يجب أن يصور له الشرطي بلباسه حتى يتعرف إليه، وجميع الأشياء ضمن ما يعرفه ويشاهده، على أن تعرض الصور صورة صورة للطفل؛ لأنها تعمل عمل الكلمة هنا، وليست للزخرفة، وهي التي تنقل إليه الانفعال والأفكار...

وفي هذه السن، يكون خياله، ويمكنه تخيل أشياء غير موجودة، فهو يتقبل القصص التي تدور حول الحيوانات وهي تتكلم، ويحب الحيوانات، ويفرح لسماع

أصواتها، ويبدأ في تقليدها، كما يحب القصص التي تدور حول خبراته هو نفسه، ولا سيما تلك التي تحكي عن نفسه؛ لأنه في هذه السن، مولع بنفسه (الأنا)، على أن تكون القصة قصيرة، وحوادثها تمر بسرعة. لا مانع من أن تكون القصة حول أطفال يبكون أو يخافون، حتى يعرف الطفل أن جميع الأطفال هكذا يشعرون بالخوف، ويبكون أيضا؛ على أن تكون القصة في الوقت نفسه، بعيدة من الفزع والرعب؛ إذ يجب أن لا تروى للطفل القصص التي أفزعتنا يوما؛ كقصص الغول...

كما أن الطفل في هذه السن، يحب تكرار كل شيء... بأسئلته،... بسماع القصة نفسها عدة مرات... ويكون كثير الحركة والغلبة، ويحب اللعب كثيرا؛ إذ يحب في سن الثالثة الألعاب الفردية، ثم يأخذ باللعب مع الآخرين في السنة الرابعة، ويحتاج إلى اللعب كحاجته الى الغذاء، وعلينا أن نوفر له فرصة للعب ونشجعه؛ لأنه في اللعب ينفس عن الحركة الكامنة لديه، وتلك الطاقة؛ لذلك يسمى هذا الطور بطور اللعب، ويرغب سماع القصص التي تدور حول الطفل الشقي ويضحك للنكتة من أعماق قلبه، ويضحك للصورة المبالغ بها كالأنف الطويل أو العين الكبيرة أو الأرنب بلباس البدلة... ويحب الغناء والأناشيد ويطرب لها، وهو يحفظ بسرعة، ويتباهى بحفظها؛ لذلك نراه دائما يردد ما يعرف...[1]

-الطفل من سن (5 - 7)

هنا يسرع النمو، ويبطئ النمو العقلي، ويتوق الطفل إلى المعرفة وحب الاستطلاع، ويكون عنده الاستعداد للتعلم.

وتصبح قدراته الجسمية ظاهرة وثابتة، وقدراته اللغوية متكاملة، وبالتالي، يصبح قادرا على التحدث ورواية القصص، وتغدو أسئلته عميقة لمعرفة الحقيقة؛

1 ـ هيفاء شرايحة، أدب الأطفال ومكتباتهم. ص72

ومن قدراته الجديدة فهمه معنى الزمن كاليوم والغد وبعد غد. كما يستطيع أن يربط بين أفكار عديدة، ويمثلها؛ كأن يمثل الأستاذ في المدرسة والتلامذة، والمريض والطبيب وهكذا؛ فهو يحب التمثيل ويندمج في الدور تماما...

كما تصبح عنده الرغبة في التعرف إلى الحيوانات البعيدة منه، ويحب أن يسمع عنها؛ كالأسد والنمر والفيل؛ ويبدأ بمطالبة الأهل باحترامه واحترام ألعابه وأعماله؛ إذ أصبح مخلوقا محترما له شخصيته؛ فهو في أثناء لعبه يشعر بقرارة نفسه أنه منهمك بعمل جاد؛ فعندما تناديه أمه مثلا؛ يقول: «مشغول، وسآتي حين أنتهي منه»، وبمجرد ذهابه الى المدرسة، يأتي ليقول: «علي دروس»...وفي كل ذلك، يريدنا أن نعامله كفرد مميز في البيت والمدرسة والمجتمع، ولا يزال من الناحية العاطفية بحاجة الى التقرب منه والاهتمام به، ولا يزال أيضا يرغب في القصص المصورة، كما يحب قصص الحيوانات... فعلاقة الطفل بالحيوان حقيقة يؤيدها السيكولوجيون في عدة حالات نفسية كثيرة، ولا سيما في أحلامهم؛ فالحيوانات تعد بمنزلة أصدقاء للأطفال...

ونراه يندمج في شخصية القصة بكل مشاعره وأحاسيسه، ببساطة ملحوظة، ويفرح لنجاح الطفل الذي يتغلب على الصعوبات...

-الطفل من سن (7 - 9)

في هذه المرحلة، يبدأ الطفل بالاستقلال عن الكبار، ويطالب به، ويكون قد تعلم القراءة؛ ولذا، نراه يحب قراءة القصص التي يعرفها من السابق، ويتلذذ بقراءتها مرات ومرات. كما يكون الطفل في هذه المرحلة خياليا؛ ولذا، تسمى هذه المرحلة بطور الخيال؛ فهو يحب القصص الخرافية، والأشخاص الغريبة، كالجنيات والعمالقة والأقزام والحصان الطائر والبساط السحري، ويسأل عن مدى صحتها...

كما يحب الطفل قراءة القصص الفكاهية، ويرغب في انتقاء الكتب بنفسه؛ فعلينا أن نعطيه الفرصة لذلك، مع التوجيه، وهو في هذه المرحلة، يصبح يعرف قيمة الكتاب، ويتقبله كهدية ثمينة، وتصبح عنده سيطرة على القراءة...

كما يحب اللعب مع الجماعة، وتكوين الأصدقاء، ويتباهى بهم، ويرغب في تعريفهم إلى الوالدين؛ فما على الكبار الا احترام الصغار وإشعارهم بالاهتمام؛ لأن الأطفال يحتاجون إلى سند في علاقاتهم بالكبار، لتحقيق الاطمئنان والأمن والدفء العاطفي... وفي سن الثامنة والتاسعة، يرغب الأطفال الذكور بقراءة القصص التي تدور حول الألعاب الرياضية والمغامرات والبطولات وقصص الكشافة، وقصص الأولاد، ويحبون قصص الأساطير والخيال، على أن تقرأ بصوت عال، ولكنه يستطيع التمييز بين القصص، ويتبين ما هو خيالي وما هو غير ذلك...

-الطفل من سن (9 - 12)

في هذه السن، تسبق الفتيات الذكور من ناحية النمو الجسمي، وعادة يكون نموهن سريعا، وتبدأ الخلافات القرائية بين الأولاد والبنات واضحة؛ أي أن ما يفضله الأولاد يختلف عما ترغب بقراءته البنات...ويرغب الطفل بقراءة القصص الواقعية، ويستطيع أن يقرأ قصة متكاملة من حيث البداية والنهاية يتراوح عدد صفحاتها بين 40 و50 صفحة...

ونرى الأطفال، ولا سيما الذكور، يتخلون عن القصص الخيالية، ويهتمون في هذه المرحلة بقصص الرحلات والمغامرات والتاريخ القصصي والأدبي، وتراجم الحياة، والقصص الفكاهية والأحاجي والألغاز، كما يميلون إلى القصص الوجدانية والقصص التي تتحقق فيها الرغبات والوصول إلى مرتبة القيادة، كما يهتمون بعادات البلاد الأخرى وتقاليدها، وتجذب الاختراعات وعلم الميكانيكا

اهتمامهم... وتكون هذه السن من أخطر السنوات وأدقها، وهم بحاجة إلى إرشاد بالنسبة الى قراءاتهم، ويسعدهم دائما احترام شخصياتهم وتقدير أعمالهم...وتهتم الفتيات بقصص الفتيات والقصص العائلية، ويرغبن مثل الأولاد بقصص المغامرات، ولكنهن لا يملن إلى الآلات والبحث العلمي، بل يبدأن في سن الثانية عشرة بقراءة القصص والكتب التي تدور حول المدرسة والممرضة وقصص الحب والدين وغير ذلك مما تهتم به الفتيات عادة...ويكون عندهن حب الاستطلاع لحياة الكبار، فيبدأن بقراءة أدب الكبار أحيانا، ولو أنهن لا يفهمن ما يقرأن، ولكن يرغبن بالتمثل بالأب أو الأم أو الأخ الكبير، وفي هذه السن، تكون الفتاة قد دخلت مرحلة المراهقة، ولذا، يجب الانتباه في اختيار موضوعات الكتب التي لا تهور فيها ولا طيش، ولا تتنافى مع القيم الاجتماعي... وتبرز في هذه المرحلة ميول وهوايات عند البنين والبنات؛ منها: حب الجمع والتملك؛ كهواية تجميع الطوابع والنقود؛ وهم لذلك، يستمتعون بقراءة الموضوعات التي توضح لهم خطوات صنع الأشياء؛ وهذه الهواية تحتاج الى رعاية وتوجيه سليمين، لئلا يتعلموا الطرق غير السوية في ذلك... وهنا يبدأ الأطفال في اتخاذ قدوة لهم ومثلا أعلى...وحبذا لو وجدوه قريبا منهم لمساعدتهم، كما يقرأون كثيرا، لأنهم يتفتحون على الحياة ومشكلاتها؛ ولذا، يقرأون موضوعات في غاية الأهمية يثبتون بها ذاتهم، كما نجد كثيرا من الأطفال تستهويهم الطبيعة، يدققون ويتأملون كل المظاهر المحيطة بهم، ويسألون ويناقشون ليقفوا على بعض الحقائق التي حيرتهم وشغلت أذهانهم...

-الطفل في سن (12 - 14)

تزداد الاهتمامات السابقة، ويبدأ الطفل في إيجاد متعة في العلوم والاختراعات والتاريخ، وهو يستعمل تفكيره، إذ يصبح بإمكانه التعلم والاختيار والعمل، وهو

يحب أن يعرف كثيرا عن قصص البنات وحياتهن... أما البنات، فيواصلن قراءة أدب الكبار العاطفي، ويرغبن في قراءة الشعر والدراما...

-الطفل من سن (14 - 16)

يحبذ القصص الغرامية والبطولية والتضحية، ولكن تقل عنده عادة القراءة؛ نظرا الى اهتمامه بالدراسة... ونراه يقرأ قراءات خفيفة، ويتجه إلى قراءة المجلات...

الفصل الثاني

ماهية علم الأصوات ومجالاته

من مجالات علم اللغة: علم الأصوات وعلم الدلالة، وعلم التركيب... ويعد علم الأصوات المجال الأول من مجالات علم اللغة...(اللسانيات).

ويدور اهتمام علم الأصوات أساسا حول أصوات الكلمة المفردة التي تعد أساس هذا العلم...

ويدرس علم الأصوات البناء الصوتي للغة؛ أي أصوات الكلام ونطقها وتركيبها في الكلمة، والتلفظ بها... إنه علم في النظام الصوتي، بما فيه من قوانين لبناء المقاطع الصوتية والنبرات والنغمات والتلحين وغيرها من مسائل صوتية.

وهو علم حديث، تطور بفعل تطور العلوم الطبيعية والأجهزة الالكترونية... التي أخذت تدرس الذبذبات الصوتية وأجهزة السمع وأعضاء النطق بشكل جيد...

ويعد بحث الاصوات من الألسنية والعلوم اللغوية...وغدا علما قائما بنفسه، لدرجة فصله غالبا عن العلوم اللغوية الاخرى...

ويقسم علماء اللغة دراسة الأصوات الإنسانية إلى نوعين:

1-علم الأصوات اللغوية (فوناتيكا) Phonatics: تبين فيه عادة طريقة نطق الأصوات ومخارجها من جهاز النطق الإنساني... ويسمى علم الأصوات النطقي، ويعنى بطريقة إنتاج الصوت في الجهاز النطقي للمتكلم، محددا وظائف أعضاء النطق لدى الإنسان...

2-علم وظائف الأصوات اللغوية (فونولوجي) Phonology: وتدرس فيه طريقة تأدية الأصوات لوظيفتها في اللغة، وتتسع دائرة هذه الدراسة لتشمل دراسة الأصوات المركبة؛ فتتحدث عن المقطع والنبرة والنغم...[1]

وتتناول دراسة علم الأصوات الموجات التي تحدثها الأصوات في الهواء (مترجمة عادة الى خطوط بوساطة أجهزة خاصة)، أو تتناول تأثير هذه الأصوات في الأذن؛ ولذا، هناك ثلاثة أنواع لعلم الأصوات:

1-علم الاصوات التشريحي...

2-علم الأصوات الهوائي (دراسة الموجات الصوتية اللغوية)...

3-علم الأصوات السمعي: ويتعلق بتأثير الصوت في الأذن، وما يتصل بها من الأعضاء السمعية... [2]

ومن التصنيقات أيضا:

1-علم الأصوات الفيزيائي: يدرس السمات الفيزيائية للأصوات... وموجة كل صوت وتردده وسعة الموجة وطولها... إنها إذاً سمات فيزيائية خاصة تدرس من طريق أجهزة أو مختبرات خاصة كالحاسوب... لتحليل التردد أو الموجة... بهدف الوصول إلى التفسير الموضوعي لأنماط الكلام... إنه تفسير مبني على براهين... حيث يقدم الدليل الموضوعي؛ مثل سعة الموجة لصوت (ب)...

فالموجة هي تمثيل فيزيائي لصوت معين... .فمن خلال هذا العلم نعرف مثلا حقيقة أن صوت ب يمتلك ترددا أعلى من صوت آخر... أو أن لصوت معين سعة

---

1 ـ محمد أحمد أبو الفرج، المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 1966، ص6.

2 ـ م.ن، ص6.

موجة أعلى أو أوسع من صوت آخر... وكذلك نقارن الأصوات الشفوية مثلا بغيرها... كصوت ب...

يذكر أن هناك أجهزة خاصة موجودة في مختبرات الصوتيات... ومع تطور تقنيات الحاسوب، أدرج الأخير في قائمة الأجهزة المستخدمة في هذا السياق... بديلا من الأجهزة السابقة...

2-علم الأصوات السمعي: هو علم يدرس الأصوات اللغوية من جهة الاستقبال؛ ويتناول كيفية استقبال البشر الأصوات عبر الأذن... وكيف تفهم تلك الأصوات من طريق الدماغ...

وهكذا؛ فإن هذا العلم يدرس الجهاز السمعي لا النطقي...(كيف يسمع الإنسان كل صوت ويستقبله ويميزه...)...(تحليل الأصوات وسماتها السمعية...)

3-علم الفونولوجي يدرس كيفية إنتاج الكلمات من المقاطع بشكل نظامي (التحليل الفونولوجي)... بمعنى آخر، يتناول كيفية تركيب الأصوات مع بعضها لتكون كلمات (المقطع يتألف من صوتين على الأقل). ويهدف هذا العلم الى الوصول الى الطريقة التي يتم فيها إصدار الأصوات بشكل نظامي... (المقاطع...)

فعلم الأصوات في هذا السياق، لا يهتم فقط بالسمات السمعية أو النطقية للغة كهدف بذاته... إنما يأخذ كل النتائج التي تتوصل إليها كل أنواع علم الأصوات، ويستخدمها كوسيلة لتحديد الأصوات اللغوية، وتميزها في إطار اللغة الواحدة...أي يأخذ تلك النتائج لتحديد سمات كل لغة...

أهمية علم الاصوات

يصعب فهم القواعد والتراكيب النحوية من دون الإلمام بالجانب الصوتي للموضوع المحدد... فالدراسة الصوتية تكشف جوانب رئيسة من طبيعة علاقات الكلمات والجمل... وقد يؤدي إهمال الدراسة الصوتية أحيانا إلى قصور دلالي...[1]

وتبرز أهمية علم الأصوات من خلال علاقته بالعلوم اللغوية الأخرى، ولا سيما صحة النطق (الأرفو أيبيا Orhoepy) ؛ والمصطلح الأخير مركب من كلمتين يونانيتين: (Orthos) تعني "صحيح"، و(epos) تعني "نطق أو لفظ"...

ويرتبط هذا العلم أيضا بصحة الكتابة (Orthography أورفوغرافيا)...فضلا عن علاقته المباشرة والمهمة بالقواعد والمفردات ومعانيها؛ ولذا، يكتسب هذا العلم أهمية قصوى في أثناء تعلم اللغات... ناهيك عن أهميته في الأبحاث اللغوية المتنوعة...

وفي أثناء تحليل النصوص الأدبية؛ يكتسب هذا العلم مكانة بارزة؛ خصوصا عند دراسة المستوى الصوتي... ودلالاته النفسية أو الإيقاعية... وهذا يخضع إلى خصوصية المنهج الذي يتبناه الباحث أو الطالب...

وجلي أن نطاق دراسة علم الأصوات اللغة الفصيحة التي أخذت شكلا أدبيا وأضحت قياسية... فمع أن اللفظ يتطور وتحصل له تغيرات صوتية عبر التاريخ، إلا أنه يأخذ طابعا شموليا تاريخيا، ويفرض نطقا عاما، وإلا أدخل ضمن

1 ـ محمد قدوح، علم الاصوات، دار المأمون، بيروت، ص9

اللهجات...ناهيك عن أن اللهجات تختلف كثيرا أو قليلا، فكلمة جدا تملك لفظا واحدا قياسيا، يجب أن يلتزم به كل ناطقي "الضاد"، فلا يجوز لفظ هذه الكلمة "غدا" كالمصرية، أو "دجدا" الخليجية... وكلمة قال لا يجوز لفظها "ءال" أو "ال" أو "غال" أو "كال" وهكذا[1].

...وكذلك، فإن لعلم الأصوات علاقة وطيدة بالمعنى، إذ يكفي تغيير حرف أو حركة أو مد في الكلمة... ليتغير معناها كليا؛ فلفظ كلمتي «كاتب» و«كتب» مثلا، يختلف من حيث طول الصائتين (ا) و(َ) الطويل والقصير؛ أي أن تخفيف أو تقصير حرف (صوت)، يؤدي الى تغير في المعنى والعكس...

أما وقوع هذا الصائت قرب أصوات الإطباق مثلا (ظ ص ف ر خ ب)، فيعرضه لتغير ملحوظ في المحتوى الصوتي. قابل:

سار – صار

تاب –طاب

ذاع- ظاع

ذل- ظل

كال –قال

خاف –خاب

رام- راح

وهكذا، فإن علم الأصوات يفرض نفسه في الميدان التدريسي، وعلم التجويد، وتحليل النصوص...

وإذا ما وضع في الحسبان، أن الكلمة وحدة لغوية مهمة ورئيسة في اللغة والكلام... فإنه يمكن الانطلاق منها في اتجاهين متعاكسين؛ أي في اتجاه الزيادة والنقصان؛ أو بلغة الرياضيات في اتجاه (+) و (-)...

---

1 ـ محمد قدوح، علم الأصوات، ص13 - 14

فالزياة على الكلمة تعطيها معنى آخر، وطابعا تركيبيا معينا؛ كالعبارة أو الجملة بمختلف أنواعها، أو الفقرة أو النص وهكذا...

والنقصان يعني تجزيء الكلمة إلى مقاطع، ثم إلى أصوات وفونيمات وغيرها من وحدات وعناصر صوتية صغيرة...

اتجاه صوتي فونولوجي (-)..............الكلمة (النواة)..................اتجاه نحوي تركيبي (+)

ك ت ب (-)............................كتب............ كتب المؤلف قصيدة (+)

فإذا ما اتجهنا نحو الزيادة، فنكون أمام واقع مادي تطوري يفتح مجالا واسعا في أبحاث اللغة: من قواعد نحوية وحتى أسلوبية وبلاغية وغيرها؛ أي قد نصل إلى مرحلة تتعدى الدراسة اللغوية إلى الدراسة الأدبية، أما إذا ما اتجهانا نحو النقصان، فإن مجال البحث يصغر... حيث تحلل الكلمة إلى أصوات وفونيمات، ومن ثم الى ذرات صوتية متلاشية تصل الى حد الانعدام... فنكون والحالة هذه وجها لوجه أمام علم الأصوات...

يذكر أن لعلم الأصوات أهمية في تنظيم بعض المعاجم... كمعجم العين...

استخدام الصوت وسيلة للاتصال بدلاً من الإشارة وغيرها

كان يمكن للناس أن يستعملوا غير الصوت للتعبير، كالحركات المخصوصة بأعضاء الجسم، ولكنهم وجدوا الأصوات المتقطعة أولى من غيرها، نظرا إلى أسباب جمة، منها:

1- إدخال الصوت إلى الوجود أسهل من إدخال غيره؛ لأنه يتولد في كيفية مخصوصة في إخراج النفس؛ وذلك أمر ضروري، فصرف ذلك الضروري إلى وجه ينتفع به أولى من تكلف طريق آخر قد يشق على الإنسان الإتيان به.

2- الصوت كما يدخل في الوجود بسهولة، ينقضي بمجرد استعماله، أما سائر

الأمور الأخرى فإنها قد تبقى، وربما يطلع عليها من لا يراد إطلاعه عليها.

3- الصوت قابل للإشارة إلى المعدوم، والغائب، وغير المرئي، أما الإشارة فقد تكون قاصرة عن ذلك.

4- الصوت يمكن الإشارة به إلى المعاني المتعددة المرتبطة بشيء واحد، فيمكن الإشارة إلى لون التفاحة أو طعمها، بينما قد يتعذر ذلك بالإشارة.

5- الصوت يمكن استعماله في الظلام، ومن وراء حجاب، بينما الإشارة لا يمكن استخدامها إلا مع وجود النور وإمكان الرؤية.

فالإنسان القديم كان مهدداً بأنواع من المهالك والأخطار من الحيوانات والحشرات التي كان أكثرها يدب في الليالي الحوالك، وكان يحتاج إلى وسيله اتصال تمكنه من طلب النجدة والعون... فلولا استخدام الصوت، لانقرض النوع الإنساني منذ زمن بعيد، أي أن امتلاك اللغة الصوتية، كان أحد أسباب استمراره وبقائه.

في جماليات النص الشفوي

الإنتاج الشفوي يمثل في كثير من جوانبه الانحراف عن اللغة العادية اليومية... فالكتابة تمثل الثابت، في حين أن الشفوية هي التجدد والتغير...

فللشفوية جماليات صوتية تعجز الكتابة عن نقلها، بالإضافة إلى اختلاف المرجعية الثقافية... فنحن في الواقع نعيش مع عدة مستويات لغوية، بينما تقتضي الكتابة التعامل مع لغة واحدة.

فالكتابة قد أسهمت كثيراً في القضاء على الشفوية، لما قامت بتدوين النصوص الشفوية للمجتمع البشري لحفظها وصونها من الضياع والإهمال. وكثيراً ما نشير إلى أهمية التدوين في تاريخ الفكر الإسلامي، إذ بوساطته وصل إلينا النص الديني، والكثير من التراث الإسلامي الأول، ونزعم أيضاً أن الكتابة أكثر أمانة من الذاكرة التي تعتمد عليها البشرية في سرد أحداثها ومتغيراتها.

وقد ذهبت اللسانيات مع دي سوسير إلى الاهتمام بالصوت والاعتناء به وتمجيده على حساب الكتابة، فارتبطت الحقيقة بالصوت وتم تحقير الكتابة، ولكن «غياب الرموز المدونة أو النص المكتوب يجعل من المتعذر القراءة والاحتفاظ بالمقدمات المنطقية وبتنظيمها.وبالتالي يصعب التنظيم المنطقي ويبطل الاستنتاج»[1].

ويبدو أن العقلية العربية لا تحتفل بالمكتوب كثيراً بل تولي اهتمامها بالشفوية، ففيما كانت تنتقص من قيمة العالم الذي يعتمد على المكتوب في مجالسه

1 ـ سامي أدهم، المعلوماتية السبرنطيقا الذكاء الصنعي 5. مجلة كتابات معاصرة عدد 28 آب ـ أيلول 1996 لبنان

العلمية، أو حلقات درسه وتسميه صحفياً انتقاصاً لقيمته ومصدقيته، وكانت تبجل الذاكرة وتقوي من سلطانها. وعندما عاود العرب قراءة هذا التراث الشفوي شكوا فيه وارتابوا في أمره، لأن نصوصه لم تسلم من التشويه والانحراف لتعدد الروايات للخبر الواحد، ذلك أن الرواية استمرت قرونا، ولم تقيد هذه النصوص ضمن مدونات لاستحالة هذا في ذلك العصر.

وسرد أفلاطون في مؤلفه «فيدروس» اعتراضات سقراط الأربعة على الكتابة[1].

1 - إنها تضعف الذاكرة نظراً إلى اعتماد هذه الأخيرة على دعامة خارجية... وإن كان هذا الاعتراض صحيحاً، فإنّ الكتابة قد تعين على التذكر، وربما زادت في القدرة التخزينية للذاكرة حيث تمدّها برموز وسمات جديدة كعلامات لاستحضار المعلومات.

2 - تقدم نصاً صامتاً لا غير، على الرغم من وجود كتابات ناطقة، إلا أننا في الواقع نستنطق هذه الكتابات ونسيقها ضمن أسيقة معينة، وهكذا تسلب السامع القدرة على السفر على أجنحة الخيال لتصور المعاني واستوضاح ما هو مكتوب، ويبدو أن هذا الاعتراض، وجيه فالنص الشعري على سبيل المثال، لا يمكن استيعاب كل طاقاته التعبيرية من دون أن ينشد، ولهذا كان أحمد شوقي يتفادى إنشاد الشعر، لأنه لا يجيده، لقد ظلت الكتابة الوسيلة الأكثر نجاعة، عبر التاريخ، للاتصال الثقافي، ولكن هذا لا ينفي كونها، في مجتمعات متخلفة، وسيلة ترف تعني نخبة اجتماعية، ولهذا تتمسك الفئات الاجتماعية الأخرى بالشفوية في أية ممارسة إبداعية، أو نشاط ثقافي أو مظهر من مظاهر الاحتفالية.

---

1 ـ ينظر هاينز شلافر، في العلاقة بين الشفوي والمكتوب 64 - 65 تر: إقبال أيوب مجلة فكر وفن عدد 46، 1987 ميونخ ألمانيا

وعلى الرغم من معرفتنا للكتابة، وممارستنا لها، فإننا لم نستطع التخلص من الشفوية، فهي شيء متجذر فينا، هذه الشفوية التي تتجسد في المخبر لا في المظهر، أي في التفكير طوراً، وفي السلوك طورا آخر، وذلك على الرغم من التعلم والتبحر في أصول المعرفة بحكم الوراثة الشفوية التي تظل عالقة بالشخص كالطبيعة اللازبة، والجبلة المتحكمة من وجهة، وبحكم الانتماء العام إلى المجتمع النصف الشفوي من وجهة أخرى».

الفرق بين اللغة الإنسانية ووسائل الاتصال عند الحيوان

ليس بين الحيوانات والحشرات ما يظهر استخداما مقصودا وذكيا للرموز والإشارات، كما نرى في النشاط اللغوي الإنساني.

يقول كلاينبيرغ Klineberg إن الفرق الجوهري بين لغة الإنسان ووسائل الاتصال غير البشرية، هو أن الحيوانات والحشرات لا تستطيع التعبير إلا عما هو حاضر وآني، لأنها تصدرها على أنها رد فعل لحالة انفعالية حاضرة، ولا تفيد معاني رمزية أو مجردة؛ لذا؛ فالإنسان فريد في المملكة الحيوانية لامتلاكه هذه الوسيلة التي استطاع بها أن يحرر نفسه من سجن الحاضر.

ويقول فندريس Vendryes: إن الحيوان لا يستخدم الصوت علامة لشيء آخر كما يستخدمه الإنسان، وإنما يستخدمه ردة فعل انعكاسية. وهناك فرق بين استخدام الصوت علامة وبين استخدامه ردة فعل؛ لأن الأول يمكن التعبير به عن الأشياء في حال غيابها، أما الثاني، فتعبير مرتبط بالحاضر، ويقابل حالات نفسية خاصة من فرح ورعب ورغبة.

ويبين نوعام تشومسكي Noam Chomsky اللغوي والنحوي المشهور، أن هناك منطقة خاصة باللغة في مخ الإنسان وهي جزء من التركيبة الوراثية له، وهي كما يبدو وراء القدرة على استغلال مجموعة محدودة من القواعد لتأليف ما

لنهاية له من الجمل، الشيء الذي لا نجده عند أي جنس من المخلوقات الأخرى. ويعتقد تشومسكي أن هذه الخاصية هي الأمر المهم عند المقارنة بين وسائل الاتصال عند الإنسان وتلك التي نجدها عند الحيوان.

والسؤال المطروح هنا: كيف أبدع العربي ألفاظه للتعبير عن معانيه؟

بعد أن اهتدى العربي إلى أصوات حروفه ومعانيها، بقي على فطرته البدوية يتقمص الأشياء والأحداث لاستشفاف خصائصها الذاتية. وهكذا أخذ ينتقي الحروف التي تتلاءم إيحاءاتها الصوتية مع تلك الخصائص، ولكن وفق ترتيب معين يماثل تراكيب الأشياء، كما في كلمات (باب، بير، طبل) ، أو يماثل حركات الأشياء، كما في (رفرف، زلزل، لحس، بحث)، ليتحول المدرج الصوتي بذلك، من أول الحلق داخلاً حتى آخر الفم في الشفتين خارجاً إلى حلبة رقص. وهكذا يتحول الصوت ذاته إلى راقص ينتقل برشيق (أقدامه) على مخارج الحروف، إلى الأمام أو الوراء، إلى فوق أو تحت، وإلى اليمين أو ذات اليسار، ليصور الصوت بذلك الأشياء والأحداث بحركات إيمائية تمثيلية مسموعة غير منظورة. وهكذا تتحول اللفظة العربية إلى رقصة صوتية بارعة، لا توحي بمعناها الأصيل فحسب، وإنما تجسّده أيضاً، مما لا يقدر على ذلك راقص ولا ممثل أو فنان.

وهذا ما عناه ابن جني عندما أخذ يشرح قاعدته الذهبية: (تصاقب الألفاظ، لتصاقب المعاني)؛ فالعربي بعد أن يختار الحروف التي تتوافق أصواتها مع الحدث الذي يريد التعبير عنه، يرتبها في اللفظة على أساس تقديم الحرف الذي يضاهي (أي يماثل) أول الحدث، ويضع في وسطها ما يضاهي وسطه، ويؤخر ما يضاهي نهايته. وذلك (سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد)...كما عرض ذلك في مثال (بحث) في كتابه (الخصائص ج 2ص 163-162).

واعتمد ابن جني هذه القاعدة في تعليل الفرق بين (قدّ) طولاً، و(قطّ) عرضا

بقوله: (ذلك أن الطاء أخصر للصوت وأسرع قطعاً له من الدال. فجعلوا الطاء المناجزة (أي ذات المخرج الصوتي القريب من مخرج القاف) للقطع عرضاً. أما الدال المماطلة (أي ذات المخرج الصوتي البعيد عن مخرج القاف)، فقد جعلوها لما طال من الأثر، وهو قطعه طولا). (المرجع السابق ص158).

ولكن كيف نستوحي نحن معاني الحروف من أصواتها؟

إذا كان العربي الفنان قد لجأ فعلاً إلى تقمص أشياء العالم الخارجي وأحداثه على وجه ما شرحناه للاهتداء إلى أصوات حروفه ومعانيها بوسيط من مشاعره، فإنه لا بد لنا نحن من أن نهتدي بالمقابل إلى معاني هذه الحروف بالذات في ما لو تأملنا صدى أصواتها في مشاعرنا، ولكن شريطة أن يتمتع ذلك العربي بأصالة فنية إبداعية، وأن نتمتع نحن بأصالة فنية تذوقية موازية. ومعاجم اللغة العربية هي المحكّم في هذه القضية.

وتأمّل صدى أصوات الحروف في المشاعر، إنّما هو عملية استبطان صريحة.

وإذاً، ما الاستبطان؟

الاستبطان، كما يقرر علم النفس، هو انعكاس الشعور على الشعور، إنه إحساس بالإحساس وتأمل باطني لما يجول في الذهن...[1]

وهكذا، فالاستبطان هو استخدام الشعور كملكة وعي لإدراك هذه الحالات الشعورية والأحاسيس التي تعتمل في نفوسنا.

إذاً، فإن استيحاء معاني الحروف من أصواتها، إنما يتم من طريق الاستبطان، وذلك بانعكاس شعورنا على المشاعر والأحاسيس التي تثيرها أصوات الحروف في نفوسنا. وهذا ما عناه الأرسوزي بعبارته: (صدى أصوات الحروف في وجداننا).

---

1 ـ مبادئ علم النفس للدكتور يوسف مراد ص14

فلو تأملنا صدى صوت (الجيم) في نفسنا مثلاً، أي لو استبطناه، لأوحى لنا بالضخامة كإحساس بصري، وبشيء من الطراوة والحرارة كإحساس لمسي. وهذا ينسجم مع ما يوحيه منظر الجمل وملمسه، لا بل ورائحته الدسمه أيضاً. وهكذا أطلق العربي بالفعل لفظة (الجيم الشامية)، على الجمل الهائج. ولقد بدأت بهذا الحرف أسماء كثير من الحيوانات (الجاموس، الجحش، الجدي، الجرو، الجيأل للضبع، الجؤزر لولد البقرة الوحشية....).

وهناك أصوات حروف أكثر تعقيداً وأصعب استبطاناً من حرف (الجيم) مثل الصاد- الضاد- العين-الغين-الهاء...[1]

---

1 ـ حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها- دراسة -منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998

الفوناتيكا والفونولوجيا

الفوناتيكا Phonatics يتعلق بدراسة الأصوات من وجوهها المختلفة، بوصفها مادة الكلام... ويقسم الأصوات البشرية بموجب معايير ثلاثة: مواضع النطق، وطريقة النطق واهتزاز الأوتار الصوتية أو عدمه... فضلا عن وصف الأصوات...

والفونولوجيا (Phonology) ينحو الى التجريد، فيستخلص من الدراسات المادية تلك القواعد التي بموجبها تنتظم تلك الأصوات في سلاسل ذات معنى، وبذلك تؤدي وظيفتها الرئيسة في الكلام بالنسبة إلى لغة معينة بالذات... فضلا عن أمور أخرى[1].

فمن المعروف أن كل فرد يتكلم بطريقة مختلفة مميزة عن غيره؛ وهذا راجع إلى تكوينه الفسيولوجي وعادات النطق التي نشأ عليها... وكأن كل شخص لديه لغته الخاصة... بيد أن تلك الاختلافات في النطق ليست بأساسية... فنطق الأصوات عند الشخص نفسه يختلف من سياق نفسي إلى آخر: تعب، مرض، سكر، غضب، سعادة، حالة عادية... مع ذلك يفهم كلامه...

وفي الأحوال العادية لا ننطق الصوت الواحد بالشكل نفسه في السياقات اللغوية المختلفة... وذلك بتأثير الأصوات السابقة أو اللاحقة لذلك الصوت... مثل نطق حرف الألف في الكلمات الآتية:

---

1 ـ نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد أيلول 1978، ص256 - 271

سار، فار، دار، طار...

ومع ذلك نعرف أن الصوت واحد مع وجود اختلاف النطق...

إن رفع الصوت أو خفضه عندما ننطق كلمة أو جملة بالعربية، ربما يدل على حالة نفسية معينة، ولكنه لا يغير شيئا من المعنى الرئيس لتلك الكلمة أو الجملة.. إلا أن هذه الخاصية أساسية جدا في بعض اللغات كالصينية وغيرها المسماة باللغات التنغيمية (tone languages)؛ لأن رفع الصوت أو خفضه أو رفعه ثم خفضه ثم رفعه على الكلمة نفسها، يعطي الكلمة معاني أربعة مختلفة تمام الاختلاف.

نخلص مما سبق، أن في كل لغة صفات رئيسة مشتركة بين عدد من الأصوات تجعل من كل منها صوتا مستقلا يعرفه أبناء تلك اللغة، مع الاختلافات الكبيرة في الطريقة التي ينطق بها... ومن هنا نشأت نظرية الفونيم في الدراسات اللغوية، ونشأ عنها علم الفونولوجيا الذي نحن بصدده.

فإذا أخذنا زوجا من الكلمات المتشابهة في جميع الأصوات التي تتكون منها، ما عدا صوتا واحدا يختلف في واحدة عنه في الآخر، ووجدنا أن المعنى قد اختلف، فإن هذا يعني أن كلا من الصوتين المختلفين صوت متميز أو فونيم. مثال طال وقال، فصوت الطاء وصوت القاف صوت مستقل متميز؛ أي أن كلا منهما فونيم مستقل. وكذلك مِنَ بفتح الميم أو كسرها... وهما كلمتان تحمل كل منهما معنى مختلفاً... فكل من الفتحة و الكسرة إذاً صوت مميز مستقل أو فونيم... وكذلك الحال مع: تين/ طين، قال/كال، وسار/صار...

فالفونيمات تختلف من لغة إلى أخرى، وتعتمد على الصفات المختلفة... فما يمكن أن يكون صفة مميزة لصوت من الأصوات في إحدى اللغات، لا يجب بالضرورة أن يكون صفة مميزة للصوت نفسه في لغة أخرى... ففي الصينية مثلا، يجب عد النغمات الأربع التي تغير معاني الكلمات فونيمات أو أصواتا مستقلة...

وفي الانكليزية، يختلف الصوتان BوP عن بعضهما بصفة الهمس أو الجهر... وفي العربية ليس لدينا إلا صوت واحد مستقل أو فونيم واحد هو الباء... وهنا يجب أن لا نخلط بين ما نتحدث عنه وما نلحظه من اختلاف في نطق بعض الأصوات العربية كالقاف والكاف مثلا بين لهجة وأخرى؛ لأن هذا له مجال آخر من الدراسة هو علم دراسة اللهجات Dialectology.

إذاً، الفونيم هو ذلك الصوت الأم الذي يندرج تحته عدد آخر من الأصوات التي تختلف عنه من الناحية الصوتية في بعض الصفات، ولكنها مع ذلك تظل تعد أحد فروعه...

ولعل السياقات اللغوية التي يقع فيها الصوت المميز أو الفونيم، من أهم الظروف التي تجعلنا ننطق به بشكل مميز...

ففرع الفونولوجيا يدرس تلك الظروف ويحاول إيجاد القواعد الثابتة لها...

ومن الأمثلة في اللغة العربية قواعد التفخيم التي تجعلنا نفخم صوتا حين يسبقه أحد الأصوات المفخمة في الأصل، كالضاد والطاء والصاد والظاء، وما يحصل لبعض الأصوات من الإدغام عندما يتلوها صوت يصدر عن موضع من الأجهزة الصوتية قريب من موضع النطق بها، فنقارب في ما بين موضعي النطق بين الصوتين كما في قولنا:

من م--------مم

أن لا------ألا

وشبيه به ما يحصل عندما نضيف إلى الاسم ما نسميها ال الشمسية:

ال+طبل....................الطبل (ولفظها أطبل)

ال+شمس.....................الشمس (ولفظها أشمس)

ثم إن الفونولوجيا تبحث أيضا في القواعد التي بموجبها تنتظم الأصوات المختلفة بعضها مع بعض في كلمات، وتدرس ما يمكن أن يلتصق به من الأصوات

وما لا يمكن. وما يمكن بدء كلمة به وما لا يمكن إلخ.

فمن المعروف مثلا أننا لا نبدأ بصوت صامت في العربية، من دون أن تتلوه حركة أو صوت صائت، فإذا اضطررنا الى ذلك، كما في فعل الأمر، نلجأ الى الهمزة التي يعدها اللغويون المحدثون صوتا صامتا، ونتبعها بحركة الكسرة مثلا، نحو: العب اسبح اذهب...

همزة الوصل	
•	همزة الوصل تكتب على شكل صاد مقطوعة، تلفظ في ابتداء الكلام، ولا تلفظ إذا وقعت في وسطه: التلميذ، في الحديقة.
•	الأسماء التي تبدأ بهمزة وصل هي:
أ-	المصدر، أو الاسم الذي يدل على الفعل الخماسي والسداسي: انتظار، استغفار.
ب-	الأسماء السبعة الآتية: ابن، ابنة، اثنان، اثنتان، امرؤ، امرأة، اسم[1]. (سماعية)
•	الأفعال التي تبدأ بهمزة وصل هي:
أ-	أمر الفعل الثلاثي: اكتب، ادرس، ارم...
ب-	ماضي الخماسي والسداسي وأمرهما: انتظرَ، استغفرَ، انتظِرْ، استغفِر...
يذكر أنه ليس في الحروف حرف يبدأ بهمزة وصل سوى (ال) التعريف.	

---

[1] هناك من يضيف كلمة "ايْمُن" (المختصة بالقسم)، ويلحقها بالكلمات السماعية التي تبدأ بهمزة وصل.

اللغة العربية بين النطق والكتابة

اللغة في الأساس ظاهرة منطوقة لا مكتوبة؛ والكتابة ظاهرة حضارية ظهرت متأخرة عن النطق والحديث الشفوي...والدليل على ذلك، أن الإنسان بدأ يستخدم اللغة قبل تعلم الكتابة... فضلا عن أن الأميين لا يستطيعون الكتابة، ومع ذلك، نلفاهم يستخدمون اللغة...

ولدينا مثال صارخ عن النبي الأمي محمد (ص) الذي كان أميا،... فلو كانت اللغة مكتوبة في صدر الإسلام... لما انتشر الإسلام... ولوجه المشركون الكثير من الاتهامات المجحفة بحق الرسول... ولادعوا أن الرسول اطلع على قصص الأمم الغابرة مثلا من طريق الديانات الأخرى...

والسؤال المطروح هنا: ما الفرق بين الكلام والسمع والنطق واللفظ...و...؟ وكيف نستفيد من علم الأصوات في تحديد تلك المعاني والفروق؟

-الكلام لغة[1]:

هو: (الأصوات المفيدة). وعند المتكلمين (المعنى القائم بالنفس الذي يعبر عنه بألفاظ: يقال في نفسي كلام). من أسرتها: كلمهُ كلما (جرحه) كلّمه تكليما (وجّه الحديث إليه)، ومن مقاطعها: كل -من كلّ فلان (تعب) تكلل الشيء بالشيء (استدار به وأحدق). كم -من كمّ الشيء (غطاه وستره) لم- من لمّ الشيء (جمعه

1 ـ حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها- دراسة -منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998

جمعاً شديداً) اللمّة بضم اللام (الرفقة).

ومع بعد معاني هذه المقاطع الثلاثة من معنى الكلام، فإن مقطع (كم) هو الأصلح، لخاصية الاجتماع والستر في معناه، (واللام) الملحقة هي هنا لتمثيل واقعة تلاعب اللسان بالكلام، ولو في لجلجة خفية.

في حروفها: (الكاف) للاحتكاك، تضاهي واقعة اعتمال الفكر بالمعنى الذي يجول في الخاطر، و(اللام) لتمثيل واقعة تلاعب اللسان باللفظ المعبر عن المعنى، و(الميم) للانجماع والتماسك وهي تمثل هنا مطابقة اللفظ للمعنى.

ويستخلص من معاني مقاطع هذه اللفظة وحروفها، أن الكلام يمكن أن يكون حبيساً في النفس، خلافاً لمفهومي النطق واللفظ. وإذاً، فالله تعالى يكلم أنبياءه إيحاء بالمعاني من دون أصوات مسموعة، ويكون الكلام أيضا في أحلام اليقظة وفي المنام. وهكذا فإن تعريف الكلام عند (المتكلمين) هو أكثر تطابقاً مع المعنى المستفاض من موحيات حروف هذه اللفظة، ومع المعاني المستفادة من مقاطعها.

- سمع لغة:

من سمع الصوت (أحسته أذنه)، وسمع الدعاء (أطاع واستجاب).

من أسرتها: سمّع به (شهره وفضحه). المسمع (الأذن)، السمع- (الإحساس بالصوت).

من مقاطعها: سم- من سمّ الإبرة (جعل لها سماً، أي ثقباً). الأسمّ (الأنف ضيق المنخرين) السُّم (لنفاذه في الأحشاء) سع- من سعّ لا معنى له. مع -من معّ الشحم ونحوه (ذاب).

والمقطع الجذر هو (سم). و(العين) الملحقة للوضوح والعيانية، ومن هذه المقاطع نحصل على المعنى الأصل للسمع، هو (دخول صوت في ثقب الأذن يكون واضحاً بفعل حاسة السمع).

في حروفها: السين في أول اللفظة (للانزلاق والمسير). والميم (للانجماع والانضمام). والعين (للعيانية والوضوح). ومنه يكون السمع، موجات صوتية (س) تتجمع في تجاويف الأذن (م)، تكون واضحة بفعل حاسة السمع (ع). وهذا التعريف أبلغ مما جاء في أسرة اللفظة ومقاطعها...

- بصق لغة:

من بصق (لفظ ما في فمه)، بصق الشاة (حلبها وفي بطنها ولد، لكراهة هذا الفعل، وقذارة الحليب الناتج). ولا تخرج أسرتها عن هذه المعاني.

من مقاطعها : بص- من بصّ الماء (رشح)، بصّت العين (نظرت بتحديق). بقْ من بقْت السماء (أمطرت). بقْ الخبر (أذاعه). صق- من صقّ لا معنى له.

والمقطع الجذر هو (بق)، والصاد الملحقة في الوسط للشدّة على شيء من الامتلاء.

في حروفها : (الباء) للحفر يضاهي صوتها بداية الحدث في تجميع الريق، وما في جوف الفم، وصوت (الصاد) المفخم يملأ جوف الفم بما يضاهي واقعة امتلائه بالبصاق والضغط عليه بشدّة، (والقاف) للقوة والمقاومة والانفجار الصوتي، مما يضاهي نهاية الحدث بقذف البصاق في قوة تحدث انفجاراً صوتياً شديداً؛ وذلك (سوقاً للحروف على سمت المعنى...)

ثم ما الفرق بين بصق ولفظ؟

- لفظ لغة:

من لفظ بالكلام (نطق به)، ولفظ الشيء من فيه وبه (رماه وطرحه). ولا تخرج أسرتها عن هذه المعاني.

من مقاطعها: لف- من لفّ الشيء بالشيء لفا (ضمّه إليه ووصله به). لفّت المرأة

لففا (تدانى فخذاها سمناً). لظْ- من لَظّ به لَظّا (لزمه ولم يفارقه). فظ -من فظّ فظظا وفظاظة (قسا وأساء).

المصدر الجذر هو (لف) يضاهي بداية الحدث باشتمال اللسان على المادة الملفوظة كلاماً أو شيئاً ما. والحقت به (الظاء) الملثوغة لمضاهاة نهاية الحدث عندما يخرج الملفوظ مدفوعاً بطرف اللسان برفق على شيء من الفخامة.

في حروفها: (اللام) للالتصاق والتعلق والمماطلة. تضاهي هنا تلاعب اللسان بأصوات حروف الكلمة أو بالشيء الملفوظ (والفاء) للتوسع والوهن، تضاهي واقعة انفراج الفم أو الشفتين في أثناء اللفظ بتأن، (والظاء) الملثوغة لإضفاء معاني الرقة والعذوبة والفخامة على اللفظ، وذلك دونما شدّة أو قوة أو انفجار صوت. وهذا بعض من الفوارق بين معنى بصق (لفظ ما في فمه) وبين لفظ الكلام (نطق به).

ولا بد لاحقا من التفريق ما بين مصطلح الأصوات والحرف أي الكتابة...

علم الأصوات النطقي

علم الأصوات النطقي أو علم الاصوات اللغوية Phonatics: تبين فيه عادة طريقة نطق الأصوات ومخارجها من جهاز النطق الإنساني...ويعنى بطريقة إنتاج الصوت في الجهاز النطقي للمتكلم، محددا وظائف أعضاء النطق لدى الإنسان...

- نطق لغة[1]:

من نطق نطقاً ومنطقاً (تكلم) نطق الطائر والعود (صوّت). من أسرتها: أنطقه، ناطقه، استنطقه، الناطق للكلام، نطقه (شد وسطه بالنطاق).

من مقاطعها : نط من نطّ (وثب) النطاط (المهذار الكثير الكلام). نق -من نقت الدجاجة (صوتت) طق -من طقّ طقا (صوت).

وكل من المقاطع الثلاثة يصح أن يكون جذراً لكلمة (نطق) مع أفضلية مقطع (نق)، والحقت- (الطاء) في الوسط للمطاوعة والتلطيف من حدّة النقيق بفصل (النون) الرنانة عن (القاف) الانفجارية...

في حروفها : (النون) للانبثاق والرنين. و(الطاء) للمطاوعة والفخامة والطراوة و(القاف) للانفجار الصوتي. ومحصلة هذه المعاني يكون النطق الذي هو: إخراج الكلام بشيء من الطراوة والفخامة والقوة.

---

1 ـ حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها- دراسة -منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998

عملية النطق

الأعضاء التي تشترك في إصدار الأصوات المنطوقة تسمى أعضاء النطق... وهي موجودة عند الإنسان وكثير من الحيوانات في آن معا... كالأسنان واللسان والرئتين... لكن ما يميز الإنسان أنه يتخدها للنطق، فضلا عن وظائفها الفيزيولوجية كالطعام... والتذوق والتنفس والزفير...

وعملية إصدار الصوت اللغوي تشبه عملية إصدار الصوت في الآلات النفخية كالناي؛ عمود من الهواء يدخل... يمر بممر مغلق، ثم يخرج من الجهة الأخرى... وخلال مروره بالممر المغلق، يحث له اعتراض... ما يؤدي إلى تغير الصوت...

1-عمود من الهواء المتحرك (الزفير)

2-ممر مغلق (تجويف)... ويتألف من الحنجرة والحلق والفم والأنف...

3-اعتراض بدرجات متفاوتة... عبر مجموعة من الآلات النطقية مثل اللسان، أو الشفتين...

علماً أن بعض أعضاء النطق متحرك كاللسان الذي يتحرك إلى الأعلى والأسفل واليمين واليسار... والخلف... وكذلك فإن اللهاة متحركة... وبعضها ثابت كالأسنان العلوية بخلاف السفلية... فضلا عن أن سقف الحلق ثابت...

فالاعتراض قد يكون من عضو واحد أو اثنين كاللسان والأسنان مع حروف مثل الثاء...

فطريقة إصدار الأصوات والاعتراض... تدرس في مجال علم الأصوات النطقي الذي يتمحور حول طريقة نطق الأصوات (اعتراض وزفير و...)

الحرف والصوت

الأصوات هي ما ينطق به عبر جهاز النطق الإنساني... والأصوات قدرة مشتركة عند كل أفراد الجنس البشري، فحرف الباء (ب) مثلا موجود في العربية

والإنكليزية... لكن كتابته تختلف من لغة إلى أخرى (P في الإنكليزية أو B)...

ومن الأمور التي تؤكد أن الكتابة شيء والأصوات شيء آخر، أن في بعض اللغات أصواتا واحدة يمكن التعبير عنها بغير حرف، ففي الإنكليزية يمكن التعبير عن حرف الفاء ب (F)، أو PH... فضلا عن أن بعض الأحرف تنطق بطريقة مختلفة عن طريقة نطقها الأساسية، مثل حرف S في الإنكليزية الذي يلفظ أساسا (اس)(solve)... وقد يلفظ أيضا كحرف (ز) في العربية أو Z في الانكليزية، كما في كلمة Isolated...

فالحرف هو التمثيل المرئي أو المكتوب للصوت المنطوق... وهناك أصوات قد تنطق ولا تكتب، كالالف بعد الهاء في الكلمات: هذا، وهؤلاء، وهذه... وبعد اللام في كلمة أولئك وكلمة لكن... والألف بعد الميم في قولنا: عبد الرحمن..

وهناك أيضا حروف تكتب ولا تلفظ: واستمر، ناموا...

ومن المعروف أن اللغة الواحدة تتألف من أصوات، ولكل صوت سماته الخاصة؛ فالباء مثلا صوت شفوي انفجاري... حيث يحبس الهواء في الشفتين وعند النطق بالباء، يخرج الهواء بشكل مفاجئ... ويحدث انفجارا... (تجربة وضع محرمة أمام الشفتين خلال النطق بحرف الباء تبين اهتزاز الورقة... وتحركها بشكل مفاجئ)...

ومن خصائص النون أنه حرف أنفي... والتاء أسناني... فهذه الخصائص تدرس عبر علم الأصوات النطقي...

فلو نظرنا الى اللغة الانسانية، لوجدنا اختلافا في نطق الأحرف والأصوات في إطار المتكلم الواحد، أو البيئة الواحدة، أو البيئات المختلفة، وحتى في إطار الكلمة الواحدة في حال سبق الصوت بحرف...فاللام يختلف نطقه في اللفظتين: والله، وبالله... فاللام مفخمة في الأولى ومرققة في الثانية... إذاً، اللام صوت واحد لكن نطقه تغير... وذلك في إطار المتكلم الواحد...

وفي إطار اللغة الواحدة... نجد اختلافا في نطق الظاء بين أقطار عربية مختلفة كالجزيرة العربية ومصر...

ويطال الاختلاف أيضا الكلمة الواحدة، من خلال تأثر الصوت بالأصوات بعده أو قبله (الأصوات المحيطة)... فحرف (s) في الانكليزية قد يلفظ s في كلمة say و(ز z) في كلمة isolated.

وقد يتأثر الاختلاف بالطبقة الاجتماعية... ففي مصر يلفظ حرف ط طاء في البيئات البسيطة (بطاطا)، فيما يلفظ تاء في الطبقات الميسورة (بتاتا)... وفي إنكلترا، تختلف لغة الملكة عن الشعب العادي، ويعرف السكان عند سماعها... أنها لغة ملكية... ولذا، قد يضحك بعضهم على اللغة الملكية لأن لها سمات معينة.

لكن هل يعني ذلك أن الأصوات غير محدودة العدد...؟

الواقع أن اللغة نظام من الرموز، ولا بد لكل نظام من أن تكون عناصره محدودة مثل إشارات المرور... فصحيح أن التغيرات في الأصوات تجعلها غير محدودة العدد نظرا إلى الأسباب السابقة (الطبقة والبيئات اللغوية...)، لكن تبقى لكل لغة مجموعة من الأصوات المميزة، وهناك طرق لنطقها... وهذا ما يسمى بالوحدات الصوتية... أو الصور الصوتية...

وغني عن البيان، أن أي اختلاف بين صوتين في النطق أو السمات الفيزيائية أو السمعية... يؤثر مباشرة في المعنى مثل سائر وصائر، فهاتان اللفظتان، لهما الأصوات نفسها، وتختلفان فقط في صوت واحد (الأول)... وهكذا، فإذا أدى التغير في الصوت الى تغيير في المعنى، فنحن إذاً أمام وحدتين صوتيتين...

وفي المقابل، فإن الصورتين الصوتيتين هما صوتان مختلفان في الخصائص الفيزيائية والسمعية والنطق... ولكن استبدال أحدهما بالآخر لا يؤدي الى تغيير في المعنى: والله وبالله... فنحن هنا أمام وحدة صوتية واحدة (ل) لها صورتان صوتيتان...

فالوحدة الصوتية هي أصغر وحدة في النظام الصوتي (فونيم)... والوحدات الصوتية التي تتكون منها لغة ما محدودة، واللغة تحتوي على عدد محدد من الأصوات المميزة التي يؤدي استبدال أحدها بالآخر إلى تغير في المعنى... لكن الصور الصوتية في النظام الصوتي تتعدد...

وفي اللغة العربية تقارب الوحدات الصوتية الحروف الأبجدية تقريبا (ت... ح... ك...)، أما في لغات أخرى فالأمر مختلف، ففي الانكليزية مثلا لا وجود لحرف ث، أو ش... فيكون البديل مزج حرفين: TH=ث، SH=ش...

ومع ذلك، تبقى لكل لغة صور صوتية لوحداتها الصوتية، وهذه الصور تتعدد بتنوع البيئات اللغوية (الخليج ومصر...) أو في إطار البيئة الواحدة...

ولدينا مثال على حرف الجيم الذي يلفظ في بعض البيئات المصرية g أو ج... أو قريب من الدال عند بعض المصريين... وفي الكويت يلفظ حرف الجيم ياء (دجاجة = دياية)...إذاً، الصور الصوتية غير محدودة...

وفي ميدان اللغة العربية، يلحظ الباحث وجود وحدات صوتية معينة، وليس من الضروري أن تتشابه كل اللغات بوحداتها الصوتية... فالوحدة الصوتية خ موجودة في لغة الضاد... بيد أن النظام الصوتي للإنكليزية لا يضم هذه الوحدة... فكلمة خليل في الإنكليزية تنطق كليل... إذ يحاول الإنكليزي تقريبها من وحدة صوتية موجودة عنده أصلا...

يذكر أن لكل لغة نظامها الصوتي والكتابي (الأبجدية)... فمن السمات الكتابية في اللغة العربية الكتابة من اليمين الى اليسار... عكس اللغة الانكليزية...

علماء اللغة وخصائص الحروف العربية:

اولاً-حول منهج ابن جني: في كتابه الخصائص.

لجأ ابن جني إلى استخلاص معاني الحروف العربية من معاني الألفاظ، بدلاً من الاتجاه مباشرة إلى تأمل صدى أصواتها منفردة في وجدانه. ولقد استهدى في ذلك تارة بقاعدته الذكية: (لا ينكر تصاقب الألفاظ، لتصاقب المعاني). أي تقارب الأصوات لتقارب المعاني. كما استهدى تارة أخرى بقاعدته الأذكى (سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد).. ومع ذلك لم ينج مع هاتين القاعدتين المستحدثتين من عمليات الاستبطان من التناقض حيناً بمعرض الكشف عن خصائص الحرف الواحد، ولا من الخطأ حيناً آخر في تعيين خصائص بعض الحروف ومعانيها.

فلقد ضرب ابن جني لتحديد معاني الحروف وخصائصها، الأمثلة الآتية:

(القاف) فيه صلابة، وفي (الخاء) رخاوة. هذا صحيح. إلا أنه يعود فيقول:

(الحاء) فيه رقة، وفي (الخاء) غلظة. فقيل للماء القليل نضح بمعنى رشح، ونضخ للماء الغزير، بمعنى اشتد فورانه في ينبوعه. فكيف يجتمع في حرف (الخاء) خاصيتا الرخاوة والغلظة، وهما متناقضتان؟.

وقال ابن جني أيضاً:

الهمزة في (أزّ) ، أقوى من (الهاء) في (هزّ).

وهنا اكتفى ابن جني بالكشف عن خاصية القوة الانفجارية في صوت

(الهمزة)، وعن خاصية الضعف في صوت (الهاء). وفي الحقيقة، أن صوت الهمزة يوحي بالبروز والنتوء، أكثر مما يوحي بالقوة... ولفظة (أزّ) معناها لغة (تحرك واضطرب)، وهما صورتان مرئيتان. والقوة في (أزّ) تعود إلى فعالية (الزاي) المشددة، ليقتصر دور الهمزة على إظهار فعالية الزاي في صورة مرئية تشاهد بالعين. كما أن لفظة (هز الشي هزا)، بمعنى حركه بشيء من الشدة، مدينة بما في معناها من شدة للزاي المشددة، أما الهاء فهي للاضطرابات.

إذاً، الشدة في كلتا اللفظتين تعود أصلا إلى (الزاي) المشددة، بفارق أن الهمزة للظهور والبروز والهاء للاضطرابات والانفعالات النفسية. على أن شخصية الهاء من حيث تأثيرها في معاني الألفاظ التي تتصدرها، إنما هي على خفوت صوتها، أقوى بكثير من شخصية الهمزة في هذا المضمار، على الرغم من جهارة صوتها وانفجاريته...

فتحديد ابن جني معاني الحروف عن طريق المقارنة بين معاني الألفاظ أخذاً بقاعدته (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)، على وجه ماسبق ذكره، قد أوقعه في أخطاء كثيرة، كما في قوله:

العين في (عسف)، أخت الهمزة في (أسف)، وأضعف منها. فالعين حرف شعوري، والهمزة حرف بصرى، فأين الإخاء بينهما؟

كما قال: الباء في (علب) أخت الميم في (علم). والدال في (قرد) أخت التاء في (قرت) والزاي في (علز) أخت الصاد في (علص). والسين والحاء في (سحل) أختا الصاد والهاء في (صهل) . (الخصائص -الجزء الأول-ص145 - 160).

كل ذلك بمعنى تقارب معاني الحروف لتقارب مخارجها الصوتية، وإن تفاوتت في القوة والشدة.

ولو أن ابن جني تأمل صدى أصوات الحروف في نفسه لمعرفة خصائصها، لما وقع في هذه الأخطاء لمجرد تلك المصادفات من تقارب المعاني لتقارب الألفاظ في بعض الأحيان.

من آراء ابن جني...

- إمساس الألفاظ أشباه المعاني

يقصد ابن جني بعبارة (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) محاكاة الألفاظ لمعانيها. وقد بين أنواع هذه المحاكاة:

(أ) محاكاة الصوت: من ذلك تسميتهم الأشياء بأصواتها كالخازباز لصوته والبط لصوته والواق للصرد لصوته وغاق للغراب لصوته وحنين الرعد.

(ب) محاكاة طبيعة الأحداث والأشياء: يقول: كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها. من ذلك قولهم: خضم وقضم. فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب. والقضم للصلب اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك. فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه والنضخ أقوى من النضح. قال الله سبحانه: {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ} فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظها لما هو أقوى منه.

(جـ) محاكاة الحركة: قال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة نحو النقزان والغلبان والغثيان. فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال. ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه ومنهاج ما مثلاه. وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو

الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والصعصعة والجرجرة والقرقرة. ووجدت أيضاً الفَعَلى في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة نحو البَشَكي والجَمَزي والوَلَقي.

(د) محاكاة قوة الأحداث أو كثرتها: ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل فقالوا: كسّر وقطّع وفتّح وغلّق. وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل والعين أقوى من الفاء واللام وذلك لأنها واسطة لهما.

(هـ) محاكاة ترتيب الحدث: وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها وتقديم ما يضاهي أول الحدث وتأخير ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي أوسطه سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب. وذلك قولهم: (بحث). فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض والحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض والثاء للنفث والبث للتراب. ومن ذلك قولهم: شد الحبل ونحوه. فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ثم يليه إحكام الشد والجذب وتأريب العقد فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين ولاسيما وهي مدغمة فهو أقوى لصنعتها وأدل على المعنى الذي أريد بها.

- تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني

وهو أن تتقارب الحروف لتقارب المعاني. وهذا باب واسع.

من ذلك قول الله سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} أي تزعجهم وتقلقهم. فهذا في معنى تهزهم هزا والهمزة أخت الهاء فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين. وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز.

ومنه العسف والأسف والعين أخت الهمزة كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها والهمزة أقوى من العين كما أن أسف النفس أغلظ من التردد بالعسف. فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين.

ومنه الجرفة وهي من " ج ر ف " وهي أخت جلفت القلم إذا أخذت جُلْفته وهذا من " ج ل ف " وقريب منه الجنف وهو الميل وإذا جَلَفت الشيء أو جرفته فقد أملته عما كان عليه وهذا من " ج ن ف ".

ومن ذلك تركيب " ح م س " و " ح ب س " قالوا: حبست الشيء وحمس الشر إذا اشتد. والتقاؤهما أن الشيئين إذا حبس أحدهما صاحبه تمانعا وتعازا فكان ذلك كالشر يقع بينهما.

ومنه العَلْب: الأثر والعَلْم: الشقّ في الشفة العليا. فذاك من " ع ل ب " وهذا من " ع ل م " والباء أخت الميم

ومن ذلك العلز: خفة وطيش وقلق يعرض للإنسان وقالوا العلوص لوجع في الجوف يلتوي له.

ومنه الغَرب: الدلو العظيمة وذلك لأنها يغرف من الماء بها فذاك من " غ ر ب " وهذا من " غ ر ف ".

واستعملوا تركيب " ج ب ل " و " ج ب ن " و " ج ب ر " لتقاربها في موضع واحد وهو الالتئام والتماسك. منه الجبل لشدته وقوته، وجبن إذا استمسك وتجمع، ومنه جبرت العظم ونحوه أي قويته.

وقد تقع المضارعة في الأصل الواحد بالحرفين نحو قولهم: السحيل والصهيل قال: وذاك من " س ح ل " وهذا من " ص هـ ل " والصاد أخت السين كما أن الهاء أخت الحاء.

ومنه قولهم سحل في الصوت وزحر، والسين أخت الزاي كما أن اللام أخت الراء.

ومن مضارعة الأصلين: جلف وجرم فهذا للقشر وهذا للقطع وهما متقاربان معنى متقاربان لفظاً لأن ذاك من "ج ل ف " وهذا من " ج ر م ".

ومن مضارعة الأصول الثلاثة: ا: صال يصول كما قالوا: سار يسور.

وقالوا: زأر كما قالوا: سعل لتقارب اللفظ والمعنى.

وقالوا: صهل كما قالوا: صهل كما قالوا: زأر.

ومنه غدر و ختل (وتدلان على الخفاء).

ثانياً - حول منهج العلايلي في كتابه: تهذيب المقدمة اللغوية

حدد العلايلي معاني حروف الجدول الهجائي(بما تسمح به النصوص) من دون أن يعتمد صدى أصواتها في نفسه. ولذلك غابت عن معاني حروف جدوله بصورة عامة خصائص أصواتها الحسية والشعورية. ونحن لا نتهم العلايلي بالعجز عن استبطان أصوات الحروف، فلقد قرر مثلاً، أن (اللام) معناه الملاصقة والمساس، وذلك بمعرض تحليله لمعنى لفظة (جبل). وهذا صحيح . ولكنه يعود فيقرر في جدول معاني حروفه: (إن اللام يدل على الانطباع بالشيء بعد تكلفة).

فأين معنى الملاصقة والمساس المستوحى من صوت اللام، من معنى الانطباع بالشيء بعد تكلفة المستخلص مما (سمحت به النصوص)؟.

ولعل العلايلي قد رأى أن اعتماد النصوص المحفوظة في استخراج معاني الحروف هو أقل شططا ومخاطرة وأسلم عاقبة من استخراج معانيها عن طريق صدى أصواتها في النفس. ولكن نهجه هذا هو أقل دقة وأكثر شططا...

ثالثاً-حول منهج الارسوزي:

كان الارسوزي هو الوحيد الذي اعتمد قاعدة صدى الأصوات في الوجدان لاستيحاء معاني الحروف. ولكنه وقف جل اهتمامه على استيحاء معاني الالفاظ

العربية من صدى جملها الصوتية في نفسه، فلم يولِ الحروف العربية إلا القليل من عنايته منصرفاً إلى المقاطع الثنائية، وذلك على العكس مما فعل العلايلي الذي بدأ بالحروف العربية، ومنها انتقل إلى المقاطع، ولذلك قد اقتصر الارسوزي على تحديد خصائص أحد عشر حرفاً فقط، وباقتضاب شديد.

حول منهج استيحاء معاني الحروف العربية:

الحروف العربية كأصوات فطرية مقتبسة من الطبيعة (المادية أو الإنسانية)، ولا بدّ من أن توحي بمختلف الأحاسيس الحسية والمشاعر الإنسانية.

وإذاً فإن هذا المنهج يقوم على الاستبطان الشعوري لاستيحاء الخصائص الصوتية لكل حرف. خطوة أولى لابد منها للكشف عن معانيه. وهكذا يتلخص هذا المنهج في استيحاء خصائص صوت كل حرف بتأمّل صداه في النفس بعد تفخيمه، عودة به إلى طريقة النطق بصوته حين أبدعه العربي للتعبير عن معانيه. وذلك بأن يسلط عليه أحاسيس الحواس الخمس- ومختلف المشاعر الإنسانية، وصولا إلى تحري مختلف خصائصه الحسية، ثم الشعورية.

فإذا وجد في صوته ما يوحي بإحساس لمسي، بحث عن شتى لمسياته، من ليونة أو صلابة أو خشونة أو برودة أو حرارة. بهدف استخلاص موحياته الذوقية والشمية والبصرية والسمعية والشعورية .

فإذا اقتصرت إيحاءات صوت حرف ما على اللمسي فقط، صنف في فئة الحروف اللمسية، وإذا تجاوزت هذه الإيحاءات حاسة اللمس فوقفت عند الحدود الذوقية أو الشمية أو البصرية أو السمعية ، صنف في الطبقة العليا التي تنتهي عندها إيحاءاته صعوداً.

معايير تصنيف الأصوات اللغوية

هناك معايير جمة في تصنيف الأصوات اللغوية، وأكثرها أهمية مأخوذ من علم النفس النطقي الذي يعد أقدم فرع من فروع علم الأصوات... علما أنه منذ القدم، كانت هناك محاولات لتصنيف الأصوات...

1- معيار الصوامت والحركات

*الأصوات قسمان: صوامت وحركات... فما الفرق بينهما؟

في أثناء النطق، هناك عمود متحرك من الهواء (زفير) يمر في ممر مغلق... وهذا العمود قد يعترضه عضو من أعضاء النطق أو أكثر... فإن اعترض... يكون الصوت صامتا مثل: (ب).

وإن لم يعترض يسمى متحركا، مثل الحركات الثلاث (الضمة والكسرة والفتحة) وأحرف المد... مثل الحركة القصيرة في أَ وأُ وإِ... والحركة الطويلة في (آ وأو وإي)... فالنطق بأو... يستمر حتى انقطاع النفس.. وهو لا يعترض بأي عضو من أعضاء النطق...

وهكذا، فإن الحركات لا تعترض... ولكن تصنيفها يحدد بناء على وضع الشفتين... فهناك حركات تنطق والشفتان في وضع استدارة (أو) أو الضمة....وتحدد أيضا بناء على درجة ارتفاع اللسان داخل الفم (مرتفع الى أعلى و منخفض الى اسفل...)، فالفتحة تلفظ واللسان في أدنى مستوى له في الفم... والكسرة تنطق واللسان في أعلى مستوى له في الفم (إ...).

وهناك اختلاف في الحركات من ناحية موضع اللسان (متقدم الى الأمام أو راجع الى الخلف...) فالضمة مثلا توصف بأنها حركة حلقية لأن اللسان يرجع إلى الحلق في أثناء النطق بها...

وفي المقابل، فإن الصوامت توصف على أساس المخرج (مثل الثاء يوصف بأنه بين أسناني؛ لأن اعتراض الزفير يحدث بين الأسنان العلوية والسفلية...)

2-معيار المخرج

تصنف الأصوات على أساس عضو النطق أو النقطة التي يعترض فيها الزفير أو صوت معين... مثل صوت ب، حيث يعترض الزفير عند الشفتين... فيكون صوتا شفويا...

فالصوامت هي فقط التي تعترض، ولها بالتالي مخارج... والسؤال هنا: ما هي أعضاء النطق التي تعترض هواء الزفير في أثناء إخراج الصوت...؟

1-الشفتان: الصوت الذي يعترض من طريق الشفتين يسمى شفويا؛ مثل حرف (ب).

2-اللسان: وهو يساهم أيضا في عملية الاعتراض، وهو جزء متحرك (إلى الأعلى والأسفل والخلف والأمام...) لكن اللسان لا يعترض الزفير منفردا، بل يعترض مع عضو آخر... ومع ذلك، يعد اللسان عضوا رئيسا... لأن بعض الأعضاء لا تعترض الهواء إلا بمؤازرته؛ مثل صوت ت الذي يعترض عبر اللسان والأسنان... ولا سيما أن الفك العلوي أو الأسنان العلوية لا تستطيع الاعتراض وحدها... علما أن هناك أصواتا أخرى تعترض عبر اللسان وشيء آخر...

3-اللثة: هي جزء صلب يقع خلف الأسنان العلوية... والصوت الذي ينتج من طريق لمس اللسان للثة أو جانبها...يسمى صوتا لثويا كصوت ث...

4-الحنك ويسمى سقف الحلق، ويمتد من اللثة ويصل إلى ما يوازي مؤخرة

اللسان... ولذا، له امتداد طويل في الجهاز النطقي...

والحنك ثلاثة أقسام:

أ-القسم الأول يمتد بين اللثة وبداية الحنك... فإذا لمس اللسان هذا الجزء يسمى الصوت لثويا حنكيا مثل ش...

ب-القسم الثاني يلي الأول، وهو في الوسط، ويسمى الحنك الصلب... ويسمى الصوت بالحنكي... مثل ي.

ج-القسم الثالث يقع في مؤخرة الحنك... وهي منطقة توازي مؤخرة اللسان وتقترب من اللهاة... وتسمى الحنك الأقصى (في آخر الحنك) أو اللين (لأنها عضو عضلي يتحرك إلى الأعلى أو الأسفل)...

فهذا القسم بمنزلة بوابة... فاللسان (مؤخرته) إن اقترب من الحنك الأقصى، يصدر صوتا يسمى بالحنكي الأقصى مثل ك بالعربي وg الإنكليزي...

والسؤال هنا: لِمَ يتحرك الحنك الأقصى؟ إنه يتحرك كي يحدد دخول الزفير إلى أحد التجويفين الفمي أو الأنفي... لأنه بمنزلة بوابة... فإن ارتفع... يسد المجال أمام التجويف الأنفي، فيخرج الهواء من الفم... وإن انخفض، يسد المجال أمام خروج الزفير من الفم... فيخرج من الأنف... صوت ن أنفي...وك فمي... العملية دقيقة...

5-اللهاة: هي جزء عضلي يتحرك ويتدلى من منطقة الحنك الأقصى... فعندما يقترب منها اللسان أو يلامسها يحدث صوت لهوي... مثل غ...بالعربي وgh بالإنكليزي...

6-الحلق يقع بين اللهاة والحنجرة... وإن اعترض الزفير في هذه المنطقة يصدر الصوت الحلقي... مثل ع...

7-الحَنجرة: تحتوي على الوترين الصوتيين (لا الأوتار الصوتية[1])... فحين يعترض الزفير من طريق الوترين الصوتيين ينتج الصوت الحنجري مثل: صوت ح...

وهكذا، فإن أعضاء النطق السابقة ساهمت في اعتراض الزفير... ونتيجة لهذا الاعتراض صنفت الأصوات بناء على المخارج...

وبناء على ما سبق، لدينا تسعة مخارج: 1-شفوي، 2-وأسناني، 3-ولثوي، 4-ولثوي حنكي، 5-وحنكي، 6-وحنكي أقصى، 7-ولهوي، 8-وحلقي، 9-وحنجري.

3- معيار الأصوات الفمية أو الأنفية

هناك معيار آخر في تصنيف الأصوات... وهو معيار مجرى تيار الهواء في أثناء تنقله في الجهاز النطقي... فإما أن يخرج من الفم... فيكون صوتا فميا... أو يخرج من الأنف، فيكون صوتا فميا...

فالأصوات الفمية تنتج من خلال ارتفاع الحنك الأقصى... ما يسد المجال أمام الزفير... فيمنعه من الخروج من الأنف... فيخرج من الفم؛ مثل: ب وش وك...

وفي ميدان الأصوات الأنفية، يلاحظ أن الحنك الأقصى ينخفض، فيخرج الزفير من الأنف... (أصوات أنفية) كالنون والميم...

4-معيار الأصوات الاحتكاكية وغير الاحتكاكية

في أثناء النطق، يحدث تضييق في مجرى معين... ما يسبب احتكاكا... فتسمى الأصوات حينئذ بالاحتكاكية كالفاء...

---

1 ـ ربما تسمية الأوتار الصوتية بدل الوترين... ناتجة عن الترجمة..

5-معيار الأصوات الانفجارية وغير الانفجارية

الأصوات الانفجارية هي أصوات ينطق بها من طريق حبس هواء الزفير بمنطقة معينة داخل الجهاز النطقي.. بعد ذلك، نتيجة لهذا الضغط أو الحبس لمدة معينة، يضغط الهواء، وبعد الإفراج عن الهواء، فجأة يحدث الهواء شكل انفجار... والعملية شبيهة بمبيدات الحشرات التي تحتوي على ضغط عال، ويكون الهواء مضغوطا داخلها... فإن كسرت، تحدث انفجارا...

ومثال على ذك حرف ب، حيث يخرج الزفير... ويحبس في منطقة الشفتين، ويجري الحبس لمدة زمنية معينة (أجزاء من الثانية)... بعد ذلك، يفتح المجال أمام الزفير... فيحدث انفجارا...(ملاحظة: حين نضع ورقة كلينكس أمام الشفتين في أثناء نطق حرف الباء، تتحرك الورقة...)

6-معيار الهمس والجهر

يرتبط هذا المعيار باهتزاز الوترين الصوتيين أو عدمه في أثناء النطق بالصوت أو الحرف... وهناك حالتان للوترين الصوتيين الموجودين في الحنجرة، حين يمر هواء الزفير... ، إما أن يتوتر هذان الوتران وإما أن لا يتحركا... فإن توترا ينتج صوت مجهور... وإن لم يتحركا... ينتج صوت مهموس...

وللتثبت أكثر، نضع الإصبع على الحنجرة... ونلاحظ الاهتزاز أو عدمه...

ويمكن حصر الأصوات المجهورة في الحروف الآتية:

(ب. ج.د.ذ.ر.ز.ض.ظ.ع.غ.ل.م.ن.).

أما الأصوات المهموسة فهي:

(ت.ث.ح.خ.س.ش.ص.ط.ف.ق. ك.هـ).

يذكر أنه قد يكون هناك صوتان يخرجان من مخرج واحد... ولكن يختلفان في الهمس والجهر...(ع وح مثلا)...

7-معيار الإطباق أو عدمه

أحرف الإطباق تختص بها اللغات السامية التي تنتمي إليها العربية والعبرية... ومن المعلوم أن هناك أسرا لغوية تقسم اللغات على أساسها، ومنها الأسرة السامية...

فمعيار الصوت الإطباقي يرتبط بدرجة ارتفاع اللسان داخل الفم، ودخول اللسان سقف الحلق أو الحنك... وتقعره...

ففي حالة الإطباق، يرتفع اللسان خلال النطق بالصوت ويلتصق بسقف الحلق أو الحنك، ويتقعر... مثل ط وض...

أما في حالة الصوت غير الإطباقي، فإن اللسان لا يكون عند النطف به متقعرا في الحنك... فقد يضرب بالأسنان وغيرها؛ مثل ذ.... ومن الأصوات غير المطبقة: (ك- س...)

يذكر أن خصائص كل صوت تتحدد وفقا للمعايير السابقة... ذ مثلا: صوت صامت+مجهور+مخرجه بين أسناني (لثوي)+غير مطبق+احتكاكي+فمي...

تصانيف الحروف العربية وفقا لخصائصها الصوتية[1]:

صنّف علماء اللغة العربية أصوات الحروف في مجموعات كثيرة، تارة بحسب مخارجها، وتارة بحسب كيفية النطق بها، وتارة ثالثة بحسب سهولة النطق بها أو صعوبته...

1-الأصوات الصامتة والصائتة:

الأصوات الصامتة هي جميع الحروف الهجائية، باستثناء الصائتة.

والأصوات الصائته هي (الألف، الواو، الياء..). ويقال لها تارة حروف اللين، وتارة أخرى الحروف الهوائية أو الجوفية...

2-أصوات الحروف بحسب مخارجها:

أدرك علماء اللغة العربية، ولا سيّما القدامى منهم، الأهمية العظمى لهذا التصنيف، فعقدوا بشأنه البحوث الطويلة لاختلافهم في مخارج بعض الحروف.

والواقع أن تحديد المخرج الصوتي لكل حرف بدقة، هو وحده الذي يحافظ على أصالة أصوات الحروف العربية، فلا يختلف عما نطقت بها الأجيال العربية الأولى، ليحافظ بذلك كل حرف على صدى صوته البكر في نفس العربي الذي استوحى منه معانيه الأصلية، فيظل هذا الحرف يوحي لنا نحن بذات المعاني،

---

1 ـ حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها- دراسة -منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998

فتحافظ اللغة العربية بذلك على فطرتها. وهكذا، فإننا بالمقابل، نستطيع اليوم أن نحسم الخلاف الذي وقع بين علماء اللغة حول مخارج أصوات بعض الحروف، ونصحح النطق بكل حرف... وذلك بالعودة إلى تأثيره في معاني الألفاظ التي تبدأ أو تنتهي به، كما في أحرف الجيم والهاء والعين. وهكذا، فإن هذا التصنيف الذي يحافظ على أصالة أصوات الحروف العربية، من شأنه أن يحافظ على أصالة اللفظ العربي، وعلى وحدة اللسان العربي، مهما تتعدد أقطاره وتتباعد، ومهما يمتد به الزمن ويتمادى.

ويمكن الاعتماد في تصنيف مخارج أصوات الحروف، على ما اتفقت عليه الأكثرية من قدامى اللغويين، لقرب عهدهم بالنطق العربي الأصيل، وإن لم يكن هو الأصوب دائماً...

ولمعرفة مخرج صوت الحرف: يسكّن ويشدّد، فحيث ينقطع الصوت يكون مخرجه. وهذه المخارج هي:

1- الأحرف الحلقية: الهمزة. الهاء. العين. الحاء . الغين. الخاء. (إلا أن الدكتور أنيس يعد الهمزة مزمارية وليست حلقية، لتشكل صوتها عند فتحة المزمار... فضلا عن أن الفراهيدي وابن سينا والعلايلي يقدمون العين على الهاء)...

2-الأحرف اللهوية: القاف. الكاف (اللهاة، تقع بين الحلق والفم).

3-الأحرف الشجرية: الجيم . الشين. الياء غير المدّية (بين وسط اللسان وما يقابله من الحنك الأعلى).

4-الأحرف الزلقية: اللام. النون المظهرة. الراء (زلق اللسان طرفه).

5-الأحرف النطعية: الطاء . الدال. التاء. (النطع هو سقف غار الحنك الأعلى).

6-الأحرف الأسلية: الصاد. السين. الزاي (ما بين رأس اللسان وصفحتي الثنيتين العُلويتين).

7-الأحرف اللثوية: الظاء. الذال. الثاء (لخروجها من قرب اللثة).

8-الأحرف الشفوية: الفاء . الباء. الميم. الواو غير المدية.

9-الأحرف الخيشومية: النون الساكنة . النون والميم المشددان.

10-الأحرف الجوفية أو الهوائية: الألف. الواو الساكنة المضموم ما قبلها. الياء الساكنة المكسور ما قبلها (الجوف هو فراغ الحلق والفم).

المخارج	الصفات	الصفات
	مجهور	مهموس
شفوي	ب، م	ف
لثوي	ذ، ظ	ث
نطعي	د ط	ت
شجري	ج ض	ش
أسلي	ز	س ص
ذلقي	ر ل ن	
لهوي	ق	ك
حلقي	ء ع غ	ح خ هـ
هوائي	ا و ي	

في الاختلاف على المخرج الصوتي:

اتفق معظم علماء اللغة العربية على جعل مخرج العين بعد مخرج الهاء، وشذّ عنهم الفراهيدي وابن جني والعلايلي، فجعلوه في أول الحلق من الداخل قبل مخارج الحروف جميعاً.

على أن اختلاف العلماء لم يقتصر على مخرجي العين والهاء، وإنما تعداهما إلى مخارج حروف (الخاء والغين والقاف، والكاف، والضاد، والشين، والتاء، والثاء).

واختلافهم في ذلك يرجع إلى تردد تلفظهم بصوت الحرف الواحد موضوع

الاختلاف بين الجهر والهمس، أو الشدة والتخفيف، أو التفخيم والترقيق. وليس لهم ضابط في ذلك إلا السماع الشائع في عصر كل منهم، أو نقلاً عن كتب اللغة، ليظلوا بذلك في موقعهم ذاته من المشكلة من دون حل. فكل عالم لغة في عصور التدوين وما بعدها كان يحدد مخارج أصوات الحروف وفقاً لنطقه بها، أو بحسب سماعها.

فالحرف الذي يُشبع صوته جيداً، أو يشدّد، أو يفخّم، يتقدم مخرجه إلى الأمام نحو الحلق، ويعلو أكثر نحو سقف الحنك أو سقف الحلق. أما إذا لفظ صوته مرققاً مخفوتاً به، فإن مخرجه يتراجع إلى الوراء ويهبط أكثر إلى أسفل. وهكذا يمكن للحروف المتجاورة أن يتقدم مخرج الواحد منها على الآخر خلافاً للأصول، ما يغير من خصائصه الصوتية ومعانيه، ويبعدنا بالتالي عن أصالة اللغة العربية.

هذا جانب من مشكلة مخارج أصوات الحروف التي عانى منها علماء اللغة العربية في القرون الهجرية الأولى وهم أقرب عهداً من عصور اللغة الذهبية، ترتيل آيات فصيحة، ورواية أشعار بليغة ولهجة بدوية بعيدة عن رطانة العُجْمة ورخاوة الحضر.

أما نحن اليوم، فقد بعد الزمان بنا، وضعنا في متاهات من اللهجات العربية، لكل قطر لهجة خاصة في التلفظ بأصوات الحروف، ولكل لهجة فروع عامية، بين حضريها وريفيها وبدويها، لا بل يكاد يكون لكل مدينة وعشيرة وقرية طريقة نطق متميزة. ولولا القرآن الكريم لضاع العرب إبان عصور انحطاطهم في أمم شتى من اللهجات.

وما يزيد الأمر صعوبة في الاهتداء إلى الطريقة الأصلية في التلفظ بالحروف، هو أن العربي قد فقد اليوم على العموم طابعه الصوتي الأصيل.

وكان علماء اللغة يعزون ذلك إلى الاختلاط بمختلف الشعوب الإسلامية غير العربية...

وهكذا قد تسربت الرخاوة إلى صوت الإنسان العربي في عصور الانحطاط، فبهِت رنينه وخبا بريقه، لتتراجع مخارج الكثير من أصوات حروفنا إلى الوراء، وتنطمس موحياتها الصوتية في الأسماع. وما لم يتحرر العربي من قلقه وخنوعه وريائه، فيجهر صوته عالياً بآرائه ومعتقداته، لن يستقيم نطقه أبداً... فاللغة العربية إنما هي لغة الحرية والأحرار.

3- الجهر والهمس:

الحروف المجهورة هي الحروف التي تتشكل أصواتها في الحنجرة باهتزاز وتريْها الصوتيين اهتزازا منتظماً. ولمعرفة ذلك يلفظ الحرف مستقلاً عن غيره، وتوضع الأصبع فوق تفاحة آدم من الحنجرة، فإذا شعرنا باهتزاز الوترين كان الحرف مجهوراً، وإلا كان مهموساً. والأمر نفسه لو وضعنا الكف على الجبهة.

ويمكن حصر الأصوات المجهورة في الحروف الآتية:

(ب. ج.د.ذ.ر.ز.ض.ظ.ع.غ.ل.م.ن.).

أما الأصوات المهموسة فهي:

(ت.ث.ح.خ.س.ش.ص.ط.ف.ق. ك.هـ).

وهكذا؛ فإن المجهور هو الصوت الذي تصحب نطقه ذبذبة في الأوتار الصوتية... والمهموس هو الصوت الذي لا تصحب نطقه هذه الذبذبة[1]... آية ذلك، أن الوترين قد ينفرجان مسفحين مجالا للنفَس أن يمر خلالهما من دون مجابهة أي اعتراض.. وهذا ما يحدث الصوت المهموس...

4- الشدة والرخاوة وما بينهما:

يقال لصوت حرف ما إنَّه شديد، إذا كان النّفَ

---

1 ـ محمد الفرج، المعاجم اللغوية، ص63

س معه ينحبس عند مخرجه... وذلك بضغط الأعضاء التي تحدثه على بعضها. حتى إذا انفصلت فجأة، حدث الصوت كأنه انفجار، كما في انفراج الشفتين الفجائي في صوت الباء. ويسميها الدكتور بشير الحروف الانفجارية. وهي بحسب رأيه:

(أ.ب.ت.د.ط.ك. ق).ويضيف الدكتور أنيس إليها حرف (ج) القاهرية.

والحروف الرخوة هي التي لا ينحبس فيها النّفس. وهي مرتبة بحسب درجة رخاوتها: (س.ز.ص.ش.ذ.ث.ظ.ف.هـ ح. خ) ويسميها الدكتور بشير الحروف الاحتكاكية. كما يضيف إليها حرفي (ع.غ).

...وأما الحروف المتوسطة بين الشدة والرخاوة فهي: (ر. ع. ل. م. ن.).

ومع أن إيحاءات أصوات الحروف تتأثر إلى حد ما بشدتها ورخاوتها، أو بجهرها وهمسها، فإن المبادئ النطقية التي اتخذها علماء اللغة والأصوات في تصانيفهم لتقرير ما إذا كان صوت ما شديداً أو رخواً، قد لا تتوافق عمليا مع إيحاءاتها السمعية. فصوت حرف (التاء) مثلاً، وهو من الحروف الانفجارية، هل هو أشد وقعاً على السمع من أحرف الذال أو الظاء أو الزاي، وهي من الحروف الرخوة؟. وأصوات هذه الحروف الثلاثة هل هي أكثر إيحاء بالرخاوة من أصوات حرفي اللام والراء؟.

يذكر أن المجهور قد يكون شديدا أو رخوا، وكذلك المهموس...

5-أصوات الحروف الحسية والشعورية

التصنيف الذي اعتمده حسن عباس في كتابه خصائص الحروف العربية ومعانيها: اعتمد المؤلف على تصنيف الحروف تبعاً لإيحاءات أصوات الحروف الحسية والشعورية وطريقة النطق بها.

وهذا التصنيف إنما هو نتيجة حتمية لمقولة (فطرية اللغة العربية)، وإن

أصوات الحروف العربية لا بد من أن توحي بمختلف الأحاسيس الحسية والمشاعر الإنسانية.

وهكذا، فإن الرهان على فطرية اللغة العربية ينقلب إلى الرهان على صحة هذا التصنيف الجديد.

ويرى المؤلف أنه لا بد هنا من التذكير مرة أخرى بصعوبة استخلاص الخصائص الحسية أو الشعورية من أصوات الحروف. لذلك من المستحسن أن يردّد القارئ صوت الحرف موضوع الدراسة بشيء من التفخيم، المرة بعد المرة، وأن يتأمل صداه في نفسه، وحبذا لو يسجل ذلك على شريط. "ومن المفيد أن أنبه الآن أنه قد يكون لصوت الحرف الواحد إيحاءات حسية وشعورية مختلفة، نظراً إلى تعقد عملية النطق به واعتماد تشكل صوته على مساحة واسعة وفراغات متعددة في جهاز النطق. إلا أنني قد صنّفت الحروف تبعاً للخصائص الحسية أو الشعورية الغالبة فيها، أو وفقا لطبيعتها الصوتية الخاصة، أو بحسب طريقة النطق بها، مشيراً إلى ذلك حينا وساكتا عنه حيناً أخر".

أ-الحروف اللمسية :(ت. ث. ذ. د. ك.م).

ب-الذوقية: (ر.ل)

ج-الشمية:.........

د-البصرية : (الألف المهموزة واللينة، ب.ج. س. ش. ط.ظ. غ.ف. و. ى)

هـ-السمعية: (ز.ق)

و-الشعورية غير الحلقية: (ص. ض. ن)

ز-الشعورية الحلقية : (خ. ح. هـ. ع)

يلاحظ في هذا التصنيف أنّ حاسة الشم لم تختص بأي حرف لتعبر به عن أحاسيسها، إلا أن هناك كثيراً من الحروف التي في أصواتها بعض الأحاسيس الشمية...

يلاحظ كثرة الحروف البصرية واللمسية والشعورية ، وقلة الحروف السمعية، ليصدق في ذلك قول المثل العامي(الإسكافي حافي، والحائك عريان).

وهذه الظاهرة ترجع في حقيقة الأمر، إلى أن أصوات الحروف قد أبدعها العربي للتعبير عن حاجاته المادية والمعنوية. ولما كانت هذه الحاجات المتصلة بالطبيعة (العالم الخارجي) وبالمشاعر الإنسانية (العالم الداخلي)، هي أوفر بما لا يقاس، مما يتصل منها بالأصوات، فقد كان من البداهة والعدالة، أن تأخذ الحواس والمشاعر الإنسانية من أصوات الحروف على مقدار حاجتها.

على أن اقتصار الحروف السمعية على حرفي (الزاي والقاف) في هذا الجدول، لا يعني بداهة وقف التعبير عن معاني الأصوات على هذين الحرفين، وإنما يعني فقط أن الإيحاءات الصوتية هي الغالبة على خصائصهما الحسية. فلقد استعان العربي بكثير من أصوات الحروف للتعبير عن الأصوات التي تحاكيها في الطبيعة ولاسيما أحرف (ص.ن.ع.ح.هـ) ولم تصنف سمعية لغلبة الخصائص الحسية أو الشعورية الأخرى على طبيعتها...

إذا، ما هي القاعدة في تحديد المخارج الصوتية للحروف؟

إن الخطأ في طريقة النطق بالحرف لا يؤثر في موقع مخرجه فحسب، وإنما يتعداه أيضاً إلى إيحاءاته الصوتية، ومن ثم إلى المعاني الفطرية للألفاظ التي يشارك في تراكيبها. إذا، لا بد من الرجوع إلى معاني المصادر التي يشارك فيها الحرف الذي وقع الاختلاف على مخرجه، للتثبت من صحة النطق بصوته، كما مع حرف الهاء، وحرف الجيم.

فهل لفظ العربي صوت العين بهمس وخفوت أكثر مما لفظ صوت الهاء، ليظل ترتيب مخرجه بعد مخرج الهاء قائماً معبراً على رأي معظم علماء اللغة أو العكس هو الصحيح؟

فمن المرجح أن ابن سينا قد جعل مخرج القاف قبل الخاء والغين، لأنه أشبع صوت القاف لقوته الانفجارية أكثر مما ينبغي، وخفت بصوتي الخاء والغين لرخاوتهما أكثر مما ينبغي (الأصوات اللغوية ص145). على أنه قد سبق أن تبين في دراسة حرف القاف أن العربي لفظه مخففٌ بعض الشيء، ما يجعل تقديم مخرجه على مخرجي الخاء والغين بلا سند.

ولحسم الاختلاف حول مخارج أصوات الحروف، لا بد من الرجوع إلى مجمل الإيحاءات الصوتية للحرف من جهة، ومن ثم إلى الطابع العام لتأثيره في معاني الألفاظ التي يشارك فيها من جهة أخرى. إذ ليس من الذوق الموسيقي السليم في شيء أن نهمس ونخفت بصوت الحرف القوي الذي فرض معاني القوة والفعالية على الألفاظ التي يشارك فيها، ثم نشبع ونفخم صوت الحرف الرخو الضعيف الذي اختص أصلاً بترقيق المعاني وإضعافها.

ولقد التزم العربي بهذا النهج الموسيقي السليم بمعرض هذه العلاقة الفنية بين أصوات الحروف ومعانيها؛ لأن العربي هو نفسه الذي فرض ابتداء بكيفية نطقه بصوت كل حرف، إشباعاً أو خفوتاً، شدة أو رقة، معاني الألفاظ التي شارك فيها. وهكذا نطق بصوت الحرف الذي أبدعه بالكيفية التي توحي بالمعنى المقصود والغرض المراد: تشديداً لمعاني الشدة والقوّة، وتفخيماً لمعاني العظم والفخامة، وترقيقاً لمعاني الرقة والليونة، وخنخنة لمعاني النتانة والخسة والعيوب النفسية والعقلية والجسدية.

هذا جانب من مشكلة مخارج أصوات الحروف التي عانى منها علماء اللغة العربية في القرون الهجرية الأولى...

المقاطع الصوتية والتحليل المقطعي

المقطع هو وحدة صوتية مثل الفونيم (الصوت) الذي هو وحدة بناء، ولكنه أكبر من الفونيم أو الصوت الواحد... إنه وحدة صوتية مكونة من أكثر من وحدة صوتية صغيرة (مكون من صوتين على الأقل)...

فالكلمات نلفظها على شكل مقاطع لا أصوات منفردة؛ مثل كلمة كتاب التي تتكون من المقطعين الآتيين: (كِ) ، (ت َ َ ب).

ما هي أجزاء المقطع؟

هناك أربعة أجزاء للمقطع:

1-النواة: لا يوجد مقطع بلا نواة، والنواة هي الصوت الأساسي المكون للمقطع، والنواة هي حركة، ولا تكون صامتة... فهي إما أن تكون حركة (ضمة أو كسرة أو فتحة) (حركة قصيرة)، أو مدا (حركة طويلة) مثل رو (ضمتان ولكن صوت واحد)...

2-الخاتمة: هي صوت صامت أو أكثر من صوت صامت يأتي بعد النواة... وقد لا تكون موجودة...

3-القافية: هي النواة+ الخاتمة (إن وجدت خاتمة... لأنها أحيانا لا تكون موجودة...)

4-الاستهلال: هو صامت أو أكثر من صامت يأتي قبل النواة... لكن في اللغة العربية يفترض أن يكون هناك صامت واحد (منعا لالتقاء الساكنين في حال

وجود صامتين... علما أن الإنكليزية تضم أكثر من صامت...)

والمقطع إن كان منتهيا بحركة يكون مقطعا مفتوحا... وإن لم ينته بحركة، بل بصامت، يسمى مقطعا مغلقا...

والكلمة قد تكون مقطعا واحدا (قد) أو أكثر (كاتب)...

أمثلة على التحليل المقطعي

معلمون

-الكتابة الصوتية المفصلة: مـــُ عـَ ل لـِ مـــُ ُ ن

تتألف هذه الكلمة من أربعة مقاطع.1- مـــُ 2- عـَ 3- ل لـِ 4- مـــُ ُ ن

يذكر أن المد في مو...نشير إليه بضمتين، لكنه يبقى صوتا واحدا. والحرف المشدد نفك إدغامه... وتأتي الحركة بعد الحرف الثاني.

-الاستهلال: في المقطع الأول: م والثالث ل الثانية لا الأولى أيضا، لأنه في العربية يمنع وجود صامتين. وفي المقطع الرابع م.

وهكذا، فإن الاستهلال جزء من المقطع...

-القافية: (=خاتمة +نواة)=مـــُ ُ ن (ن= خاتمة)

يذكر أن الاستهلال جزء من المقطع (ابنه)... والخاتمة بنت القافية...

علما أن تسميات ابن ابنه أم حفيد... رائجة في تصنيف اللغات والتحليل المقطعي في اللغات العالمية...

ملاحظة: في التحليل المقطعي لا نستخدم تسميات الحروف الأبجدية ألف باء جيم... بل أ ب ج... ولا نأخذ في الحسبان أن هذا الحرف ساكن أو... إنما نراعي الحركات والصوامت... فحرف ب صامت وإن كانت حركته الضمة... والصوامت هي الحركات الثلاث، فضلا عن المد بالألف والواو والياء.

وهكذا، فإننا نعرف من خلال التحليل المقطعي عدد المقاطع والاستهلال والنواة

والخاتمة...

مثال آخر على التحليل المقطعي

مسلمون

-كتابة صوتية مفصلة:

م ُ س ل ِ م ُ ُ ن

الأنوية: م ُ + ل ِ+ م ُ

عدد المقاطع: 3

الاستهلال: م للمقطع الأول+ ل للثاني+ م للثالث

الخاتمة: س للمقطع الأول+ ن للمقطع3

القافية للمقطع الأول: م ُ س+ القافية للمقطع 3= م ُ ُ ن

مثال آخر على التحليل المقطعي:متعلَّم

م ُ + ت َ+ ع َ+ ل ل ِ + م ُ+ ن

تتألف كلمة متعلم من خمسة مقاطع... ومن خمسة أنوية.

الاستهلال للمقطع الأول م، وللثاني ت، وللثالث ع، وللرابع ل الثانية، وللخامس م.

الخاتمة للمقطع 5= ن

القافية للمقطع 5= م ُ+ ن

- أنواع المقاطع

1-مقطع قصير مفتوح: يتألف من صامت وحركة قصيرة (مُ= م ُ)

2-مقطع طويل مفتوح: صامت + حركة طويلة (حركة حركة): مات: ما = م َ َ (نواة واستهلال بلا خاتمة)

3-طويل مغلق: صامت وحركة قصيرة وصامت (عل= ع َ ل) (استهلال ونواة وخاتمة).

4-هناك مقطعان لا نجدهما بكثرة؛ هما الطويل جدا والمغرق في الطول...

والمغرق بالطول المعروف بصامت واحد، مثل باب (صامت وحركة قصيرة وصامت) (استهلال ونواة وخاتمة).

-مغرق بالطول ومعروف بصامتين: نصر وبيت (صامت حركة صامت صامت).

النبرة في اللغة العربية

موقع النبر يأتي على الأصوات اللينة (الصائتة)... والنبرة في اللغة العربية ليست معقدة... فهي غالبا تقع على أول مقطع طويل من الكلمة الخالية من الزوائد... فإذا كانت الكلمة خالية من المقاطع الطويلة، وقع النبر على المقطع الأول منها...

أصوات المد تكون عادة حاملة للنبر في العربية ولهجاتها: عالم (النبر على الألف...)، مستغلون على الواو، ومستكبرين على الياء...

النغم أو النغمة أو التنغيم الصوتي:

هو التلحين الموسيقي المرتبط بالنبرة أو النبرات في الجملة، فالنغمة تعتمد على اللحن الموسيقي في الجملة وعلى النبرة والوقف وتقطيع الكلام؛ أي على حركة الكلام في سرعته وتباطئه، وتعتمد على درجة ارتفاع الصوت أو انخفاضه... ويعد اللحن الموسيقي للكلمة أو للكلمات مع النبرة أهم عنصرين مكونين للنغمة... ويمكن القول بوجود نغمة منطقية وتساؤلية وتعجبية ونغمة استهزاء ونداء ودعاء وإغاثة وابتداء وانتهاء...[1]

العمليات التفاعلية للأصوات

الأصوات في أثناء التلفظ بها في المقطع أو الكلمة أو الجملة، تخضع لعمليات

1 ـ محمد قدوح؛ علم الأصوات، ص138 - 141

تفاعلية...نتيجة لتجاورها وتقارب مخارجها أو تباعدها أو تماثلها...

ومن الأمثلة على ذلك في العربية الإدغام والقلب والإبدال...

وفي اللهجات التي تخلصت منها منها العربية بعد اعتماد لغة قريش... الكشكشة التي نسبت الى ربيعة ومضر، أي قلب الكاف شينا (عليك = عليش) والكسكسة (عليك عليس)...واستبدال الحاء بالعين (لغة هديل): حتى = عتى.. والعنعنة أي استبدال الهمزة المفتوحة بالعين في أول الكلمة: أن= عن... والتلتلة أي كسر حرف المضارعة مطلقا عند بهراء بطن من بطون تميم، والوكم كسر كاف كم مطلقا عند قوم من بكر بن وائل...

الإدغام

الإدغام هو إدخال حرف بآخر من جنسه، ويعوض عن الحرف المدغم بالتضعيف (أي التشديد)، نحو: شدَّ أصلها شدْدَ.

- يجب لإدغام:

أ- إذا التقى في كلمة واحدة حرفان متجانسان، نحو: ردَّد أصلها: ردْدَدَ.

ب- إذا تجاور حرفان متجانسان، نحو: منَّا أصلها: مِنْ + نا.

- يمتنع الإدغام في مواضع؛ منها:

أ- في الأسماء الثلاثية متحركة العين: مَلَل، وكلَل...

ب- في الأفعال المتصلة بضمائر الرفع المتحركة: مددْنا، فككت...

- يجوز الإدغام وعدمه في موضعين:

أ- في الفعل المضارع المفرد المجزوم: لم يردَّ الدفتر، أو لم يرددِ الدفتر...

ب- في فعل الأمر المفرد؛ نحو: اردُدْ دفاتري، أو ردّ....

الإبدال والإعلال

الإبدال هو تغيير يطرأ على أحرف العلة أو الصحيحة للضرورة أو الصنعة أو الاستحسان، أما الإعلال؛ فهو تغيير يطرأ على أحرف العلة للتخفيف... ويجتمع الإعلال والإبدال في كلمتي: "غاب ودعا"؛ وينفرد الإبدال في كلمتي: "اصطنع وازدهر".

- أولا: الإبدال

من مواضع الإبدال الضروري:

-إبدال تاء الافتعال بعد أحرف الإطباق طاء، نحو: اصطبر، واضطرب؛ فهاتان الكلمتان أصلهما: اصتبر، واضترب، وقد أبدلت التاء فيهما طاء لعسر النطق، وصعوبته... بحرفي الإطباق (الصاد والضاد) المجهورين مع تاء الافتعال المهموسة... لتناسبها في المخرج.

-إبدال تاء الافتعال بعد الدال أَو الذال أَو الزاي دالاً؛ نحو: (ادّخر)، و(ازدهر من الزهر) والأَصل (اتْدخر، ازتهر). وقد أبدلت التاء فيهما دالا لاستثقال اجتماع هذه الأحرف المجهورة مع تاء الافتعال المهموسة.

- إبدال فاء الافتعال تاء: تقلب فاءُ المثال تاء في وزن (افتعل)؛ إذا جاءت حرف لين، أي: واوا أو ياء... مثل (اتَّصل واتَّقى واتَّسر)؛ الأَصل (اوْتصل واوْتقى وايْتسر) من الوصل والوقاية واليسر؛ فأصل اتصل أوتصل؛ حيث قلبت الواو وجوبا تاء، وأدغمت في تاء الافتعال... وأصل إتسار: إيتسار؛ حيث وردت فاء

الافتعال ياء، فأبدلت تاء؛ لأنها حرف مجهور والتاء حرف مهموس، ويصعب النطق بها مع هذه التاء، ثم أدغمت فيها لتصبح: إتّسار...

-الألف: الاسم المنون المنصوب تقلب نون تنوينه أَلفاً حين الوقف؛ فنقول في (رفعت علما في الاعتصام): (رفعت علما) إِذا وقفت على كلمة (علم).

-الهمزة: إذا تطرفت الواو أو الياءُ بعد ألف ساكنة، قلبت همزة: (سماء وقضاء)؛ والأصل (سماوٌ من سموت) و(قضايٌ من قضيت).

وكذلك الأَلف إذا تطرفت بعد أَلف، قلبت همزة، مثل: صحراء وخضراء.

وكذلك ألف صيغة (فاعل) من الأجوف؛ نحو: قائل وبائع (أصلهما قاوِل وبايِع)...

وإذا أردنا جمع مثل (الواقية والواصلة)، جمع تكسير، مثل: (شواعر)، اجتمع في أوله واوان: (الوواقي، والوواصل) فوجب إبدال أُولاهما همزة؛ فنقول: (الأَواقي والأَواصل)... وكذلك في التصغير، نقول: (أُويْصل) بدلاً من (وُوَيْصل)، وكل كلمة اجتمع في أَولها واوان ثانيتهما أصلية وجب قلب أُولاهما همزة.

-إذا وقعت النون الساكنة (والتنوين نون ساكنة) قبل باء، تقلب ميماً في اللفظ، وتبقى على حالها خطاً؛ نحو: (منْ بغى على أَخيه فقد أَخطأَ خطأً بيناً) تلفظ: (مَـمْبغى) و(خطأَمْ بينا).

-الهاء: تاءُ التأْنيث في الأَسماء المفردة يوقف عليها هاء، نحو: (هذه فتاةٌ) و(هي فاضلةٌ)، فتلفظ الكلمة الأُولى (فتاه) والثانية (فاضله).

- ثانيا: الإعلال

مواضع الإعلال كثيرة، فمنها ما هو إعلال بالقلب، أو بالنقل أو الحذف...

أ- إعلال القلب:

- قلب الواو والياء ألفا: يقلب هذان الحرفان ألفا وجوبا إذا تحركا وفتح ما قبلهما:

قام وباع، فأصلهما قَوَم وبَيَع، حيث تحركت الواو والياء وفتح ما قبلهما، فقلبتا ألفا وجوبا وصارتا: قام وباع...

- قلب الواو والياء همزة إذا جاءتا عينا لاسم فاعل أعلت عين فعله: صائم وغائب، فأصلهما صاوم وغايب، حيث وردتا عينا لاسم الفاعل، فقلبت همزة وجوبا، وصارتا: صائم وغائب...

- قلب الواو ياء: تقلب الواو ياء وجوبا إذا تطرفت وكسر ما قبلها، نحو: رضي التي أصلها رضِوَ، حيث قلبت الواو ياء لتطرفها بعد كسر، ومثلها قوي والغازي...

-قلب الألف: الألف الثالثة، نحو: (دعا) (ورمى)، ترد إلى أصلها مع ضمائر الرفع المتحركة، فيقال: دعوْت ورميْت، ونحن دعونا ورميْنا، وهنَّ دعوْن ورميْن. وإن كانت رابعة فصاعداً، نحو: (أبقى ويُستدعى) قلبت ياء: (أبقيت وهنَّ يستدعيْن).

وفي الأسماء تنقلب الأَلف الثالثة واواً حين التثنية والجمع إن كان أصلها واواً؛ فيقال في (عصا): (هاتان عصوان، وضربت بعصوين).

وفي غير هذه الحالة تقلب الأَلف ياء سواءٌ أَكانت ثالثة أم رابعة أم خامسة أم سادسة؛ فتقول في تثنية (هُدى ومصطفى): هُديان ومصطفيان.

وتقلب الأَلف ياء إذا وقعت بعد ياء التصغير؛ فتقول في تصغير خطاب وغزال: خُطَيِّب وغُزيِّل.

وإذا وقعت الألف بعد حرف مضموم، قلبت واواً كالمجهول من (بايع)، فتقول فيه (بويع).

وإذا وقعت الألف بعد حرف مكسور، قلبت ياء كجمع (مفتاح): مفاتيح؛ وذلك لعدم إمكان تحريك الأَلف بالضم أو بالكسر.

ب: إعلال بالنقل في نحو: مصُوْن ومَدِيْن المشتقان من صَانَ ودان، وأصلهما مَصْوُوْن ومَدْيُوْن، فنقلت حركة الواو والياء وهي الضمة إلى الساكن الصحيح قبلهما، فصارت الكلمتان مصُوْوْن ومدُيْوْن، فالتقى ساكنان، فحذف الثاني؛ لأنه

زائد، والزائد أولى بالحذف، وصارت الكلمة الأولى: مَصُون والثانية مَدُيْن، ثم قلبت ضمة الدال كسرة لمجانسة الياء فصارت مَدِين...

ج- الاعلال بالحذف: هو تأثير يصيب الحرف في حالة معينة تؤدي إلى حذفه، نحو: يبدع التي أصلها يؤبدع، حيث حذفت الهمزة للاستثقال فصارت الكلمة يبدع...

ومن الأمثلة على إعلال الحذف؛ معتل الآخر إذا جزم مضارعه أو بني منه فعل الأمر، حيث تحذف علته مثل: لم يقضِ، وارْمِ يا فتى. والمثال الواوي مكسور عين المضارع تحذف واوه في المضارع والأمر مثل: (وعد يعد عِدْ).

تغير الحركات أو الأصوات اللينة

الأمالة

هي الانتقال من حالة الفتح الى الكسر، أو من حالة المد في لفظ الفتحة أي من حالة الألف الى الياء... وتحدث هذه الظاهرة نتيجة عوامل لفظية كالتناسب الصوتي، والتقارب والتجانس بين الأصوات...

الإشمام

ظاهرة صوتية تحدث تغيرات في أصوات اللين (الكسرة أو الفتحة) باتجاه الضمة(حوكت بدل حيكت)...

بين علم الأصوات وعلم التجويد

تدريس هذين العلمين في الجامعات العربية يترك انطباعاً بأنهما علمان مختلفان، فعلم الأصوات اللغوية يُدَرَّسُ في أقسام اللغة العربية في كليات الآداب والتربية، وكذلك في أقسام اللغات الأجنبية، بوصفه من علوم اللغة، بينما يُدَرَّسُ علم التجويد في أقسام العلوم الإسلامية، بوصفة من علوم القرآن، وهناك شبه جفوة بين القائمين على تدريس هذين العلمين...

وهناك من يرى أن هذه الصورة لا تعبر عن الحقيقة العلمية، ولا تعكس الأصول المشتركة التي تربطهما...

فعلم التجويد ظهر علماً مستقلاً في التراث العربي الإسلامي في القرن الخامس الهجري، حين تمكن علماء قراءة القرآن من استخلاص المباحث الصوتية من كتب علماء العربية، ووضعها في إطار علم جديد، أُطْلِقَ عليه هذا الاسم منذ ظهور المؤلفات الأولى فيه، مثل كتاب: "الرعاية لتجويد القراءة"، لمكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة 437هـ ، وكتاب: "التحديد في الإتقان والتجويد"، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة 444هـ.

وتتابع التأليف في هذا العلم في الحقب اللاحقة لظهور مؤلفاته الأولى، ولم ينقطع التأليف فيه حتى وقتنا الحاضر، وقد تنوعت مناهج التأليف فيه وأساليبه بين النظم والنثر، والإيجاز والتفصيل، والابتكار والتقليد، وكانت السمة الغالبة على تلك المؤلفات المحافظة على صورته الأولى، مع إضافات متميزة لبعض علماء التجويد في بعض العصور، لكن ذلك لم يغير من صورته التي استقر عليها.

أما علم الأصوات، فيُعَدُّ من العلوم اللغوية الحديثة في العربية، وظهرت بوادر التأليف فيه في العربية على يد المستشرقين في النصف الأول من القرن العشرين ، لكن أول مؤلف كُتِبَ فيه بالعربية في العصر الحديث، هو كتاب "الأصوات اللغوية" للدكتور إبراهيم أنيس الذي صدرت طبعته الأولى في القاهرة سنة (1947)، وتوالت المؤلفات فيه وتكاثرت بعد ذلك، وغلب على تلك المؤلفات الاعتماد على الدراسات الصوتية الغربية، وترجمة نتائج تلك الدراسات إلى العربية، مع الإشارة إلى جهود علماء العربية مثل الخليل وسيبويه وابن جني في ميدان دراسة الأصوات، لكن جهود علماء التجويد على ضخامتها لم تحظ بالعناية منهم، بل إنها تكاد تكون مجهولة في الكتابات الصوتية العربية الحديثة والمعاصرة .

وتقدمت دراسة الأصوات اللغوية في العقود الأخيرة لدى الغربيين، واستفادت

كثيراً من مختبرات الصوت والأجهزة الحديثة التي تستعمل في دراسة الصوت وتحليله، وتنوعت مناهج تلك الدراسة ووسائلها وموضوعاتها، وتمخض عن ذلك ثلاثة فروع لعلم الأصوات، هي :

1-علم الأصوات النطقي، ويعنى بعملية إنتاج الصوت اللغوي .

2-علم الصوت الفيزياوي، ويعني بطبيعة الصوت الإنساني ، وكيفية انتقاله من مصدر التصويت إلى أذن السامع .

3-علم الأصوات السمعي، ويعنى بكيفية إدراك الإنسان للصوت اللغوي.

وانعكست آثار ذلك التقدم في دراسة الأصوات اللغوية على كتابات الأصواتيين العرب، وظهر عدد من المؤلفات التي تستند إلى ما تحقق من تقدم في مجال دراسة الأصوات، لكن دراسة علم التجويد ومؤلفاته في العصر الحديث ظلت في معزل عن ذلك كله، ولذا، صار يُنظر إلى العلمين كأنهما مختلفان موضوعاً ومنهجاً، لكنهما في الحقيقة من وادٍ واحد، ويؤولان إلى أصل واحد، ولعل في النظر في تاريخ العلمين وطبيعة كل منهما والموضوعات التي يتناولانها ما يؤكد ذلك ، وهذه نظرة سريعة في تلك الجوانب:

(1) النشأة: إن "علم التجويد" أقدم نشأة من (علم الأصوات) بما يقرب من عشرة قرون، فالمؤلفات الجامعة في علم التجويد ظهرت في منتصف القرن الخامس الهجري، وإذا أخذنا في الحسبان سبق الغربيين إلى تأسيس علم الأصوات الحديث منذ القرن السابع عشر أو القرن الثامن عشر، فإن علم التجويد يظل أقدم نشأة منه بستة قرون أو سبعة قرون .

2)التسمية: إن مصطلح " علم التجويد " استعمل للدلالة على المباحث الصوتية المتعلقة بقراءة القرآن الكريم، وكانت تلك المباحث مختلطة بالمباحث النحوية والصرفية لدى علماء اللغة العربية، ولم يفردوها بمصطلح خاص أو علم مستقل، وقد حاول ابن جني ذلك في كتابه (سر صناعة الإعراب) حين عبَّر عن موضوع

الكتاب بـ (علم الأصوات والحروف)، لكن من جاء بعده من علماء العربية، لم يوفقوا في استثمار تلك اللمحة من ابن جني والبناء عليها، حتى تمكن علماء قراءة القرآن بعده من استخلاص المباحث الصوتية من كتب علماء العربية، وأفردوها في كتب خاصة، واختاروا لها تسمية جديدة، كانت في أول الأمر تتكون من عنصرين: الأول المخارج والصفات، والثاني التجويد والإتقان، فسمَّى مكي ابن أبي طالب كتابه: "الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها "، لكن معاصره أبا عمرو الداني سمى كتابه "التحديد في الإتقان والتجويد"، ثم غلبت كلمة التجويد في عناوين الكتب التي ألفها العلماء في العلم من بعدهما .

أما مصطلح " علم الأصوات اللغوية" فإنه مصطلح جديد، استعمله المتخصصون بعلم اللغة العربية في العصر الحديث، وجاء ترجمة للمصطلح الغربي الدال على هذا العلم، ودرسوا تحته مباحث صوتية قديمة سبق إلى دراستها علماء العربية والتجويد، ومباحث صوتية جديدة نقلوها من الدرس الصوتي الغربي...

(3) الموضوعات: تتلخص موضوعات علم التجويد في ثلاثة أمور، هي:

أ: معرفة مخارج الحروف

ب: معرفة صفات الحروف .

ج: معرفة الأحكام الناشئة عن التركيب، مثل الإدغام والإخفاء، والترقيق والتفخيم، والمد والقصر، وغيرها من الموضوعات الصوتية المتعلقة بقراءة القرآن الكريم .

وتعد هذه الموضوعات من أهم موضوعات علم الأصوات اللغوية المعاصر، لكن هذا العلم يدرس اليوم إلى جانب ذلك موضوعات أخرى بعضها يتعلق بعلم الأصوات النطقي، مثل آلية إنتاج الصوت اللغوي، والمقطع الصوتي، والنبر والتنغيم، وبعضها يتعلق بعلم الصوت الفيزياوي وعلم الصوت السمعي، وبعض

هذه الموضوعات الصوتية الحديثة مما يحتاج إليه دارس علم التجويد، لو أتيح له الاطلاع عليها .

4-المصطلحات: يستخدم علم أصوات العربية المعاصر معظم المصطلحات الصوتية التي استخدمها علماء العربية والتجويد، وقد فضَّل بعض الدارسين مصطلحات عربية جديدة جاءت ترجمة للمصطلحات الصوتية الغربية، ففي الوقت الذي استخدم فيه معظم المحدثين مصطلح المجهور والمهموس، فإن بعضهم آثر مصطلح الانفجاري والاحتكاكي بدلاً من الشديد والرخو ، ولا يزال موضوع المصطلح الصوتي عند المحدثين من الموضوعات التي يكثر فيها الاختلاف والاضطراب، ولاسيما في التعبير عن المفاهيم الصوتية الحديثة، وبعض ذلك راجع إلى عدم اطلاع الأصواتيين العرب المحدثين على كثير من التراث الصوتي عند علماء التجويد.

5-وسائل الدراسة: اعتمد علماء العربية الأوائل وعلماء التجويد على الملاحظة الذاتية والتجربة الشخصية في دراسة الأصوات، ولا تزال هذه الوسيلة من الوسائل المهمة في الدرس الصوتي الحديث، لكن التقدم العلمي قد وضع في أيدي علماء الصوت وسائل جديدة تعتمد على الأجهزة الحديثة، وتمكنوا من خلالها من إحراز تقدم هائل في فهم الصوت اللغوي والكشف عن أسراره ، ولا يستغني المشتغلون بعلم التجويد وتعليم قراءة القرآن من الاستفادة من هذه الوسائل الحديثة، إذا ما توافرت المستلزمات الضرورية لذلك.

ويبدو من خلال هذا العرض الموجز أن أصل العلمين واحد، وأن الموضوعات التي يدرسانها واحدة، سوى أن علم التجويد يركز على المباحث الصوتية التطبيقية المتعلقة بقراءة القرآن، وأن علم الأصوات يعنى بكل المباحث المتصلة بأصوات اللغة...

الحروف الشعورية الحلْقية

الحَلْق: (بتسكين اللام) لغة، هو (مساغ الطعام والشراب إلى المريء).

والحلّق، كما أنه مساغ الطعام والشراب إلى المريء، في حركة من الخارج إلى الداخل، هو أيضاً مسار النفس (بفتح الفاء). من الحنجرة إلى جهاز النطق، في حركة معاكسة من الداخل إلى الخارج، فمعظم النفَس الذي يخرج من الفتحة المزمارية في الحنجرة يدخل مباشرة في جوف الحلْق، ومنه يسري إلى مختلف مناطق المدرج الصوتي حتى آخره في الشفتين، على أن قسماً ضئيلاً من النفَس يتسرب إلى الأنف، ما يُسهِم في خنخنة أصوات بعض الحروف، وفي غُنَّة البعض الآخر.

وقدرة أصوات الحروف الشعورية الحلقية على التعبير عن الانفعالات النفسية ذاتياً، تعود بالدرجة الأولى إلى رقة أنسجة غشاء الحلق وحساسيتها الفائقة، لا إلى قرب الحلْق من جوف الصدر فحسب، فليس في جهاز النطق ماهو أقدر من هذه الأنسجة على امتصاص الاضطرابات والانفعالات التي تجيش في النفْس (بتسكين الفاء) والصدر معاً، ليصبَّها المتكلم المنفِعل في أصوات مهتزة أو مضطربة، تجسِّدها تجسيداً أكثر مما توحي بها إيحاء.

على أن قرب الحلق من جوف الصدر، يعطي الأصوات التي تتشكل فيه فرصة أفضل لتلقي الانفعال النفسي بحيويته وتلوناته ودقائق رعشاته.

وهكذا كأني بأنسجة الحلق، بحساسيتها المفرطة وقربها من جوف الصدر، قد تحولت إلى مصفاة للانفعالات النفسية في اللسان العربي، فما تسرب منها إلى مختلف مخارج أصوات الحروف إلا القليل بعضها لحرف النون مهتز الصوت تعبيراً عن حالات الخشوع والألم الدفين، وبعضها لحرف الصاد الصقيل، لمعاني الصفاء والنقاء، وما بقي منها لحرف الضاد المفخَّم لما يوحيه من مشاعر النخوة، مع الإشارة إلى ندرة المشاعر الإنسانية في معاني المصادر التي شاركت فيها هذه الحروف...

- حساسية أنسجة الحلْق:

نظراً إلى رقة أنسجة غِشاء الحلْق وحساسيتها المتناهية، فإن أصوات الحروف التي تتشكل على صفحاتها تتصف على العموم بخاصية الاهتزاز والاضطراب، بما في ذلك حرف (الغين) الحلقي... وما شذ عن خاصية الاهتزاز هذه سوى حرف الحاء الذي تحول الاهتزاز الرقيق في صوته إلى حفيف وصحل (بحّه). أما الهمزة فصوتها انفجاري معدوم الاهتزاز، وهي مزمارية أصلاً لا حلْقية.

- خاصية الاضطراب في المشاعر الإنسانية:

إن من يدخل في حالة من الحالات الشعورية، سواء أكانت سلبية من فزع أم حزن أو غضب، أم إيجابية من فرح أو شوق أو هوى أو هيام، لا بد من أن يشيع الاضطراب معها في نفْسه (بتسكين الفاء). ولا بد لهذا الاضطراب أن يتسرب إلى جوف الصدر وأنسجة الحلْق...

- تنوع الخصائص الصوتية للحروف الحلقية تبعاً لكيفية التلفظ بها:

بحكم رقة الأنسجة الحلقية وحساسيتها الفائقة، وبحكم قربها من جوف الصدر،

قد سهل على أصوات الحروف الحلقية أن تتكيف مع مختلف الحالات الشعورية والمعاني المراد التعبير عنها شعورية كانت أم غير شعورية، فالرقة والنعومة في أصوات بعضها لمعاني الرقة والكياسة، أما الاهتزاز والاضطراب في أصوات بعضها الآخر، فلِما يحاكيها من الأحداث المضطربة والأصوات المهتزة، أما الخنخنة فللعيوب النفسية والجسدية ولمعاني التقزز والقذارة والفحش وما إليها. ويزيد الأمر صعوبة في دراسة خصائص أصوات هذه الحروف على واقع المعاجم اللغوية، أنَّ كيفية النطق بصوت الحرف الواحد منها لا تعمل على تغيير إيحاءاته، وبالتالي معانيه من حال إلى حال فحسب، كما في حرف الجيم، وإنما قد تقلب معانيه من النقيض إلى النقيض....نظرا إلى طواعية أنسجة الحلق، وقدرتها على التكيُّف مع المعاني المراد التعبير عنها.

الحروف الشعورية الحلقية: هي : الخاء. الحاء. الهاء. العين.

1- حرف الخاء

هو أخر الحروف الحلْقية، مهموس رخو. يقول العلايلي عنه: إنّه (للمطاوعة والانتشار والتلاشي)...

وتختلف إيحاءات صوت هذا الحرف باختلاف كيفية النطق به، فإذا لفظ صوته مخففاً مرققاً قريباً من جوف الحلق غير مخنخن به كانت إيحاءاته الصوتية مزيجاً من الأحاسيس اللمسية: رخاوة ورقة وملمساً مخملياً فيه شيء من الدفء.

أما إذا لفظ صوته بشيء من الشدة والخنخنة، بعيداً من جوف الحلق، أوحى بإحساس لمسي مخرش رخو، وبطعم يمجُّه الذوق، ورائحة شمية نتنة، وبإحساس بصري منشاري الشكل وسمعي مخرِّب للصوت، وبمشاعر إنسانية من الاشمئزاز والتقزز.

وبالرجوع إلى المعجم الوسيط نعثر على مئتين وخمسين مصدراً جذراً تبدأ

بالخاء، كان منها ستون مصدراً تدل معانيها على أمراض نفسية وعيوب أخلاقية بما يتوافق مع إيحاءات صوت الخاء المخنخن به، منها:

خبْ خباً (خدع وغشّ). خُبث. خبِل (فسد عقله وجُنّ). ختّ (خسّ وردؤ). الخِبَقَّاء من النساء (السيئة الخلق). ختل (خدع عن غفلة). الخجخاجة (الأحمق). إخرنشم (تكبر وتعاظم في نفسه). خرص (كذب). خرطت المرأة (فجرت). خرِف (فسد عقله من الكبر). الخِرْمِل (المرأة الحمقاء). خرِق (بكسر الراء حمُق). الخُزَعْبِل (الباطل). الخسيل (الرَّذل من كل شيء). اخرنطم (رفع أنفه وتكبر). الخِزْرافة من الرجال (الضعيف الخوّار). خيشَرَ بفتح الشين (شره). وبكسرها (هرب جبناً). الخشْل (الرذل الرديء). الحطيئة. الخطِل (الأحمق). خضْرع البخيل (تسمَّح، وشيمته تأبى السماحة). خلِب بكسر اللام (حمُق وخرِق في عمله). الخلبوب (الخدّاع المكّار). خلبسه (فتن قلبه وذهب به). خلبص (فرّ وهرب). خلس. الخُندَب والخُندَع (السيىء الخلق والخسيس). الخناعة (الذِّلَّة والضعف). خنّ البعير (جُنّ). الخيانة. اخرمسّ واخرمصّ (ذلّ وخضع). الخضاض (الأحمق). الخِنْسِر (اللئيم). خذِئ له خَذَأ، وخذْءاً وخُذُؤاً وخذاءة (خضع وانقاد). خضن الجمل (ذلّـله، ومنه خاضن القوم، تراموا بقول الفحش).

الخُنْدُب من الرجال (السيىء الخلق).

كما كان منها ثلاثون مصدراً تدل معانيها على أمراض وعيوب جسدية تتوافق مع إيحاءات صوت الخاء مخنخناً به. منها: الخُباط (الصرع أو الزكام). ختر (استرخى وضعف من مرض أو شراب). خرِثت المرأة (ضخُمت خاصرتاها واسترخى لحمها).

وكان منها اثنا عشر مصدراً تدل معانيها على أصوات تتوافق مع صوت الخاء مخنخناً به حيناً، وغير مخنخن به حيناً آخر. هي: خرير الماء وخرخرته. خشرمت الضُّبُع (صوتت في أكلها). الخفخاف (الذي يخرج صوته من أنفه)،

خشخش الثوب الجديد (صوت إذا تحرك).

وكان منها تسعة مصادر لمشاعر إنسانية قد ورد ذكرها في جداول الأمراض والعيوب النفسية، وبذلك تبلغ نسبة المصادر التي تتوافق معانيها مع الخاء المخنخنة (60 %)، ومع الخاء غير المخنخنة (25 %)، بما مجموع النسبتين (85 %).

وكأني بالإنسان العربي قد خصص هذا الحرف لمعاني الرداءة والخسة والقذارة والبشاعة في بنيانه اللغوي الفخم الأنيق...

2- حرف الحاء:

في كيفية التلفظ بصوته:

حرف الحاء مهموس رخو، يحدث صوته باندفاع النّفَس بشيء من الشدة مع تضيِّقٍ قليل مرافق في مخرجه الحلْقي، فيحتك النفَس بأنسجة الحلْق الرقيقة، ويحدث صوت هو أشبه ما يكون بالحفيف.

وهكذا.. شذّ صوت هذا الحرف عن الحروف الحلْقية جميعاً، بأن تحولت اهتزازاته الصوتية الواهية المضمرة إلى حفيف وصحل. وإخراج صوت الحاء من على صفحات الأنسجة الحلْقية من دون اهتزاز أو اضطراب، يتطلب مهارة عفوية فائقة في التحكم بخلايا هذه الأنسجة الحساسة لمنع النفَس من الاهتزاز والاضطراب لحظة احتكاكه بها، فيخرج مع هذا التحكُّم الدقيق بما يشبه الحفيف؛ ولذلك يستحيل على غير السامي العربي أن يلفظ صوت الحاء لفظاً معافى. فهو إما أن يلفظه مشوباً بهاء مخففة، وإمّا بهمزة مفخمة، أو خاء صريحة. ولهذا السبب من الصعوبة الفائقة في النطق بصوته، لم تستطع الشعوب الأوروبية أن تأخذه عن الأبجدية الفينيقية خلال الألف الثانية قبل الميلاد... فضلا عن أن الشعوب الإسلامية الشرقية، لا تزال تلفظه في تلاوة القرآن الكريم مفخماً مجعجعا

به قليلاً، وكأنه يخرج من جوف الفم لا من جوف الحلْق.

في إيحاءاته ومعانيه:

يقول العلايلي عنه: إنه (للتماسك، وبالأخصّ في الخفيات، ويدل على المائية).

وهذا التعريف المبهم الذي استخلصه العلايلي من (النصوص المحفوظة)، أي من معاني الألفاظ التي يدخل في تراكيبها، يشير إلى عدم التزام العربي بالخصائص الصوتية لهذا الحرف بمعرض استخدامه في التعبير عن حاجاته ومعانيه...

ولكن ما هي المعاني التي يمكن استخلاصها من صدى صوت الحاء في النّفْس (بتسكين الفاء)...

إذا لفظ صوت الحاء مشدَّداً مفخماً عالي النبرة، أوحى صوته بالحرارة، وبأصوات فيها شيء من الحدّة، وبمشاعر إنسانية لا تخلو من الحدّة والانفعال.

أما إذا لفظ صوته كما نلفظه اليوم بحناجر حضارية رخوة مرققاً مرخَّماً، أوحى لنا بملمس حريري ناعم دافئ، وبطعم بين الحلاوة والحموضة، وبرائحة ذكية ناعمة، يطوف السمع فيه على مثال ما يطوف النظر في سفح معشب خَضِر تتلاعب بأزاهيره نسيمات الربيع. وهو حفيف النَفَس في أثناء خروج صوته من أعماق الحلْق، يرفد اللسان العربي بأعذب أصوات الدنيا قاطبة، وأوحاها بمشاعر الحب والحنين.

وهكذا كان الصوت الغِنائي الذي يتصف بخصائص صوت الحاء هو أغنى الأصوات عاطفة وأكثرها حرارة، وأقدرها على التعبير عن خلجات القلب ورعشاته. ليتحول مثل هذا الصوت مع البحّة الحائية في طبقاته العليا، إلى ذوب من الأحاسيس، وعُصارة من عواطف الحب والحنين والأشواق...

وهكذا، فإن العربي جعل من الحاء واحة عاطفية ظليلة لهذه المعاني من الرقة والشفافية والعذوبة وحكايات الحب والغزل... مقابل ما جعل من جاره

حرف الخاء سلة للنفايات، من معاني القذارة والبشاعة والعيوب الجسدية والعقلية والنفسية.

3- حرف الهاء

مهموس رخو، يشبه رسمه في السريانية شكل الهالة. يقول العلايلي عنه: إنه (للتلاشي). وهو تعريف مبهم.

ولقد اختلف علماء اللغة العربية في موقع مخرجه من الحلْق؛ فمعظمهم جعله في أوله داخلاً قبل أي حرف آخر، وقلة منهم كالخليل بن أحمد الفراهيدي وابن سينا والعلايلي، جعلته بعد حرفي العين والحاء، وهذا الاختلاف يرجع إلى كيفية التلفظ به. فمن أشبع صوته وزاد في توتره وارتفاع نبرته، يلاحِظ أن مخرجه الصوتي يقع فعلاً في أول الحلق، أما من خفَت بصوته ورقَّقه، فلا بد من أن يلاحِظ أن مخرجه يقع بعد حرفي العين والحاء.

وللفصل في هذا الاختلاف، لا بد من الرجوع إلى المعاجم اللغوية... فإذا غلب على معاني المصادر التي تبدأ بهذا الحرف طابع الشدة والفعالية والاهتزاز، بما يتوافق مع صوته مشبعاً مضغوطاً عليه، عالي النبرة، كان مخرجه في أول الحلق داخلاً، أما إذا غلب على معانيها طابع الضعف والرقة والوهن، بما يتوافق مع صوته مخفوتاً به مرققاً، كان مخرجه بعد حرفي العين والحاء، كما قال الفراهيدي.

ومن المفيد أن نعرف كيف اهتدى الإنسان العربي إلى وظيفة صوت هذا الحرف الذي لا شبيه له في الطبيعة.

إن صوت حرف الهاء باهتزازاته العميقة في باطن الحلق، يوحي أول ما يوحي بالاضطرابات النفسية. وإذاً، لا بد من أن يكون الإنسان العربي قد اهتدى إلى صوت هذا الحرف للتعبير عفوياً عن اضطراب نفسي معين قد أصابه، أو

أن يكون قد اقتبسه عن صوت إنسان كان اعتراه مثل هذا الاضطراب النفسي.

ولكن ما أكثر أنواع الاضطرابات النفسية! فأيها هو الذي يتوافق مع موحيات صوت الهاء؟

إن الإنسان المنفعل الذي يدخل في حالة يأس أو بؤس أو حزن أو ضياع ولو لعارض مفاجئ، لا بد له من أن تنقبض معها نفسه، فينعكس ذلك على جملته العصبية. وتبعاً لذلك، لا بد من أن ينقبض لها بدنه، بما في ذلك جوف الصدر وأنسجة الحلْق. وهكذا عندما ينطلق النَّفَسَ الهيجاني المشحون بمثل هذه الحالات النْفسية من جوف الصدر إلى مخرج الهاء في جوف الحلق ليتحول إلى صوت، لا بد له من أن يرتعش على شكل اهتزازات توحي بالحالة النفسية التي تعرَّض لها صاحب هذا الصوت.

وهكذا يبدو أن العربي قد اقتبس صوت الهاء من مادة هذا الصوت الهيجاني المضطرب المهزوز، للتعبير عن تلك الاضطرابات والانفعالات النفسية التي عاناها هو، أو عاناها غيره على مشهد منه ومسمع.

ولكن عندما تتأصّل تلك الحالات في نفْس صاحبها لأسباب عاطفية عميقة الجذور من فواجع موت أو حب، أو لظروف قاهرة من يأس دائم وأسى مقيم، وما إليها من دواعي البؤس المتحكِّمة في النْفس، لا بد لطبيعة الانقباض بالذات من أن تتحكم في جملته العصبية، ليصبح صوت مثل هذا الإنسان هائي الطبيعة والمخرج الصوتي معاً.

وهكذا فإن الأصوات الغنائية التي لها في الأصل خصائص الهاء المخفوت بصوتها، إنما هي أشجى الأصوات وأبلغها في التعبير عن مشاعر اليأس والبؤس والهجران....

ولكن هل تقتصر الايحاءات الصوتية للهاء على مشاعر الحزن واليأس والشجى، وما إليها، على مثال الأصوات الغنائية ذات الطابع الهائي؟

إن الايحاءات الصوتية للهاء تختلف بحسب كيفية النطق بها:

1- فإذا لفظ صوتها مشبعاً مشدداً عليه، أوحت الاهتزازات المتوتِّرة بالاضطراب والاهتزاز والسحق والقطع والكسر والتخريب، وبما يماثلها أيضاً من الأصوات شديدة التوتر العالية النبرة. وفي هذه الحال يكون مخرج صوت الهاء في أول الحلق داخلاً قبل أي حرف آخر.

2- وإذا لفظ صوت الهاء باهتزازات رخوة مضطربة، أوحى بمشاعر إنسانية من حزن ويأس وضياع وبما يحاكيها من الأصوات الرقيقة، ومخرجه في هذه الحال يكون بعد العين والحاء.

3- وإذا لفظ صوتها مخففاً مرققاً مطموس الاهتزازات، أوحى بأرق العواطف الإنسانية وأملكها للنفس، فيكون مخرجه أيضاً في أول الحلق، أقرب ما يكون من جوف الصدر.

4- أمَّا إذا لفظ صوتها بطريقة تهكمية (كوميدية) مخنخناً به، ولو بصورة مضمرة، كان أوحى أصوات الدنيا بالاضطرابات النفسية، وبما يُضحِك من مظاهر الخبل والهتر والتشوهات العقلية والجسدية، ويكون مخرجه بعد العين والحاء.

وهكذا يتحول صوت الهاء (المأسوي) أصلاً وطبيعة، إلى صوت (كوميدي) إن صح التعبير. ولا فارق بين الصوتين، إلا في كيفية النطق بهما، وقيد شعرة بين المخرجين، مخنخناً أو غير مخنخن. وما أكثر الخصائص الصوتية في حرف الهاء تنوعاً وتناقضاً!

فهل يرجع ذلك إلى خاصية الاهتزاز في صوت الهاء؟

إن صوت الزاي أشد اهتزازاً منه، ومع ذلك فإن معاني المصادر التي تبدأ بالزاي ظلت ملتزمة بما هو محسوس مادي من مظاهر الشدة والفعالية

والاضطرابات والأصوات الحادة، ولا شيء للمشاعر الإنسانية...

وفي الحقيقية، إن الفارق بين الموحيات الصوتية لحرفي (الزاي والهاء) يرجع إلى موقع المخرج الصوتي لكل منهما، وإلى طبيعة الأعضاء التي تحدثه.

فالاهتزازات الصوتية (للزاي) تحدث في آخر المدرج الصوتي، بعيداً من أي انفعال يعتمل في جوف الصدر. كما أن المخرج الأساسي لهذا الحرف يقع بين طرف اللسان... أما الاهتزازات الصوتية للهاء، فهي تحدث في الحلْق قريباً من جوف الصدر، ولذلك، فإن هذا الموقع الممتاز لمخرجها قد جعل اهتزازاتها الصوتية أكثر عرضة للتأثّر المباشر بمختلف الانفعالات. التي تجيش في الصدر، من حِدَّة وقساوة، أو حزن وأسى، أو تهكم وسخرية، أو رقة وشفافية.

ناهيك عن أن الرقة المتناهية في أنسجة مخرجه في الحلق، قد جعلته أكثر طواعية لإرادة الناطق به وأسلس قياداً، فمنحت صوته المهتز قدرة فائقة على التكيف مع الحالات النفسية والمشاعر الإنسانية التي تعتمل في نفس صاحبها، ومع مختلف المعاني المعبَّر عنها.

4-حرف العين

حرف العين أعسر أصوات الحروف العربية نطقا، فهو يتشكل عبر مراحل ثلاث:

1- يتضيق أول الحلق من الداخل على شكل حلقة مجوفة ملساء الجوانب.

2- يندفع النفس من جوف الصدر، فيحتك بفوهة الحلق ويتوزع إلى ذبذبات هوائية.

3- تتكيف فوهة الحلق مع هذه الذبذبات لتجميعها في محراق الفوهة، فتتحول إلى صوت صاف نقي ناصع، لا اهتزاز فيه ولا اضطراب ولا صحل ولا رخاوة.

فصوت العين يتشكل في جوف الحلق وليس على صفحات غشائه... على مثال ما يتشكل صوت الصفير خارج الفم وليس على صفحات الشفتين.

فبعد ضم الشفتين في حلقه مضيقة، واحتكاك النفس المضغوط بحافاتها الملساء، يتحول إلى ذبذبات هوائية تتجمع في بؤرة هذه الحلقة خارج الفم في صورة صوتية صافية نقية من الصفير... ليكون الصفير بذلك من الشفتين كصوت (العين) من الحلْق. ما يصح معه أن نقول: إن صوت (العين) هو صفير الحلق، وإن الصفير هو (عين) الشفتين.

وهكذا، إذا كان التحكم بصفحات أنسجة الحلق لإحداث صوت الحاء مصحولا به يتطلب كثيراً من المهارة، فإنه لا بد من مهارة معجزة (لتحويل) فوهة الحلق إلى عدسة صوتية ملساء، تتمركز في بوتقتها ذبذبات النفَس في صوت متوهج ناصع اللمعان، على مثال ما تفعل العدسات الضوئية بأشعة الشمس.

ولذلك يتعذر على غير أبناء اللغات السامية (العروبية) التلفظ بصوت العين إلا بكثير من التشويه بمن فيهم أبناء اللغة الفارسية، على الرغم من وجود حرف خاص في لغتهم لصوت (العين).

وهكذا يبدو أنه كان أولى بالعربي أن ينسب لغته لحرف (العين)، من أن ينسبها لحرف (الضاد).

فلئن كان في (الضاد) فخامة قد أرضت كِبرِياء المتنبي في موقف فخار شعري، ولاقت هذه الدعوى من بعده هوى في نفوس الشعراء والأدباء، فإن في "العين مزايا قد تفردت بها عن سائر الحروف، ما يجعلها أولى وأجدر بهذا المقام الثقافي الرفيع".

فصوت (العين) وإن كان خاتم أصوات الحروف العربية، فإنه يتقدمها جميعاً في مخرجه الصوتي.

وإذا كان صوت العين يقصر شيئاً ما عن الضاد في مضمار الفخامة، فإنه أشد من صوتها نصاعة وصفاء ونقاء ومرونة، وهو لا يزال معجزة اللغات العروبية، لا يتقن النطق به إلا أبناؤها ومن تربوا بينهم من الشعوب والأمم.

في نشأته التاريخية:

هذا الحرف هو من نتاج المرحلة الرعوية... ولئن كانت هذه المرحلة قد أنجبت عدداً من أصوات الحروف العربية تلبية لحاجاتها الثقافية المتطورة من معاني السمو والفخامة والصفاء ومختلف المشاعر الإنسانية، فمن المرجح أن حرف العين كان آخر ما أبدعه الإنسان العربي في هذه المرحلة من أصوات الحروف.

فقضية إبداع الأصوات كانت على مر الزمن قضية سيطرة الإنسان على جهاز نطقه، تدرجاً في ذلك من آخر المدرج الصوتي عند الشفتين بالباء والميم وانتهاء بالعين في أول الحلق.

فعلى مقدار ما كان الإنسان يتدرج في المضمار الحضاري، كان مضطراً لإبداع المزيد من أصوات الحروف للتعبير عن مختلف المعاني المستجدة؛ ولذلك كان الإنسان عبر مراحل التاريخ يجهد للسيطرة أكثر فأكثر على جهاز نطقه لاستخدام المزيد من مساحة مدرجه الصوتي في إبداع أصوات حروف متنوعة الإيحاءات الصوتية والمعاني.

ولما كان النطق بصوت العين هو أعسر ما يكون النطق به من أصوات الحروف العربية جميعاً، فمن البداهة أن يتأخر رعاة الجزيرة العربية في إبداعه، إلى أن يتم لهم ترويض كامل مساحة الجوف الحلقي، وإخضاع عضلات أنسجته لإرادتهم.

وهكذا بلغ الإنسان العربي قمة السيطرة على جهاز النطق بإبداع صوت العين في أول الحلق من الداخل، معجزة الشعوب العروبية أي (الساميّة) في النطق، وفي خصائص صوته ومعانيها.

في الخصائص الصوتية المميزة لحرف العين:

صوت هذا الحرف متوسط الشدة. يشبه شكله في السريانية صورة العين. يقول عنه العلايلي: إنه "لخلو الباطن والخلو مطلقاً". وهو تعريف مبهم.

إن صوت هذا الحرف هو نقيض صوت حرف الغين؛ فصوت الغين يتشكل بتقبُّض مخرجه في الحلق بشيء من التشنُّج، ثم بتوزع النفَس بفعل هذا التقبض، في دغدغة يوحي معها بغرغرة الموت والظلام والغؤور،

أما صوت العين، فهو يتشكل بتضيُّق مخرجه في أول الحلْق على شكل حلقة ملساء، ومن ثم بتجميع ذبذبات النفَس في بؤرة هذه الحلقة. وهكذا لا بد لصوته النقي الناصع من أن يوحي بالفعالية والإشراق والظهور والسمو، على العكس ما يوحيه صوت الغين المخرب المحكوك.

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس بمعرض تحليل صوت العين: إنه "من حيث انعدام حفيفه، أقرب من الميم والنون واللام، ومن حروف اللين: "الألف والواو والياء". (الأصوات اللغوية ص88).

وهذا الصوت من حيث صفاؤه ونقاؤه يمت بقرابة مماثلة إلى حرف الصاد، ومن حيث فخامته، فهو غير بعيد في قرابته عن حرف الضاد. أما من حيث توتره الصوتي، فهو ألصق طبيعة بحرف الزاي شدة وفعالية....ليبدو صوت العين بذلك وكأنه مزيج من خصائص أصوات هذه الحروف كلها. من متانة اللام وتماسكه، وصفاء الصاد وصقله، ونقاء النون وأناقته، ومن فخامة الضاد، وفعالية الزاي، ومرونة الألف والواو والياء.

وهكذا كان حرف العين أكثر الحروف أرستقراطية، قد جمع إلى نفسه خلاصة ما في خيار أصوات الحروف العربية من خصائص ومعان. وذلك على مثال ما في معدن الذهب من الأرستقراطية. له من الفضة أنصع ما فيها من صفاء وصقل ورنين، وله من النحاس أنقى ما فيه من صفرة، لا يجاريه في ثقله النوعي معدن، وهو إذا ما رقق في أسلاك، كان في ليونته ومرونته كخيط من حرير.

على أن هذه المادة الصوتية النبيلة في حرف العين، بدل أن يخصصها العرب الرعاة للتعبير عما أبدعت له من معاني السمو والصفاء والعزة، فإنها

لعلة مرونتها وقابليتها للتكيف، قد أساؤوا استخدامها في كثير من معاني الغلظة والفجاجة والعيوب الجسدية والنفسية. وذلك على مثال ما وقع لمعدن الذهب. فبدل أن يخصص لصناعة أدوات الزينة والحلي، فإنه لعلَّة مرونته وقابليته للتداول ونفاسته، قد أسيء استخدامه في أعمال الغواية والخداع وشراء الضمائر على مدى التاريخ.

ولكن الصوت الغنائي ذا الطابع العيني، سيان كان صاحبه رجلاً أم امرأة، ظل على مر الزمن أصلح الأصوات قاطبة للتعبير عن مختلف المشاعر الإنسانية، من حب وحنين وخشوع ونخوة وسمو وعزة نفس، بحرارة وصدق أصوات الحروف المختصة أصلاً بهذه المشاعر؛ نظرا إلى ما يتمتع به هذا الصوت الذهبي المرنان، من مرونة وعذوبة وصفاء ونقاء وفخامة...

وحرف العين في تعامله مع الحروف، إما أن يشدّها إلى تحقيق خصائصه الذاتية، من الفعالية والقوة والصفاء والفخامة والسمو، وإما أن ينساق معها للتعبير عن مختلف خصائصها الحسية والشعورية، وإن تناقضت أصلاً مع خصائصه. ولكن ليضفي على معاني الألفاظ التي يشارك في تراكيبها في الأعم الأغلب، كثيراً من الفعالية والعيانية والظهور.

فالعشق هو الظاهر من الحب الخفي.

والعذاب هو الظاهر من الألم الدفين.

والعبودية هي الظاهر من الطاعة والتبعية.

والعداوة هي الظاهر من الحقد الدفين.

الحروف اللمسية:

هي أبسط الحروف العربية وأقلها تعقيداً....وهي :

التاء-الثاء-الذال-الدال -الكاف-الميم.

ا-حرف التاء

مهموس انفجاري شديد. يقول عنه العلايلي: إنه (للاضطراب في الطبيعة الملامس لها بلا شدة).. ويقول عنه ابن سينا: (إن صوته يسمع عن قرع الكف بالإصبع قرعاً بقوة).

وعلى الرغم مما أسند إلى هذا الحرف من الشدة والانفجار وما وصف بالقرع بقوة، فإن صوته المتماسك المرن يوحي بملمس بين الطراوة والليونة، كأنّ الأنامل تجسّ وسادة من قطن. أو كأنّ القدم الحافية تطأ أرضاً من الرمل الجاف... ونظراً إلى لفارق الصوتي بين موحيات (التاء والثاء) قالوا: التراب (للجاف)، والثرى (للتراب) الندي.

وهكذا صنفت حرف (التاء) في زمرة الحروف اللمسية، لأن صوته يوحي فعلاً بإحساس لمسي مزيج من الطراوة والليونة ، ولأنه لا يوحي بأي إحساس آخر أو بأية مشاعر إنسانية . وهذا يتفق مع قول العلايلي من حيث حصر اختصاصه بملامس الطبيعة بلا شدّة.

2-الثاء.

مهموسة رخوة. يقول عنها العلايلي: إنها (للتعلق بالشيء حسياً ومعنوياً)... ويرى الدكتور أنيس أنه (لا فرق بين صوتي (الثاء والذال)، إلا الهمس بالثاء والجهر بالذال، وذلك لتقاربهما في المخرج بين طرف اللسان واللثة.

وفي الحقيقة أن هناك تناقضاً كلياً في طبيعة صوتيهما. فالنّفَس مع الثاء الملثوغة، يخرج بشيء من البعثرة، فيسمع له حفيف طري ، بينما يخرج النفَس مع الذال الملثوغة بعد مخرج الثاء مباشرة بذبذبة صوتية عالية. ولذلك كانت ايحاءات صوتيهما في منتهى التناقض.

فالرقة والليونة والملمس الدافئ الوثير في صوت الثاء.... والخشونة والحرارة والفعالية في صوت الذال.

وهكذا فإن تقارب الحروف في مخارجها لا يمنحها تقارباً مماثلاً في ايحاءاتها الصوتية ولا في معانيها. فالحرف الشقيق إذا حلّ محل شقيقه في لفظة ما، لا تظل اللفظة على معنى مقارب لمعناها قبل الإبدال، وإنما قد يؤدي ذلك إلى التناقض في معانيهما أحياناً كثيرة، كما في حرفي الثاء والذال، وأحرف الخاء والحاء، والباء والميم، والصاد والسين... فالثاء، إنما هي تأنيق للسين الرقيقة، وتأنيث لتاء التأنيث. وكأني بالعربي لم يبدع صوت هذا الحرف إلا خصيصاً للأنثى، ليميزها بالثاء حتى من النساء أنفسهن، إيفاء لحقها من الرقة والدماثة والإحاطة واللين. فما كل امرأة تتوافر فيها خصائص الأنوثة وإن كانت أنثى. فلفظة الأنثى إنما هي ألصق بالجنس من لفظة المرأة. قد قصّرت أنوثة الأشياء والكائنات الحية عن أنوثة الجنس في حرف الثاء، فأُنّثَتْ بتاء التأنيث. تفيض الثاء عليها من خلف هذا الحجاب الشفاف طيف رقة وعاطفة وأنوثة. لتستقل الثاء وحدها بعرش الأنوثة في لفظة الأنثى، ضمّاً للنون الأنيسة إلى الثاء الأنثوية، لا أمسّ بالنفس حسّاً، ولا أوقع في السمع جرساً.

3- حرف الذال:

مجهور رخو، معناه لغة (عرف الديك)، يقول عنه العلايلي : إنه (للتفرد).... وإذا كانت خصائص الأنوثة قد تجمعت كلها في (الثاء)، رقة ودماثة وحشمة، فقد تركزت في (الذال) كل الذكورة، توتر صوت، وخشونة ملمس، وشدة ظهور.

وهكذا تتجاور الذكورة والأنوثة في اللسان العربي مخرج صوت، ويتماثلان في طريقة النطق بهما على ما في صوتيهما من التناقض في الخصائص، على مثال ما بين الذكورة والأنوثة، رفقة عمر وتناقض خصائص.

فإذا كانت (الثاء) تدغدغ طرف اللسان بكثير من المرونة والدماثة، فتوحي بطعم الدسم والملمس الدافئ الوثير، فإنّ الذال ألذع مذاقاً وأكوى حرارة وأوخذ

ملمساً وأشد توتراً، ليشف بذلك صوت كل حرف منهما عن خصائص الجنس الذي يمثله. وهكذا تتراءى مفاهيم الجنس في الذكورة والأنوثة كأحاسيس لمسية خلف أستار شفافة من صوتي هذين الحرفين...

4- حرف الدال

مجهور شديد، يشبه شكله في السريانية صورة الدلو. يقول عنه العلايلي: إنه (للتصلب والتغير المتوزع). التصلب صحيح، أما التغير المتوزع فهو مبهم، ويتعارض مع التصلب.

ولكن صوت الدال أصمّ أعمى مغلق على نفسه كالهرم ، لا يوحي إلا بالأحاسيس اللمسية وبخاصة ما يدل على الصلابة والقساوة، وكأنه من حجر الصوان. فليس في صوت (الدال) أي إيحاء بإحساس ذوقي أو شمي أو بصري أو سمعي أو شعوري، ليكون بذلك أصلح الحروف للتعبير عن معاني الشدة والفعالية الماديتين.

5-حرف الكاف:

مهموس شديد، هو عند العلايلي والأرسوزي (للاحتكاك)، وهذا واحد من معانيه. هذا الحرف، إذا لفظ صوته ممطوطاً مخفوتاً به قليلاً ومضغوطاً عليه بعض الشيء، يحاكي صوت احتكاك الخشب بالخشب. ولعل العربي قد اقتبسه عفو الفطرة من هذا الحدث لإشعال النار بهذه الطريقة البدائية. وصوته في هذه الحال يوحي بشيء من الخشونة والحرارة والقوة والفعالية، ما يؤهله الانتماء إلى حاسة اللمس. أما إذا لفظ بصوت عالي النبرة وبشيء من التفخيم والتجويف، فإنه يوحي بالضخامة والامتلاء والتجميع، ما يؤهله للانتماء إلى زمرة الحروف البصرية.

6- حرف الميم:

مجهور، متوسط الشدة أو الرخاوة. شكله في السريانية يشبه المطر، وهو عند العلايلي (للانجماع)، وهذا واحد من معانيه.

يحصل صوت هذا الحرف بانطباق الشفتين على بعضهما بعضا في ضمة متأنية، وانفتاحهما عند خروج النفَس. ولذلك فإن صوته يوحي بذات الاحاسيس اللمسية التي تعانيها الشفتان لدى انطباقهما على بعضهما بعضا، من الليونة والمرونة والتماسك مع شيء من الحرارة.

وهكذا صنّفت هذا الحرف بادئ الأمر في زمرة الحروف الايحائية. ومطابقة خصائصه الصوتية على معاني المصادر التي تبدأ أو تنتهي به، تبين أنه يكاد يكون معدوم الشخصية...

فانطباق الشفة على الشفة مع حرف الميم يماثل الأحداث الطبيعية التي يتم فيها السدّ والانغلاق... فضلا عن أن ضم الشفة على الشفة بشيء من الشدة والتأني قبيل خروج صوت الميم، يمثّل بداية الأحداث التي يتم فيها المص بالشفتين والجمع والضم. أما انفراج الشفتين في أثناء خروج صوت الميم، فهو يمثل الأحداث التي يتم فيها التوسع والامتداد.

وهكذا فإن خصائص صوت هذا الحرف موزعة بين اللمسي الإيحائي والبصري الإيمائي، مع ملاحظة وجود التناقض بين الانغلاق والانفتاح في خصائصه الإيمائية.

الحاسة الذوقية وحرفاها

الحاسة الذوقية:

إذا كان التنبيه اللمسي ميكانيكياً، فالتنبيه الذوقي كيميائي كالتنبيه الشمي. الكيفيات الذوقية الرئيسة أربع هي: الحامض والمالح والحلو والمر. ولكل كيفية منها حليمات ذوقية خاصة منتشرة بطريقة منظمة على غشاء اللسان. فطرف اللسان يجيد الإحساس بالحامض، وهو ضعيف الإحساس بالمالح والحلو، ومعدومه بالمر. وجوانب اللسان تجيد الإحساس بالحلو والحامض والمالح. والإحساس بالمر هو أقوى ما يكون في مؤخرة اللسان. أما المنطقة الوسطى من اللسان فالإحساس الذوقي معدوم فيها.

وغشاء اللسان يحسّ بالتّماس والضغط والحرارة والبرودة . وتمتزج هذه الإحساسات بالإحساسات الذوقية فينشأ عنها كيفيات مركبة كالحار والبارد والحريف والحامز والعفص والقابض والمعدني.

الحرفان الذوقيان هما: اللام والراء.

1- حرف اللام

مجهور متوسط الشدة. شكله في السريانية يشبه اللجام. يقول عنه العلايلي: إنه (للانطباع بالشيء بعد تكلفة)... وصوت هذا الحرف يوحي بمزيج من الليونة والمرونة والتماسك والالتصاق. وهذه الخصائص الإيحائية لمسية صرفة. ولكن

يلاحظ أن صوت هذا الحرف يتشكل على مرحلتين اثنتين:

الأولى: بالتصاق اللسان بأول سقف الحنك قريباً من اللثة العليا حبساً للنفَس.

والثانية: بانفكاك اللسان عن سقف الحنك، وانفلات النفَس خارج الفم.

وهكذا فإن طريقة النطق بصوت (اللام) تماثل الأحداث التي يتم فيها الالتصاق، ما يجيز تصنيفها في فئة الحروف الإيمائية التمثيلية، وهي هنا لمسية.

وطريقة النطق بصوت (اللام) تماثل الأحداث التي تتم فيها الاستعانة باللسان في عمليات اللوك والمضغ واللحس وما إليها، ما جعلها ألصق ما يكون بالذوقيات، فصنفت حرفاً ذوقياً.

2- حرف الراء:

مجهور متوسط الشدة والرخاوة. شكله في السريانية يشبه الرأس . قال عنه العلايلي: إنه (يدل على الملكة وعلى شيوع الوصف)..

ولئن كان بعض أصوات الحروف العربية يماثل عظام الإنسان في قساوتها، وبعضها يماثل عضلاته في قوتها ومرونتها، وبعضها الآخر يماثل لحمه في ليونته وطراوته، و غيرها يماثل أعصابه في حساسيتها ورهافتها وما إلى ذلك من وظائف أعضاء البدن وخصائص الحروف، فإن صوت حرف الراء من أصوات الحروف هو أشبه ما يكون بالمفاصل من الجسد.

وانطلاقاً من خاصية التمفصل هذه في صوت (الراء) وفي مفاصل الجسد، قد ادخل العربي هذا الحرف في معظم الأعضاء التي تتصل بغيرها بمفاصل غضروفية. منها: الرأس . الرقبة . المِرفق . الركبة . الرضفة . الرِّجل. الرسغ. الوِرك. الورّ (الورك) . الفقرة. ويلحق بها الأعضاء التي تتوافق معها في ظاهرة التحرك؛ هي:

الخصر (لتأوده وتثنيه) . الرئة (كعضو للتنفس). الصدر (لظاهرة تحركه أثناء

الشهيق والزفير، صعوداً وهبوطاً). الشَّعر (لظاهرة نوسانه مع الانسام أو حركة الجسم). البصر والنظر (لتنقلهما المستمر بين المرئيات).

وفي الحقيقة، إن حاجة اللغة العربية إلى حرف الراء لا تقل عن حاجة الجسد للمفاصل. فلولا صوت الراء لفقدت لغتنا الكثير من مرونتها وحيوتها وقدرتها الحركية، ولفقدت بالتالي الكثير من رشاقتها، ومن مقومات ذوقها الأدبي الرفيع.

فكما أن مفاصل الجسد تساعد أعضاءه على التحرك بمرونة في كل الاتجاهات، وعلى تكرار الحركة المرّة بعد المرّة ، فإن حرف الراء بتمفصل صوته (ر. ر. را) ، وبرشاقة طرف اللسان في أدائه، قد قدَّم للعربي الصور الصوتية المماثلة للصور المرئية التي فيها ترجيع وتكرار، وتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، وذلك "حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"، كما قال ابن جني...

ولعل الفرنسيين قد انتبهوا إلى وظيفة حرف الراء في الترجيع والتكرار، فجعلوا مقطع (ر و) - RE)، الملحق في أول الأفعال ، للعودة والتكرار. ولكنهم لم يدخلوه في صلب اللفظة الفرنسية للقيام بهذه المهمة ، كما فعل العربي إلا نادراً . ولعلّهم قد انتبهوا إلى هذا النقص الأساسي في لغتهم في مرحلة راقية من مراحل تطورها، فابتدعوا هذا المقطع، وذلك على مثال ما ابتدعوا مقطع (ان-IN) للصميمية والبطون، ليؤدي وظيفة حرف (النون) في اللغة العربية...

الحاسة البصرية وحروفها

الحاسة البصرية:

آلتها العين، وهي مكونة من عدسة بلورية ونسيج عصبي حساس، هو الشبكة، ولئن كانت ظاهرة الإبصار تنطبق عليها قوانين الانعكاس الفيزيائية ، فإنه ثبت مؤخراً أن عملية الإبصار هي عملية كيميائية بحتة تحصل في طبقات العين.

تدرك العين أشكال الأشياء وخصائصها الهندسية من عمق وبروز وأبعاد، ولا تتأثر العين البشرية إلا بالموجات الضوئية التي يتراوح طولها بين 390 - 670 ميلليميكرون، وعدد ذبذباتها بين (395و756) تريليون ذبذبة في الثانية.

الحروف البصرية :

الألف . الواو. الياء. الباء . الجيم . السين . الشين. الطاء. الظاء. الغين الفاء.

يلاحظ أن حروف اللين الثلاثة (الألف . الواو . الياء) ، هي جميعاً من زمرة الحروف البصرية، والعربي لم يعط هذه الحروف الغابية إلا القليل من الأهمية، من حيث عدم عنايته بالتلفظ بها، لتكون بذلك أقلَّ وضوحاً في الجرْس وظهوراً في السمع من أصوات الحروف الساكنة.

ولقد استتبع ذلك إهمال رسمها في الأشكال القديمة للكتابة العربية، كشأنها في بقية اللغات السامية. كما عمل العربي على إماتة هذه الحروف في ألفاظه... بتحويلها إلى حركات مدّية تارة، وبالاستعاضة عنها بحروف صامتة تارات أخر، ولاسيما بالهمزة والحروف الحلقية، على ما أكده العلايلي في مقدمته.

1- الألف المهموزة:

للألف صورتان صوتيتان : الألف المهموزة ، والألف اللينة.

فالألف إذا وقعت في أول اللفظة كانت مهموزة ، وتسمى الهمزة.

أ- الهمزة / يقول عنها العلايلي: "إنها للدلالة على الجوفية، وعلى ما هو وعاء للمعنى، وعلى الصفة تصير طبعاً"..

هي حرف شديد يحصل صوتها بانطباق فتحة المزمار وانفراجه الفجائي قبل ان يصل النفَس إلى الحنجرة. فلذلك لا يهتز معه الوتران الصوتيان، ولا تعد بالتالي حرفا مجهوراً ولا مهموساً. والهمزة في رأي الدكتور ابراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية، ليست من الأحرف الحلقية خلافاً لما أجمع عليه علماء اللغة العربية. وهو رأي جدير بالاعتبار.

وصوت الهمزة في أول اللفظة يضاهي نتوءاً في الطبيعة.. وهو يأخذ في هذا الموقع صورة البروز كمن يقف فوق مكان مرتفع ، فيلفت الانتباه كهاء التنبيه. ولكن بفرق أنَّ الهاء شعورية والهمزة بصرية . والصورة البصرية تتصف بالحضور والوضوح والعيانية.

لذلك بدأت الضمائر المنفصلة للمتكلم والمخاطب بالهمزة : (أنا. أنت. أنتم. أنتن..) لأنها أشدَّ حضوراً... وتبدأ الضمائر المنفصلة للغائب بالهاء: (:هو. هما. هم) لعدم الحضور.

وبدأت الألوان الطبيعية بالهمزة: أبيض. أسود. أحمر. أخضر.... لا أوضح ألوانا ولا أظهر. فلا يقال أسود قليلا، أو أبيض كثيرا لعدم اللزوم، إذ إن الذي يتحمل القلة والكثرة هو اللون ذاته ، فيقال قليل السواد أو البياض وكثيرهما.

وجُعلت الهمزة من حروف التعدية، إذ إنها تمنح الفعل اللازم (القاصر أصلا) مرتقى يسهل معه التعدي على الأسماء. فمن كَرُمَ الرجل أكرمه ، ومن عُلِم وصَلُح أعلمه وأصلحه.

وقد تحيل الهمزة المعنى إلى نقيضه أحياناً، كما في:
مرس حبلُ البكرة (خرج عن البكرة) . وأمرس حبل البكرة (أعاده إلى البكرة) وكما في شعب الشيء (تفرق) وأشعب الشيء (أصلح صدعه) وذلك كثيرٌ في اللغة العربية.

أما الهمزة في وسط الكلمة أو في آخرها، فلا تأثير لها يذكر في معانيها وإن ظلَّت توحي للسامع بالبروز والنتوء كما في (سأل. جأر. يدأب. يسأم. ذئب. بؤبؤ).

2- الألف اللينة

لينة جوفية معناها في السامية القديمة (الثور، وشكلها يشبه صورة رأسه. الأصوات اللغوية للدكتور أنيس ص 94). أما رسمها في السريانية فيشبه صورة الإنسان (المجلد الأول للأرسوزي ص 371).

وقيل في الألف المهموزة إنها الحرف الأول من اسم النبي العربي (إدريس)، قد وضعت في أول كل من جدولي الحروف الهجائية والأبجدية... تكريماً له، وإشارة إلى أنه هو أول من نقل الحروف العربية من مجرد أصوات إلى حروف مكتوبة... فكان هذا النبي العربي بذلك إذا صحت هذه الرواية، هو المعلم العربي الأول الذي علَّم العرب فن الكتابة...

إن الألف اللينة التي تقع في أواسط المصادر أو أواخرها، يقتصر تأثيرها في معانيها على إضفاء خاصية الامتداد عليها في المكان أو الزمان . كما في (باب- سماء- كافة- إلى - على....).

على أن للألف اللينة كل الأهمية في معاني حروف المعاني...

3- الواو:

لينة جوفية هي (للفعالية) كما يقول الارسوزي، و(للانفعال المؤثر في الظواهر)

كما يقول العلايلي. وهذان التعريفان قريبان من الواقع. و صوت الواو الحاصل من تدافع الهواء في الفم يوحي بالبعد إلى الأمام .

4- الياء:

لينة جوفية، يشبه شكلها في السريانية صورة اليد. يقول عنها العلايلي: إنها (للانفعال المؤثر في البواطن). صوت هذا الحرف يوحي بصور بصرية تختلف إلى حدٍّ ما بحسب مواقعه من اللفظة...

5- حرف الباء:

مجهور شديد. يشبه شكله في السريانية صورة البيت. يقول عنه العلايلي: إنه (لبلوغ المعنى، وللقوام الصلب بالتفعل). ويقول عنه الأرسوزي: إنه (يوحي بالانبثاق والظهور)..

وعلى الرغم من بساطة صوت هذا الحرف، فهو متعدد الوظائف والخصائص الصوتية، بعضها إيمائي تمثيليّ ، وبعضها الآخر إيحائي.

فإذا لفظ هذا الحرف منفرداً ممدود الصوت (با) كما كان يلفظ في مرحلة أصوات الحروف، لم نجد ما هو أصلح منه لتمثيل الأشياء والأحداث التي تنطوي معانيها على الاتساع والضخامة والارتفاع ، بما يحاكي واقعه انفتاح الفم على مداه عند خروج صوته من بين الشفتين (باب)، (وظيفة تمثيلية).

وإذا لفظ في مقدمة اللفظة دونما مدّ، فبحكم خروج صوته من انفراج الشفتين بعد انطباقهما على بعضها بعضا، هو أصلح ما يكون لتمثيل الأحداث التي تنطوي معانيها على الانبثاق والظهور والسيلان، بما يحاكي واقعة انبثاق صوته من بين الشفتين إيماءً وتمثيلاً، وليس من الصميم كالنون إيحاء.

ولكن بحكم انفجاره الصوتي بانفراج الشفتين سريعاً بعد ضمَّة شديدة، فهو

أوحى ما يكون بمعاني البعج والحفر، والقطع والشق، والتحطيم والتبديد، والمفاجأة والشِّدة، وذلك (حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث)، (وظيفة إيحائية).

6- حرف الجيم:

مجهور. معناه في اللغة العربية (الجمل الهائج). يشبه رسمه في السريانية صورة الجمل. قال عنه العلايلي: إنه (للعظم مطلقا). يعده الدكتور كمال محمد بشير من الأصوات المركبة انفجاري - احتكاكي).

وقبل أن نتحدث عن إيحاءاته الحسية ، يجدر بنا أن نقطع أولاً في قضية النطق به، معطشاً على الطريقة الشامية، أو غير معطش على الطريقة القاهرية ، لعلاقة هذه المسألة بإيحاءاته الصوتية ، وبالتالي بشخصيته ومدى تأثيره في معاني الألفاظ التي يشارك.فيها.

لقد أفرد الدكتور أنيس لهذه المشكلة بحثاً خاصا في كتابه (الأصوات اللغوية ص77-83)، وأفرد له الدكتور كمال محمد بشير بحثاً خاصا في كتابه (علم اللغة- الأصوات ص160 - 166).

وعلى الرغم من أن الدكتور أنيس يرجِّح مسبقا بأن الجيم التي يسمعها من مجيدي القراءة القرآنية، هي أقرب إلى الجيم الأصلية (ص77)، أي إنها شامية معطشة بصورة ما من صور التعطش. فإنه يعود فيشكك في ذلك، لنقاش كان جرى بينه وبين أستاذ الأصوات في جامعة لندن (البروفيسور فرث) حول هذه المشكلة.

فلقد أعلمه هذا الأستاذ أن هناك قاعدة صوتية مسلَّماً بها في اللغات الأوروبية تدعى (بقانون الصوت الحنكي)، تقرر: بأن الإنسان يميل بالفطرة عبر تطوره الحضاري إلى تسهيل النطق بالحروف الصعبة. ولذلك فان هذا الأستاذ يستطيع

أن يفسر تطور الجيم من عدم التعطيش القاهرية إلى التعطيش الشامية، أما العكس فلا. بمعنى أن الجيم القاهرية الأعسر نطقاً هي الأصل، وقد تطورت إلى الجيم الشامية الأسهل نطقاً.

وبما أن مخرج صوت الجيم القاهرية هو الأبعد عن الشفتين، فقد حاول الدكتور أنيس إقامة الدليل على أنه زحزح إلى الأمام باتجاه الشفتين فتحول إلى الجيم الشامية المحدثة، وقد لاحظ في كتاب (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن) أن الجيم قد حرِّكت بالفتحة والكسرة وهما أماميتان (1264) مرة، لتتحرك بالضم وهي خلفية (102) مرة فقط.

وهكذا فان كثرة تحريك الجيم بحركات أمامية قد جذبت مخرجها من الخلف إلى الأمام، أي من عدم التعطيش إلى التعطيش.

أما الدكتور (بشير)، فهو يقرّ مبدئياً بأن الجيم الشامية المعطشة هي الجيم الفصيحة المعاصرة ، إلاَّ أنه يذهب مذهب الدكتور أنيس في د الجيم القاهرية هي الأصل. ولقد استشهد بما جاء به الدكتور (اتوليتمان) حيث يقول: (نعرف أن نطق هذا الحرف الأصلي كان جيما قاهريا، ، وكما كان ويكون في اللغات السامية الباقيه. مثلاً كلمة (جمل) العبرية (GAMOL). وفي السريانية (GAMALA) وفي الحبشية (جومال) (GOMAL) (ص162 - 163). بدعوى أن هذه اللغات هي أقدم في الزمن من اللغة العربية. وهذا عكس ما تبيّن لي في الحرف العربي ص (52) وما بعدها.

ثم يقرر الدكتور بشير أن الجيم القاهرية قد تطورت إلى (دج) في نطق قريش. ولكنه يعترف كزميله الدكتور أنيس، بأن علماء العربية وإن وصفوا الجيم الأصلية بما ينطبق على الجيم القاهرية، فإنهم نسبوها إلى المنطقة التي تخرج منها (الشين والياء) ، وهي (بين وسط اللسان، ووسط الحنك الأعلى). وهذه المنطقة في رأيه هي للجيم القرشية (دج)

ونحن لو رجعنا من عالم التخمين والفرضيات إلى واقع الإيحاءات الصوتية لحرف الجيم بمعرض تأثيره في معاني الألفاظ التي يتصدرها، لعرفنا كيف نطق به مبدعوه الأوائل، معطشاً شامياً أو غير معطش قاهريا. ولا عبرة بما يلفظ في (الساميات) لأن العربية هي الأصل.

فإذا وجدناهم قد استخدموه للتعبير عن المعاني التي يوحي بها صوت الجيم معطشاً، فإنهم بلا شك، قد لفظوه معطشاً طوال مرحلة إبداع تلك الألفاظ، وإلا فيكونون قد لفظوه قاهريا غير معطش؛ وذلك:(حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث).

آ- الجيم المعطشة:

نظرا إلى شدة تدافع النفس في أثناء خروج الجيم الشامية، وما يحدثه من ارتجاج في مساحة واسعة من سقف الحنك، كان لا بد من أن تتنوع إيحاءاته الصوتية.

فالجيم الشامية المعطشة، توحي بالشدة والقوة والدفء والمتانة كأحاسيس لمسية، وبطعم الدسم ورائحته كأحاسيس ذوقية وشمية. أما إيحاءاتها البصرية فهي تتردد بين الفخامة والعظم والامتلاء. لتقتصر إيحاءاتها السمعية على شيء من الفجاجة ، وهي لا توحي بأية مشاعر إنسانية أصلاً.

ب- الجيم القاهرية:

صوتها الانفجاري يوحي بالقساوة والصلابة والحرارة والخشونة كأحاسيس لمسية، وبما يدل على أصوات مزيجة من الحدَّة والانفجار كأحاسيس سمعية، ولا إيحاءات أخرى في صوتها ، حسيةً أو شعوريةً.

فلو أن العربي قد أبدع الجيم قاهرية غير معطشة كما يقول الدكتوران أنيس

وبشير، إذاً لكانت ندرت بصورة خاصة المعاني الدالة على العظم والفخامة والضخامة والارتفاع والفجاجة في الألفاظ التي يتصدرها.

7- حرف السين:

مهموس رخو، يشبه رسمه في السريانية صورة السن. يقول عنه العلايلي: إنه (للسَّعة والبسط بلا تخصص). وقال الأرسوزي عنه: إنه للحركة والطلب...

حرف السين هو أحد الحروف الصفيرية، صوته المتماسك النقي يوحي بإحساس لمسيٍّ بين النعومة والملاسة، وبإحساس بصري من الانزلاق والامتداد، وبإحساس سمعي هو أقرب للصفير. وليس في صوته ما يوحي بأي إحساس ذوقي أو شمي أو مشاعر إنسانية.

8- حرف الشين

مهموس رخو يشبه رسمه في السريانية صورة الشمس، يقول عنه العلايلي:"إنه للتفشي بغير نظام"...

فحرف (الشين) كحرف (الراء) قد تعود أصوله الحركية إلى المرحلة الزراعية. فإذا صح هذا الاحتمال، لا بد من أن تكون المرأة هي التي اعتمدت طريقة النطق به (إيماءً) وتمثيلاً، عن الأمور التافهة والحاجات المنزلية مما يتعلق بالمرحلة الزراعية... ثم تُعتمد (إيحاءاته) الصوتية في مراحل رعوية متطورة لاحقة. فتكتمل بذلك مقومات شخصيته (الإيمائية- الإيحائية)، ويحق له ان يصنّف في زمرة الحروف (الإيحائية) الرعوية الراقية: كما وقع لحرف (الراء)

وفي الحقيقة، إن بعثرة النفَس في أثناء خروج صوت هذا الحرف يماثل الأحداث التي تتم فيها البعثرة والانتشار والتخليط. كما أن طريقة النطق بصوته المبدِّد للنفَس بين شفاه مكشِّرة ، إذا أخذت الكشرة أبعادها، كانت أصلح ما تكون

للتعبير عن توافه الأشياء والأمور.

أما صوته فهو يوحي بإحساس لمسي بين الجفاف والتقبض.

9- حرف الطاء

مهموس شديد يشبه شكله في السريانية صورة الطير. ويقول عنه العلايلي: إنه (للملكة في الصفة والالتواء والانكسار).

صوت هذا الحرف، إنما هو تفخيم للتاء الرقيقة. وعندما ينفخ في الرقيق ويضخم، لا بد من أن نحصل منه على ما هو مجوَّف كالطبل. وهكذا كان صوته أشبه ما يكون بضجّة الطبل. له إيحاء لمسي بين المرونة والطراوة، وله من المذاقات طعم الدسم، ومن الشمِّيات رائحة العطور، وله إيحاء بصري من الضخامة بين التكوّر والفلطحة.

قد استمد هذا الحرف إيحاءاته الذوقية من تماسِّ اللسان المباشر بكامل مساحته العليا مع سقف الحنك عند التلفظ به، على مثال ما يضغط اللسان على مضغة من اللحم الطري النضيج.

واستمد إيحاءاته الشمية من تجاوب صدى صوته مع التجويف الأنفي (الخيشوم)؛ إذ لا بد من أن يؤثر صدى اهتزازته الطرية اللينة مباشرة في خلايا حاسة الشم عند النطق به يدغدغها بنعومة ورقة كما تدغدغها موجات من نسيمات رائحة ذكية. وبذلك تتنبّه الأعصاب في الخلايا الشمية آلياً لا كيماوياً، فتوحي بإحساس شمي خاص (نظرية حديثة في حاسة الشم) . وذلك على العكس من صوت (الخاء) الرخو المخنخن الذي يوحي بالروائح الكريهة.

ويكفي ان نتلفظ بكلمات تدل معانيها على مذاقات وشميات بعضها يتخلله حرف الطاء، وبعضها الآخر خال منه، لنرى مدى استجابة حاستي الذوق والشم لكل من الصورتين الصوتيتين.

فعندما يقال لنا في الساحل السوري (بطِّيخ) وهو البطيخ الأصفر، يتبادر إلى الذهن مباشرة دونما أية عملية تذكُّر، شكله المكور، فلونه الأصفر، فطعمه الحلو، ورائحته العطرة. بمعنى أنه ينبه فينا هذه الأحاسيس. بينما لو قيل لنا برتقالة، فإن شكلها المكور ولونها الوردي هما أول ما يخطران بالتتابع على الذهن، وقد يقف بعضنا عند هذا الحد فلا يتجاوزه إلى طعمها ورائحتها إلا إذا وجد فسحة من الوقت فيستعيدهما على مهل عن طريق الذاكرة.

10 - حرف الظاء:

مجهور رخو، يعرِّفه الدكتور بشير بأنه (من الأصوات الاحتكاكية، مجهور، مفخم مطبق).

ويقول عنه العلايلي: إنه (للتمكن).

صوت هذا الحرف إنما هو تفخيم لحرف الذال، يلفظ ملثوغاً مثله، فخفّ بذلك توتره الصوتي وقلَّت غلظته. وهو يوحي بالفخامة والنضارة والأناقة والظهور، وبشيء من الشدة والقساوة.

وبالرجوع إلى المعجم الوسيط، عثر على ثمانية عشر مصدراً تبدأ بالظاء، كان منها ستة مصادر تدل معانيها على الرقة والأناقة والنضارة بما يتوافق مع ظاهرة اللثغ في صوت هذا الحرف. هي:

ظأرت المرأة على ولدها (عطفت عليه). الظبي . الظريف. الظعينة (الهودج أو الزوجة).الظل الظليل. ظميت شفتها (كان فيها سمرة وذبول).

وكان منها سبعة مصادر تدل معانيها على القساوة بشيء من الخشونة بما يتوافق مع صدى صوته المفخم. هي الظُّبة (حدُّ السيف). الظَّرُّ (الحجر الصوان له حد). الظَّرِب (ما نتأ من الحجارة وحدِّد طرفه). الظِّفر للإنسان، والجوارح والكواسر). الظِّلف (الظفر المشقوق للماشية).الظنب (أصل الشجرة). الظُّنبوب (حرف ساق القدم).

أما المصادر الخمسة الباقية، فكان بين معانيها رابطة من الشدة والظهور ، بما يتوافق مع الخصائص الصوتية لهذا الحرف. هي:

الظُّلم (وضع الشيء في غير موضعه). ظهر ، ومن مشتقاتها (الظُّهر والظهيرة). الظَّلع (العرج). الظمأ (شدة العطش). الظنّ (الشك بما يقارب اليقين).

11- حرف الغين:

مجهور ، رخو. قد اتفق العلايلي والأرسوزي على أنه (لغؤور المعنى والغموض والخفاء). وهذا هو أقلُّ من واقعه الصوتي.

فظاهرة الغؤور والغموض في حرف الغين، انما هي مستمدّة من طبيعة صوته. فهو لا يوحي بالغموض فحسب، وانما بالامِّحاء والعدم أيضاً.

إن صورته الصوتية وهو يدغدغ سقف الحلق عند خروجه، لهي أشبه ما تكون بدغدغة محسَّة من حديد تزيل غباراً عالقاً بجلد بعير. وإذا خُفف صوته قليلا، كان أشبه بحفيف ممحاة من نسيج خشن تحكُّ خطوطا طباشيرية مرسومة على لوح أسود، ويتطاير الغبار.

فهذه هي حكاية حرف الغين: صورة صوتية يقابلها في الطبيعة صورة تمثيلية: اهتزاز واضطراب وبعثرة نفَس في صوت الغين ، ودغدغة محسّةٍ أو ممحاة، أو راحة كفٍّ خشنة، وغبارٌ يتناثر في الهواء. هذه هي الخصائص الإيمائية في صوت الغين، فماذا عن خصائصه الإيحائية؟

ماذا يوحي لنا صوت (غ-غ-غ..)؟.

لا شيء قطعاً إلاَّ غرغرة الموت والامِّحاء. فصوته عندما يخرج من فوَّهة الحلق، إنما يخرج مخربا ممحوّ الألوان مجلببا بالسواد. وهكذا نسمع صوت هذا الحرف مثلما نرى الليل المظلم البهيم.

12- حرف الفاء

صوت هذا الحرف مهموس رخو. يقول العلايلي عنه: إنه، (يدل على لازم المعنى، أو المعنى الكنائي).. ويقول عنه ابن جني، إنه : لرقة صوته، كثيراً ما يضفي معنى الضعف والوهن على الالفاظ التي يدخل في تراكيبها ، ولا سيما المؤلفة من حروف : (د. ت. ط. ر. ل. ن).

ولكن هذا الحرف بحفيف صوته الرقيق وبعثرة النفَس لدى خروجه من بين الأسنان العليا وطرف الشفة السفلى، يوحي بملمس مخملي دافئ ، كما يوحي بالبعثرة والتشتت. لتكون الخصائص الصوتية لهذا الحرف موزعة بين اللمسي والبصري.

...لكن باستقراء معاني المصادر التي تبدأ بهذا الحرف في المعجم الوسيط، يلاحظ أن قرابة ثلاثين في المئة منها تدل معانيها على الشق والقطع والشدخ. أحداث يتطلب تنفيذها شيئاً من القوة والشدة والفعالية ، ما يتناقض أصلا مع موحيات الرقة والوهن والضعف في صوت حرف الفاء.

الحاسة السمعية وحرفاها

الحاسة السمعية:

آلتها الأذن: تؤدي وظيفتين اثنتين: الإحساس بالتوازن: وآلتها الكييس والشكيّة والقنوات الهلالية الثلاث. والإحساس بالأصوات: وآلتها القوقعة.

تصل الأصوات إلى القوقعة من طريق الطبلة والعظيمات والسائل اللمفي الموجود في الأذن الباطنة. وفي حال إصابة الأذن توصل العظام الجمجمية وسوائل الدماغ الذبذبات الخارجية إلى مراكز السمع العصبية الموجودة في اللحاء (القشرة الدماغية).

تدرك الأذن البشرية الأصوات التي تراوح ذبذباتها بين (2و20 ألف) في الثانية.

وعندما تكون الأصوات ذات ذبذبات دورية منتظمة تسمى أنغاما، وإلا كانت أنواعاً من الدّويّ أو الضجيج أو القعقعة، وما إليها من الأصوات الناشزة.

الأذن المدربة تستطيع أن تميز بين النغم الأساسي والأنغام التوافقية في الأصوات الموسيقية المركبة. بينما العين لا تستطيع تحليل اللون المركب إلى ألوانه البسيطة. وهكذا نرى أن الأذن البشرية أدق تحليلاً للأصوات من العين للألوان.

الحرفان السمعيان: هما الزاي والقاف.

1- حرف الزاي:

مجهور رخو. يشبه رسمه في السريانية صورة الزند. يقول عنه العلايلي: إنه:

(للتقلع القوي). تعريف قريب من واقعه ولكنه قاصر.

ولئن كان صوت هذا الحرف يقوم أصلاً على الاهتزاز الصوتي كحرفي الذال والظاء، فإنه يتميز منهما بحدَّة خاصة، لا يخفِّف منها لثغ كما في الذال، ولا فخامة وأناقة في اللفظ كما في الظاء. ليكون حرف الزاي بذلك أحدَّ أصوات الحروف قاطبة.

وعلى الرغم من بساطة صوت هذا الحرف الأَسَلي ، فهو متنوع الخصائص؛ فحدَّة صوته توحي بالشدة والفعالية .

وهذه الحدَّة التي تحاكي صوت حزِّ الحديد على الحديد، تؤهِّله للتعبير عن الأصوات المماثلة في الطبيعة.

ولما كان صوت هذا الحرف يستمد حدَّته من ذبذباته الصوتية العالية، فهو إذا لفظ بشيء من الشدَّة أوحى بالاضطراب والتحرّك والاهتزاز. أما إذا لفظ مخففا بعض الشيء ، فهو يوحي بالبعثرة والانزلاق وذلك (حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث).

فما رصيد هذه الخصائص الصوتية في معاني الألفاظ التي يتصدرها حرف الزاي؟

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثر على مئة وثلاثة وثمانين مصدراً تبدأ بحرف الزاي، كان منها سبعة عشر مصدرا تدل معانيها على أصوات. هي:

زأر الأسد. زبطت البطة (صوّتت) . زحر (أخرج صوته بأنين من عمل أو شِدَّة). زعق به (صاح به فأفزعه). زغد البعير (هدر شديدا). زغرد البعير (ردَّد هديره في حلقه). الزغدب (الهدير الشديد). زفر (أخرج نفسه بصوت مسموع). زفزفت الريح (صوتت في الشجر). زقزق الطائر (صوت). زقا الطائر (صاح). زمجر (ردَّد صوته في صدره). زمر (صوّت بالمزمار).

زهزق (ضحك بشدة). زمخر الصوت (اشتدّ). زمزم. (صوّت بِدويٍّ غير

واضح).زاط (صوت وجلب).

وكان منها ستة وستون مصدراً تدل معانيها على الشدة والفعالية. منها:

زأب (شرب شديدا) . زأم (مات سريعاً). زبره بالحجارة (رماه بها). الزوبعة (الإعصار). زبق شعره (نتفه) . زجله (رفعه ورمى به).

وكان منها أربعون مصدراً تدل معانيها على الاضطراب والاهتزاز والتحرك والتدحرج والانزلاق بما يحاكي ذبذبة صوته . منها:

زأزأ الشيء (حركه وزعزعه) . زحن عن مكانه (تحرك) . زعزعه (حرَّكه بشدة). تزاحكوا (تدانوا). زحّه (نحاه عن موضعه). زحزحه. زحف. زحل عن مكانه (تنحَّى).زحلف (تزحلق) . زحلقه (دحرجه). زرف الدمع . زفّ (أسرع). زفن (رقص). زكمت به أمه (ولدته). زلج (أسرع في المشي). زلزله (هزّه وحركه بشدة) . زلقت القدم. زمع (أسرع في مشيه) . زنفل (أسرع، رقص كالنبط) . زاغ زوغاً وزيغاً (مال عن القصد). الزَّيازية (العجلة والسرعة).

وكان منها تسعة مصادر تدل معانيها على البعثرة والتناثر، بما يحاكي بعثرة النفَس لدى خروج صوته.: هي:

الزِّئبر (الزغب والوبر) . الزِّغبر. الأزبّ (كثير الشعر والوبر). الزَّبد (الرغوة). الزبعرى (الكثير شعر الوجه والحاجبين واللحيين). الزَّغب (صغار الريش والشعر). زعِر الشَّعر والوبر والريش (قلّ). الزوبر (زغب يعلو الثوب الجديد). زرع الحب (بذره).

2- حرف القاف

هو شديد. يلفظه بعضهم مجهورا، وبعضهم يلفظه مهموسا. يصفه العلايلي بأنه: (للمفاجأة تُحدث صوتا)، ويصفه الأرسوزي بأنه : (للمقاومة). وكلا الوصفين يفضيان به إلى أحاسيس لمسية من القساوة والصلابة والشدة، وإلى أحاسيس

بصرية وسمعية ، من فقاعة تنفجر، أو فخارة تنكسر. ولكن ما رأى المعاجم اللغوية في هذه الإيحاءات؟

بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثر على مئتين وثمانين مصدرا تبدأ بحرف القاف، كان منها اثنان وعشرون مصدرا تدل معانيها على أصوات؛ هي:

قبقب الفحل (ردد صوته في حنجرته). قحب الجمل (سعل). قرَّ قريرا (صوت). قرع (ضرب بصوت). القَرْق (صوت الدجاجة إذا حضنت). قرقر وقرقف (في الضحك). قصف الرعدُ (اشتد صوته). القعقعة. قعم السنور (صاح). قهقه، وقهّ (ضحك). قفقف (اصطكت أسنانه). قاقت الدجاجة وقوقأت وقوَّقت (صوتت). قال. قوّه لصاحبه (صاح به). قضَّ قضيضاً (سُمع له صوت كأنه قطع). قضقضت العِظام (صاتت عند كسرها) قطقطت الحجلة (صوتت). قعط فلان (صاح شديداً).

وكان منها خمسة وثمانون مصدراً تدل معانيها على الشدة والقوة والفعالية. منها:

قبص (عدا عدوا سريعا). قتله. قحز (وثب) . قحم. القدرة. القسر. القساوة.

قضعه. قهره. قَفَزَ (وثب) . قحطر (اشتد). قهره. القوَّة. قاظ الحر (اشتد).

قاوم . قاد قيادة.

وكان منها واحد وثلاثون مصدراً تدل معانيها على القطع والقشر والكسر، بما يتوافق مع خاصية الانفجار في صوته. منها:

قدّه (قطعه طولا). قطَّه (قطعه عرضا). قذَّه (قطعه وهذَّبه). قرضه. قرطم الشيء (قطعه). قسم . قشده (كشطه). قشره. قتا العودَ (قشره) . قصب الشيءَ (قطعه). قصّه. قصل الشيءَ (قطعه بقوة). قصم وقصمل الشيءَ (كسره). قضبه (قطعه). قلم العودَ (قطع منه شيئاً).

الحروف الشعورية غير الحلقية

1- حرف الصاد

مهموس، رخو، يشبه رسمه في السريانية صورة الصبي. يقول عنه العلايلي: إنه (للمعالجة الشديدة)، وهو قريب من واقعه...

هذا الحرف إنما هو تفخيم لحرف السين وصفيريٌّ مثله، إلا أنه أملأ منه صوتاً، وأشد تماسكاً، فهو من أصوات الحروف كالرصاص من المعادن رجاحةَ وزنٍ، وكالرخام الصقيل من الصخور الصمَّاء صلابة ونعومة ملمسٍ، وكالإعصار من الرياح، صرير صوت يقدح ناراً.

ومنحته هذه الخصائص الصوتية شخصية فذَّة طغى بها على معاني معظم الحروف في الألفاظ التي تصدرها، ليعطيها من نقاء صوته صفاء صورة وذكاء معنى، ومن صلابته شدة وقوة وفاعلية، ومن طبيعته الصفيرية مادة صوتية نقية ما كان أصلحها لمحاكاة الكثير من أصوات الناس والحيوانات وأحداث الطبيعة.

2- حرف الضاد

يقول عنه العلايلي: إنه (يدل على الغلبة تحت الثقل)، وحمل هذا الحرف لقب اللغة العربية، فقيل (لغة الضاد)، وقد أسند بعضهم هذا اللقب إلى الحديث الشريف:(أنا أفصح من نطق بالضاد). إلاّ أن الشراح لم يثبتوه. أما المتنبي فقد أثبته في قوله:

لا بقومي شرُفتُ بلْ شرُفوا بي وبنفْسي فَخُرت لا بجُدودي

وبهمْ فخرُ كلِّ مَنْ نطقَ الضاَ دَ وعوذُ الجاني وغوثُ الطريدِ.

وما أحسب أن المتنبي هو الذي أبدع هذا اللقب. فمسألة صعوبة النطق بالضاد الأصيلة قد أثيرت قبل المتنبي بزمن طويل...

الاختلاف في نطق الضادّ:

لقد اختلف علماء اللغة العربية في مخرجها وشِدَّتها اختلاف العرب أنفسهم في كيفية النطق بها... ويُستفاد من البحث الذي خصَّصه الدكتور أنيس في كتابه (الأصوات اللغوية) بهذا الصدد، أن الضاد القديمة، وإنْ كانت مجهورة كالضاد الحديثة (يهتز مع صوتها وترا الحنجرة)، فإنها قد تطورت من الرخاوة إلى الشِّدة.

فالضاد التي تلفظها مصر هي اليوم أشبه بالدال. والضاد السورية مفخمة وأشد انفجاراً. أما في العراق فيلفظونها ظاء رخوة، علماً أن التلفظ بالضاد ظاء كان لغة كثير من القبائل العربية. ونُقل عن الأصمعي قولُه: "إنَّه تتبع لغات العرب كلها (أي لهجاتهم)، فلم يجد فيها أشكل من الفرق بين الضاد والظاء" (الأصوات اللغوية ص54).

النطق بالضاد القديمة:

يُستفاد من وصف الخليل بن أحمد الفراهيدي أن العُضوين المكوِّنين للنطق بالضاد القديمة ينفصلان انفصالاً بطيئاً نسبياً، فحلّ الانفجار البطيء في صوتها محل الانفجار الفُجائي، ولهذا السبب قال ابن الجوزي في كتابه (النشر في القراءات العشر): (إن الضاد انفردت بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسُر على اللسان مثله، فألسنة الناس فيه مختلفة)، (الأصوات اللغوية ص 51).

وأكد علماء اللغة القدامى: (أنَّ النَّفسَ مع الضاد القديمة بعد خروجه من الحنجرة، يتخذ مجراه من الحلْق إلى الفم، إما عن يسار الفم عند أكثر الرواة، وإما عن يمينه عند بعضهم، أو عن كلا الجانبين على رأي سيبويه)...

ونظراً إلى تداخل صوتي الضاد والظاء في اللهجات العربية، فإن نهاية مخرج الضاد القديمة لا بد من أن يكون قريباً جداً من بداية مخرج الظاء. لتكون الصعوبة البالغة في نطق الضاد القديمة تتلخص في امتداد مخرجها حتى بداية مخرج الظاء، مع البراعة في الفصل بينهما، وهذا ما جعل إتقان التلفظ بها فائق الصعوبة، فكان لا مثيل لها في لغات العالم، ما يؤهلها لحمل لقب اللغة العربية، على رأي معظم علماء اللغة العربية وأدبائها.

ولهذا السبب من الصعوبة الفائقة في نطقها، تراجع العراقيون وغيرهم من القبائل العربية القديمة بمخرجها قليلاً باتجاه الفم حتى استقر في مخرج الظاء، وتراجع المصريون بمخرجها أكثر حتى استقر قرب مخرج الدال. أما السوريون فقد تقدموا بمخرجها قليلاً نحو الحلّق. إشباعاً وتفخيماً، فكان صوتها أشد انفجاراً من الضاد الأصل.

وهكذا ضاعت الضاد القديمة من على ألسنة العرب...

الخصائص الصوتية للضاد:

لا بد لهذه الخصائص من أن تختلف باختلاف مخرجها على المدرج الصوتي. فإذا لفظت الضاد مُفخمة شديدة الانفجار كما في سورية كانت تفخيماً للدال، لتصبح بذلك أعلى منه نبرة وأملأ صوتاً وأكثر تلوناً بإيحاءاته الصوتية.

وصوت الضاد في حالة التفخيم والتشديد يوحي بالصلابة والشدة والدفء كأحاسيس لمسية، وبالفخامة والضخامة والامتلاء كأحاسيس بصرية، وبالضجيج كإحساس سمعي، وبالشهامة والرجولة والنخوة كمشاعر إنسانية.

وإذا لفظت بما يشبه الدال المرققة كما في مصر، كانت ضاداً مخففة بنطقها وخصائصها الصوتية، وبذلك تكون أقل إيحاء بالشدة والقساوة من الدال ذاتها، ولا ما يوحي بالفخامة والضخامة والضجيج، ولا بأية مشاعر إنسانية كما لحظت ذلك في حرف (الدال).

3- النون:

مجهورة متوسطة الشدة، رسمُها في السريانية يشبه النجم. معناها لغة: شفرة السيف أو الحوت أو الدواة، ولعل رسمها في العربية قد اقتبس من صورة إحدى هذه المسميات قبل أن يتطور إلى الرسم الحالي. فالنقطة في النون تمثل نتوءاً عند مقبض السيف، أو عين الحوت، أو مرتسم القلم في الدواة.

يقول العلايلي: إنها (للتعبير عن البطون في الأشياء). ويقول عنها الأرسوزي: إنها (للتعبير عن الصميمية). والمعنيان صحيحان ومتقاربان ولكنهما قاصران، وهذه الإيحاءات الصوتية في النون مستمدة أصلاً من كونها صوتاً هيجانياً ينبعث من الصميم للتعبير عفو الفطرة عن الألم العميق (أنّ أنيناً).

ولذلك كان الصوت الرنان ذو الطابع النوني (أي ذو المخرج النوني)، الذي تتجاوب اهتزازاته الصوتية في التجويف الأنفي، هو أصلح الأصوات قاطبة للتعبير عن مشاعر الألم والخشوع..

على أن صوت النون إذا لفظ مخفَّفاً مرقَّقاً أوحى بالأناقة والرقة والاستكانة، وإذا لفظ مشدداً بعض الشيء، أوحى بالانبثاق والخروج من الأشياء، تعبيراً عن البطون والصميمية، كما قال العلايلي والأرسوزي.

أما إذا لفظ بشيء من الشدة والتوتر، فلا بد لموحياته الصوتية من أن تتجاوز ظاهرة الانبثاق العفوية، إلى النفاذ القسري والدخول في الأشياء، وإذا لفظ بشيء من الخنخنة (إخراج الصوت من الأنف)، أوحى بالنتانة والخِسّة.

إذا، فإن موحيات صوت هذا الحرف ومعانيه تتغير بحسب كيفية النطق به، فهو يوحي تارة بالحركة من الداخل إلى الخارج، وهو الانبثاق، ويوحي تارة أخرى بالحركة من الخارج إلى الداخل، وهو النفاذ في الأشياء.

علم الأصوات في معجم العين

معجم "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول معجم عربي يؤلف في اللغة العربية، وأية مجاميع لغوية موحدة الموضوع سبقت الخليل؛ ليست بمعاجم؛ لأن معجم العين قد بني على خطة ثابتة نجدها في هيكل الكتاب وتقسيماته كما أرتآها الخليل؛ ولذلك، فإن تخطيط شكل المعجم العربي الأول والمعلومات التي نشرت فيه مسألة محسوبة، ومناورة علمية مقصودة لذاتها.

ويلاحظ أن هذا المعجم بني في مضامينه على أن يكون دائرة معارف للغة العرب؛ ولذا، تضمن شواهد القرآن والحديث والشعر والمثل، كما أن المعجم لم يؤلف لغرض تسجيل لغة البداوة؛ ولكنه ألف ليسجل التطور الحاصل في اللغة بالاختلاط الاجتماعي، وتبدل البيئة، وظهور المستجدات التي اقتضت ظهور ألفاظ جديدة بالاشتقاق أو الافتراض؛ ولذلك، فإنه اهتم بلغة الأمصار والعامة. ولم يترك اللغة اليدوية سائبة غير منسوبة؛ فإن بعض الألفاظ كانت ألفاظاً "لهجية" خاصة بقبيلة ما؛ فراعى الخليل ذلك، وسجل هذه الألفاظ التي كانت نواة في كل المعاجم التي ظهرت بعده، وساعدت أهل التفسير على الانتباه إلى ذلك في النص القرآني... فضلا عن ملاحظة القراءات المختلفة لبعض الآيات كما وردت في مصاحف الصحابة، وفي الرواية.

وبالعودة إلى مضمون هذا المعجم، يلاحظ أنه جاء حافلاً بالمعلومات الصوتية والصرفية والنحوية والتأصيلية: أصالة ودخيلاً ومعرباً، واللهجات واللغات

والسماع والقياس والفروقات اللغوية بين المدن والأمصار والأقطار... إلى جانب ثروته الاستشهادية نثراً وشعراً، حديثاً وقرآناً، أمثالاً وحكماً...

كما يتميز هذا المعجم بطريقة بنائه على مخارج الحروف. وقد شكلت هذه الطريقة صعوبة أمام استعمال هذا المعجم، خصوصا في العصور الحديثة، وحالت دون الإفادة منه إفادة عامة...!

يذكر أن حروف اللغة العربية ثمانية وعشرون[1]، وقد رتبها الخليل في معجمه العين حسب مخارجها كما يأتي: ع، ح، هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، ا، ي، ء.

أما تصنيفات هذه الحروف؛ فهي كالآتي[2]:

1 الأحرف الجوفية الهوائية؛ وهي: حروف المد المعروفة (الألف والواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها).

2 الأحرف الحلقية: (الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء).

3 الأحرف اللهوية: القاف والكاف.

4 الأحرف الشجْرية: الجيم والشين والياء غير المدية.

5 الأحرف الحافية: الضاد واللام.

6 الأحرف الذلقية أو الطرفية: اللام والنون المظهرة والراء.

7 الأحرف النطعية: الطاء والدال والتاء.

8 الأحرف الأسلية: الصاد والزاي والسين، وتسمى أيضا الصفيرية.

9 الأحرف اللثوية: الظاء والذال والثاء.

---

1 ـ بعض اللغويين يضيف حرف الهمزة إلى حروف العربية، ليصبح عددها 29.

2 ـ ينظر: صبحي الصالح. دراسات في فقه اللغة. ص278 - 281

10 الأحرف الشفوية: الفاء والباء والميم والواو غير المدية.

11 الأحرف الخيشومية: وهي النون الساكنة والتنوين، حين إدغامهما بغنة أو إخفائهما، والميم والنون المشددتان في حال الإدغام.

واختطّ معجم العين طريقةً في ترتيب ألفاظ اللغة لم يُسبق إليها، وهي تدلّ- مع صعوبتها- على عبقريةٍ فذّةٍ، فترتيب الألفاظ لم يسلك فيه الترتيب المعروف في وقته وهو الترتيب الألفبائي، وإنما جعل مخارج الحروف عِماده فيه، وهذا الترتيب هو الأساس الأول للمعجم، حيث قسّمه صاحبه إلى كتب، وجعل كلّ حرفٍ كتاباً، ثمّ قسم كل كتابٍ (حرفٍ) إلى أقسامٍ بحسب أبنية الكلمات؛ وهو الأساس الثاني، ثمّ قلّب الكلمات التي ذكرها تحت كلّ بناء على الصور المستعملة عند العرب، وهو الأساس الثالث.

-الأساس الأول : ترتيب الحروف

بدأ الخليل بأقصى الحروف مخرجاً؛ فجعلها بداية الترتيب، ثمّ الذي يليها من جهة الفم حتى انتهى منها جميعاً، ولكنه لم يبدأ بأقصاها مخرجاً وهي الهمزة؛ لعدم ثباتها على صورة واحدة، فهي تُقلب كثيراً إلى أحد حروف العلّة، ولم يبدأ بالحرف التالي؛ وهو الهاء لضعفها، فأخّرها إلى الحرف الثالث، فبدأ بحرف العين الذي يخرج من وسط الحلق وبعده الحاء، وهكذا حتى انتهى إلى حروف الشفتين، ثمّ حروف المدّ وبعدها الهمزة، وإليك الحروف على هذا الترتيب :

ع / ح / هـ / خ / غ / ق / ك / ج / ش / ض / ص / س / ز / ط / د / ت / ظ / ذ / ث / ر / ل / ن / ف / ب / م / و / ا / ي / أ.

وتحت كلّ حرفٍ من الحروف وُضعت الكلمات التي تخصّه، ولكي لا يحدث تكرير للكلمات فتُذكر تحت كل حرفٍ من حروفها، سلَكَ المعجم الطريقة الآتية: وُضعت كلّ كلمة تحت أقصى حروفها مخرجاً، من دون النظر إلى موضع

الحرف، سواء أكان في بدايتها أم في وسطها أم في آخرها، نحو: (لعب) أوردها في حرف العين؛ لأنه أقصاها مخرجاً، ولا ترد في غيره. (رزق) أوردها في حرف القاف؛ لأنه أقصاها مخرجاً، ولا ترد في غيره.

يتضح ممّا سبق، أنّ مخرج الحرف هو الذي يعرّفنا بموضع الكلمة من معجم العين، ولا عبرة بموقع الحرف من الكلمة.

الأساس الثاني: تقسيم الأبنية

جميع الكلمات التي وُضعت تحت الحرف لكونه أقصى حروفها مخرجاً، قُسّمت بالنظر إلى حروفها الأصول، ووُضعت تحت أبنيتها، فوُضعت الأبنية في أبواب تحت كلّ حرف؛ ولذا ينقسم الحرف الواحد إلى أبوابٍ تشمل الكلمات مصنّفة بالنظر إلى حروفها الأصلية من دون الزائدة، والأبواب هي:

-باب الثنائي الصحيح: ذكر تحته الكلمات الثنائية مثل: (الخاء والقاف)، وفيه: خَقَّ، الخَقْخَقَة، الأُخقوق.

-باب الثلاثي الصحيح: ذكر تحته الكلمات الثلاثيّة من دون زوائد.

-باب الثلاثي المعتلّ: ذكر تحته ما فيه حرفان صحيحان، وحرف علّة (وهمزة)؛ مثل: (الخاء والطاء، وأحد حروف العلّة (و ا ي) أو همزة "ء"[1]؛ وفيه: خطو، خطأ، خوط، وخط، خيط، طيخ، طخي.

-باب اللفيف[2]: ذكر تحته ما فيه حرفا علّة، مثل: (القاف والواو والياء)، وفيه: قوي، قوقى، وقى، واق، أقا، قاء، أوق.

-باب الرباعي: ذكر تحته الكلمات الرباعيّة مثل: (القاف والجيم) وفيه: جنبق،

---

1 ـ الهمزة ليست حرف علة...

2 ـ هناك لفيف مقرون، مثل: روى، ولفيف مفروق، مثل: وقى... في المقرون لا نفصل بين حرفي العلة...

قنفج، جرمق، مجنق، جبلق، جوسق، جلهق.

-باب الخماسي: ذكر تحته الكلمات الخماسيّة، مثل: (باب الخماسي من القاف) وفيه: جنفلق، شفشلق، قنفرش، فلنقس.

حينما نعيد النظر في الكلمات السابق ذكرها في الأساس الأول، وغيرها، نجدها على النحو الآتي:

(شدّ) تحت باب الثنائي الصحيح من حرف الشين، ومعها مشتقاتها.

(لعب) تحت باب الثلاثي الصحيح من حرف العين، معها مشتقاتها.

(رزق) تحت باب الثلاثي الصحيح من حرف القاف، ومعها مشتقاتها.

(حزن) تحت باب الثلاثي الصحيح من حرف الحاء، ومعها مشتقاتها.

(جرى) تحت باب الثلاثي المعتلّ من حرف الجيم، ومعها مشتقاتها.

(وقى) تحت باب اللفيف من حرف القاف، ومعها مشتقاتها.

يذكر أن تقسيم الأبنية السابقة يتكرّر تحت كل حرف من حروف المعجم.

الأساس الثالث: تقليب الكلمات

تبيّن ممّا سبق، أن منهج العين هو تقسيم الكتاب إلى حروف، وتقسيم كل حرف إلى الأبنية المعروفة، ثمّ توزيع الكلمات التي تدخل تحت الحرف المقصود على الأبنية التي تدخل تحتها.

فالكلمات التي تدخل تحت كلّ بناءٍ، تُقلّب على الصور المستعملة في العربية؛ ولذا فإن جميع تلك الصور ترد مرّةً واحدةً في تحت أقصى حروفها مخرجاً، ومن الأمثلة السابقة نعرف ما يأتي: (لعب، لبع، بلع، بعل، علب، عبل)، هذه التقليبات المختلفة للحروف الثلاثة يرد المستعمل منها تحت حرف العين، في باب الثلاثي الصحيح، في مادة (علب)، لأنّ العين هي أقصاها مخرجاً، ثمّ اللام؛ لأنها من طرف اللسان، ثمّ الباء؛ لأنها من الشفتين، وهكذا بقيّة الكلمات التي ذكرت سابقاً

تذكر في موضع واحد مع جميع تقليباتها المستعملة.

وقد استعمل تقليب الكلمات ليكون طريقةً إلى إحصاء جميع الكلمات العربية المستعملة، وليس معناه أنّ جميع التقليبات استعملها العرب، بل منها ما استعمله ومنها ما أهمله، ولكن هذه الطريقة الإحصائية تُبرز له كل الصور الممكنة ليعرف بها المستعمل والمهمل.

أمّا عدد الصور التي تنتج عن تقليب الكلمات- سواء المستعمل أو المهمل- فهي على النحو الآتي:

-الثنائي ينتج عنه صورتان.

-الثلاثي ينتج عنه ستّ صور.

-الرباعي ينتج عنه أربع وعشرون صورة.

-الخماسي ينتج عنه مائة وعشرون صورة.

- طريقة البحث عن الكلمة في معجم العين: عند البحث عن الكلمة نسلك الخطوات الآتية:

1- تعيين الحروف الأصلية للكلمة.

2- تعيين أقصى حروفها مخرجاً، حيث إنّه هو الحرف الذي تُذكر تحته الكلمة المقصودة، من دون النظر إلى موضع الحرف سواء كان في أولها أو أوسطها أو آخرها.

3-تعيين بناء الكلمة المقصودة، أهو ثنائي، أم ثلاثي صحيح، أم ثلاثي معتلّ، أم لفيف، أم رباعي أم خماسي؟ وبعد تعيين بنائها نعرف أنّ الكلمة تقع تحته.... وجميع تقليبات الكلمة الواحدة تكون في موضع واحد.

ومن المعاجم التي سلكت مسلك العين، مع تعديلات معينة: 1- البارع لأبي عليّ القالي (280 - 356هـ)، وتهذيب اللغة لأبي منصور الأزهريّ (282 - 370هـ)، والمحيط للصاحب بن عبّاد (324 - 385هـ) ...

الشعر العربي ظاهرة صوتية

لعل أبرز ما يميز الشعر العربي في بداياته الأولى، أنه ظاهرة صوتية، أي أنه لم يدون... وشكلت الرواية الشفوية عنصرا مهما في الحفاظ عليه...

الرواية:

لعل أولى المراحل التي مر بها فن الشعر هي مرحلة الرواية الشفوية، فقد تناولته جملة من الرواة، انقسموا إلى فئات، منها فئة الشعراء التي انقسمت بدورها على طائفتين، طائفة الشعراء الذين يروون شعر شاعر بعينه، فيحفظون هذا الشعر ويتتلمذون على الشاعر، ومن هذه الطائفة الحطيئة الذي كان راوية زهير بن أبي سلمى، وابنه كعب، وزهير هذا راوية اوس بن حجر...أما الطائفة الثانية من هؤلاء الشعراء الرواة، فكانوا "يروون شعراً لمن سبقهم، ولبعض من عاصرهم من الشعراء، ولا يخصّون شاعراً بعينه يتتلمذون عليه، وإنما يردون مناهل شتى يشتقون منها ما شاء لهم الفن الشعري أن يشتقوا، ثم يصدرون وقد اكتملت لهم شخصيتهم الفنية المستقلة، ويعد ذو الرمة من رجال هذه الطائفة، إضافة إلى أن رجال هذه الفئة كانوا شعراء قرضوا الشعر، ثم حسنوا فنهم لاتصالهم الدائم بالشعر رواية وقرضا.

ولقد كان لهؤلاء الشعراء الرواة دور كبير في المحافظة على هذا الشعر من الضياع، وكانوا بطرقهم هذه خير ناقل لهذا التراث، وكان عملهم هذا ينبع من حبهم لهذا الفن الذي كان من المقومات الأساسية للحفاظ على القبيلة، وأحد أسلحتها الضرورية في الدفاع عن وجودها، وإحدى وسائلها الإعلامية لنشر

مآثرها، وخلودها بخلود هذا الشعر.

وقد رفد فئة الشعراء الرواة هذه، فئة العلماء الرواة التي اهتمت بالشعر والشاعر، من خلال اهتمامها باللغة، وما يتصل بها. فكان هؤلاء العلماء يرحلون إلى البوادي حيث الأعراب، لمشافهة هؤلاء الذين لم يفسد سلائقهم اللحن بقصد الدراسة والتحليل، ووضع قواعد وضوابط لهذه اللغة المعربة. وقد عاش هؤلاء العلماء "في القرن الثاني ومطلع الثالث، وأخذ عنهم العلماء في القرون التالية للقرن الثاني، ثم يقفون عندهم ولا يعدونهم في الغالب الأعم... هؤلاء العلماء الذين تنتهي عندهم الرواية الأدبية للجاهلية طبقتان، الطبقة الأولى هم: أبو عمرو ابن العلاء وحماد الراوية ثم خلف الأحمر والمفضل الضبي ومن في طبقتهم، أما الطبقة الثانية فهم تلامذة هذه الطبقة الأولى، وأشهرهم الأصمعي، وأبو زيد، وأبو عبيدة، وأبو عمرو الشيباني، ثم ابن الأعرابي، ومحمد بن حبيب، وأبو حاتم السجستاني ومحد بن سلام.. ويضاف إلى هؤلاء أبو سعيد السكري، وعلي بن عبد الله الطوسي وابن السكيت وثعلب وغيرهم كثير.

ولقد كان لهؤلاء العلماء شرف الحفاظ على كثير من التراث الفني لهذه الأمة وصيانته من الضياع، على الرغم من أن الهدف الذي كانوا يسعون إليه هو الإكثار من الشعر للاستشهاد به في مسائل النحو، وخدمة ما يضعونه من قواعد ودراسات لهذه اللغة، وقد قدموا بعملهم هذا خدمة كبيرة للدارسين بعدهم. ولولا جهود هؤلاء لما وصل إلينا هذا التراث الضخم، ولولاهم لما أُتيح لنا الإفادة من هذا التراث.

وانقسم هؤلاء الرواة العلماء، بحسب مدرستي ذلك الوقت الكوفة والبصرة، على كوفيين وبصريين، فكان الكوفيون أكثر حرية في الأخذ من الإعراب، في حين كان البصريون أكثر تشدداً وتضييقاً، فأسقطوا كثيراً من مصادر الكوفيين من الحسبان، واتهموهم بالتزيد والوضع.

ويبدو أن علماء القرن الأول الهجري لم يكونوا ليكتفوا "برواية الشعر الجاهلي وإنشاده في المجالس والمحافل، وإنما كانوا كذلك يعلمونه الصبيان تعليماً...".

وبهذا حدّدوا علاقتهم بهذا الشعر، وكأنها علاقة الأب بابنه، فلعنايتهم به، كانوا يروونه، ثم ينشدونه في المجالس والمحافل، ومن ثم يعلمونه ويلقنونه الصبيان وبهذا يضمنون لعملهم، ولهذا الفن الذي أحبوه الاستمرارية والبقاء، حتى تكون الاستفادة منه كبيرة.

ويرى ابن سلام الجمحي أن رواية الشعر توقفت، أو قل الاهتمام بها نظراً إلى انشغال المسلمين بنشر تعاليم الدين الجديد وبالفتوحات، إلا أن هناك رأياً لأحد المحدثين يخالف هذا، ويزعم أن الرواية لم تتوقف عند هذا الحد، بل استمرت...

ويبدو أن الرواية لم تتوقف، أو لم تقلّ، وإنما كان يمكن أن تكون على نطاق أوسع لو توفر لها عدد أكثر من المهتمين. وليس معنى هذا أن الدين لم يخدم الدراسة الأدبية، ولا سيما الرواية، بل على العكس من ذلك، كان من أكثر الدوافع للعناية برواية اللغة والأدب. فقد كان الرسول (ص) يهتم بالشعر، وكذا كان أمر الخلفاء الراشدين. وقد كان الرواة "إنما يطلبون رواية الأدب للقيام به على تفسير ما يشتبه من غريب القرآن والحديث، حتى لا تجد فيهم البتة من لا راوية له في الحديث كثرت أو قلّت، والمحدثون يرون أنه ليس براو عندهم من لم يرو من اللغة".

الجمع:

بعد هذا الجهد الكبير الذي بذله هؤلاء في الرواية، تكون لديهم فيض من هذا الفن، ومن ثم كان لا بد من جمع هذا التراث الضخم. وهذه المرحلة طبيعية جداً، وكان لا بد من أن تحصل. ولم يقتصر الرواة الذين تلوا القدماء على الرواية

الشفوية، بل تعدى ذلك كثير منهم إلى التأليف الأدبي، وكان أن تمخضت جهودهم عن وضع دواوين الشعراء، كما أنهم جمعوا أشعار القبائل، وصنفوا المجموعات الشعرية، وكتب المختارات الأدبية، وبهذا أغنوا الدراسة الأدبية بمخزون وفير، يستطيع الدارس من خلاله الوصول إلى ملامح الشعر العربي في ذلك العصر، وإن يتتبع مراحل تطوره.

وقد ظهر لدى كل واحد من هؤلاء الرواة العلماء ما يشبه التخصص، فحماد الراوية اختص بجمع المعلقات، أو القصائد الطوال، والمفضل الضبي اتجه إلى جمع غريب الشعر، إذ كان الهدف منه تعليم الناشئة. ثم تبعه في ذلك الأصمعي، فاهتم بجمع الدواوين المختلفة، ومثله فعل أبو سعيد السكري، وابن السكيت، واقتفى أثرهم باقي الرواة، فجمع كل واحد منهم عدداً من دواوين الشعراء، ولم يشذ عن هؤلاء حتى المقلين منهم.

واتجه فريق منهم إلى جمع شعر القبائل العربية، و"قد أذكى هذا الاتجاه تيارات العصبية العربية التي أخذت تهب منذ عهد الأمويين، واستفحل أمرها مع مر الأيام فبدأ القوم يلتفتون وراءهم، يتطلعون إلى مناقبهم، ومآثر ماضيهم بعد أن جب الإسلام هذه الدعوات الجاهلية، فحنت القبائل إلى مآثرها، وأثارت شاعرها ليفصح عنها ويتغنى بمجدها وذكر أيامها...[1]

ومع مرور الزمن، وتغير الأحوال، ظهر اتجاه ثالث أخذ وجهة جديدة، لا تهتم بجمع دواوين الشعراء، ولا بجمع شعر القبائل، ولا بالقصائد الطوال، وإنما اتجه إلى اختيار مجموعة من أبيات القصيدة لهذا الشاعر أو ذاك، يجمعها الموضوع الواحد، أو الباب الواحد. فمن فعل مثل هذا أبو تمام، الذي خلد لنا أجمل الشعر العربي في حماسته، فمزج بين الاختيار والتنقيح، فكان يقرأ القصيدة كلها

1 ـ حمروني الطاهر، 1985، منهج أبي علي المرزوقي في شرح الشعر، المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر، 44.

فيعجبه منها البيت أو البيتان، وكان إذا رأى اعوجاجاً فيها قومه، أو ضرورة تغيير لفظ في بيت من أبيات القصيدة غيره. وكان له بذلك فضل تبويب الشعر بحسب الفنون الشعرية، فقد صنف أبو تمام حماسته على عشرة أبواب هي: باب الحماسة، باب المراثي، باب النسيب، باب الهجاء، وباب الأضياف والمديح، وباب الصفات، وباب السير والنعاس، وباب المِلح، وباب مذمة النساء.[1]

لقد كان أبو تمام أول من ابتدع هذا النوع من التأليف، ثم تبعه في ذلك كثيرون، مثل البحتري، والخالديين وابن الشجري في القرن الرابع.

التدوين:

يرى المرحوم مصطفى صادق الرافعي أن كل ما حفظه الرواة "وتناقلوه لم يدون منه شيء ولم يكن فيه إسناد، لأنه لا خطر له ولا يتعلق به أمر الدين، بل هو لا يعدو أن يكون أدباً ونافلة من التطوع، ومضوا على ذلك وهم يضيفون إليه رواية أشعار المخضرمين- الذين أدركوا الجاهلية والإسلام- حتى انقضى عهد الراشدين، من دون أن تكتب أو يدون خبر من أخبار العرب، وهم قد تركوا ذلك في السنَّة كما علمت، فلأن يتركوه في هذا ونحوه أولى"[2]. وواضح كما يقول الرافعي أن الشعر الجاهلي وصل إلينا مقطوع الإسناد، حتى إننا لم نعرف مراحل تطوره، وإنما وصل إلينا متكاملاً فنياً.

غير أن هذا لا ينفي الأمر جملة وتفصيلاً، إذ يبدو أن الشعر كان يكتب، حتى ولو في حالات خاصة ولكن ليس بالحجم الكبير، وقد يكون ذلك قبل الإسلام، إلا

1 ـ المرزوقي، أبو علي 1951، شرح حماسة أبي تمام ـ نشر: أحمد أمين وعبد السلام هارون ـ القاهرة

2 ـ الرافعي، مصطفى صادق 194.، تاريخ آداب العرب، ط:82، مطبعة الاستقامة، تحقيق محمد سعيد العريان،ص118

أن الظروف، في ما بعد، والتقاليد العلمية السائدة في ذلك الوقت، كانت تنتقص من قيمة العالم الذي يعتمد على ما يكتب، فلقد "اكتسب الشعر الجاهلي ومعطيات التاريخ والأخبار المتصلة به بصفة الكتاب بعد تنقل شفوي طويل الأمد، وتلمس متعدد الأساليب، فقد شاعت حوالي سنة 30 هـ/250م.. بين البدو والحضر في المحيط العربي كميات هائلة من الأخبار والشعر..."[1].

ونرجح أن كتابة الشعر لم تأخذ صبغة الكثرة والعناية والاهتمام بها إلا بعد مرور القرن الأول الهجري، لأن التدوين، بشكل عام، كان في القرن الأول الهجري، فقد دون الحديث الشريف في هذا القرن. ويرى أحد الباحثين، أن مجموعة من الصحابة كتبوا الحديث، وعلى مرأى الرسول وعلى مسمع منه، من هؤلاء عمرو بن العاص، وعبد الله بن العباس، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وغيرهم كثير. أما كتابة التفسير فقد بدأت منذ عهد الصحابة، وتابعهم فيها التابعون، حتى وصلت إلى ما نعرف من أوائل كتب التفسير التي بين أيدينا. ولهذا لا نعدم أن يكون الشعر قد دون أثناء تدوين القرآن الكريم والحديث الشريف وتفسيراتهما. وذلك للعلاقة الوثيقة التي كانت بين الثلاثة (قرآن، حديث، شعر). فقد "كانت هذه الموضوعات الثلاثة: الحديث والتفسير والمسيد والمغازي –إسلامية في مادتها- وقد دلت بما لا يقبل الشك على أن تدوين الموضوعات في كتب –مهما يكن حجمها- قد بدأ في عهد مبكر جداً: منذ عهد الرسول والصحابة. وإن هذه الموضوعات لم تنقل بالرواية الشفوية قرناً أو يزيد حتى دونت، كما ذهب إليه الكثيرون"[2].

1 ـ د.ر بلاشير 1952، تاريخ الأدب العربي، ط:2، ترجمة الدكتور إبراهيم كيلاني، دار الفكر، 1984، 118

2 ـ الأسد، ناصر الدين 1969، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط:4، دار المعارف، مصر ـ ص15.-151

المقوم الصوتي وعمود الشعر

عند استقراء مقومات عمود الشعر البنائية، سنقف عند مقولاته الأسلوبية في مستواها الصوتي، في خلال ما جاء في التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، وما كان من مظاهر صوتية في مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية، وهذا كله منطلق من الصلة العضوية بين الشعر والغناء، ومؤسس عليها، فقد كان العرب يزنون الشعر بالغناء [1]، لأن "الأوزان عندهم قواعد الألحان، والأشعار معايير الأوتار" [2] وكتاب الأغاني دال في هذا الاتجاه، وقد قال ابن خلدون: "كان الغناء في الصدر الأول من أجزاء الفن، لأنه تابع للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص يأخذون بأنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه" [3] حتى حدد صناعة الشعر بقوله: تلحين الأشعار الموزونة، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة" [4] وفي ضوء هذا الواقع القديم للشعر العربي نظر المحدثون إلى الشعر الجاهلي على أنه نشيد، أي "نشأ مسموعاً لا مقروءاً غناء لا كتابة، كان الصوت في هذا الشعر بمثابة النسم الحي، وكان موسيقى جسدية، كان الكلام وشيئاً آخر يتجاوز الكلام، فهو ينقل الكلام، وما يعجز عن نقله، وبخاصة المكتوب" [5].

---

1 ـ الموشح، 39.

2 ـ العمدة، 1 /9.

3 ـ مقدمة ابن خلدون، 488.

4 ـ مقدمة م.ن، 488.

5 ـ الشعرية العربية، أدونيس، 5.

والواقع أن طبيعة الشعر توكّد ارتباطه بالغناء والموسيقى، بدليل أن كل نتاجات الأمم الشعرية لم تكن خالية من الموسيقى [1]، ثم إن كل المحاولات التي دعت إلى التجديد الشعري لم تستطع الإفلات من سطوة الموسيقى وتأثيرها في بنية النص الشعري.

وبعد هذا يمكن القول: إن الشعر العربي نشأ مرتبطاً بالغناء [2]، إذ أن صرامة العروض العربي تؤكد التصاقه بالموسيقى، والتشديد على القافية الموحدة التي تعطي الكلام الشعري طابعاً غنائياً، تؤكد هذا، وقد قال ابن رشيق: "كان الكلام كله نثراً، فاحتاجت العرب إلى الغناء، بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة.. لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً، لأنهم شعروا به، أي فطنوا" [3].

ويمكن النظر إلى ملامح المستوى الصوتي عند الجاحظ على أنها إرهاصات طيبة في الاقتراب من الأسلوبية الصوتية للنسيج الشعري، في طرحه النقدي في البيان والتبيين إلا أن "الطرح النظري لوظيفة الجانب الصوتي في شموليته باعتباره عنصراً بنائياً في الشعر إنما نجده عند الفلاسفة المسلمين، ومن تأثر بهم في إطار نظرية المحاكاة" [4]، أما على الصعيد التطبيقي، فيمكن النظر إلى قدامة ابن جعفر في (نقد الشعر) على أنه متقدم على غيره، في الإحساس بما يتضمنه الصوت من عمق دلالي مؤثر شعرياً.

---

1 ـ ينظر، مقدمة في النقد الأدبي، الطاهر، 64.

2 ـ عناصر الإبداع في شعر الأعشى، عباس بيومي عجلان، 298، وينظر في الأدب الجاهلي طه حسين، 34..

3 ـ العمدة، 1 /7 –8.

4 ـ الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، محمد العمري، 38.

وقد أعطت كتب نقد الشعر تطبيقياً وكتب البديع، المقوم الصوتي الحر اهتماماً كبيراً وإن هي "لم تصل بينه وبين المقوم الصوتي المنتظم (الوزن والقافية) ويمكن ملاحظة هذا في أعمال البديعيين بدءاً من أسامة بن منقذ في كتابه (البديع).. لقد صارت أقسام المقوم الصوتي الواحد، وفروعه مثل الترصيع، تقوم باعتبارها مقومات قائمة الذات، فتعقد لها أبواب مستقلة، وانقطع ذلك الخيط بين عناصر المقوم الصوتي الإيقاعي"[1].

وفي ضوء ما سبق نفهم قول ابن وهب في البرهان، من أن "ما يسمى به الشعر فائقاً، والذي يكون إذا اجتمع فيه مستحسناً رائقاً، صحة المقابلة، وحسن النظم، وجزالة اللفظ واعتدال الوزن... وأضداد هذه كلها معيبة، تمجها الآذان، وتخرج عن وصف البيان"[2].

وهذا التأكيد في المستوى الصوتي في البلاغة العربية، صادر عن كونه مقوماً من مقوماتها الرئيسة، ومنطلقاً شعرياً، حتى كان الترجيع "الذي تقوم عليه كل الموسيقى.. أوضح مظهراً وأبلغ خطورة في موسيقى الألفاظ، ذلك أنه يتصل باللفظ، أي بالإطار الصوتي الذي يمثل الوحدة الدلالية الدنيا، وفي اللفظ تبدأ عملية التفاعل بين الدلالة اللغوية والدلالة السياقية"[3] على نحو يكون فيه الصوت المقطوع، وإن انقطعت صلته بالدلالة، "بمقتضى عزله في الإطار الدلالي الأدنى، فإنه بحكم انعقاد صلة جديدة له بأصوات معزولة مثله يكتسب صلة بالمدلولات، أثر ربط هذه الأصوات بعضها ببعض، وربط المعاني بعضها ببعض" [4].

---

1 ـ الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، محمد العمري، 36.

2 ـ البرهان في وجوه البيان، 139. وينظر، منهاج البلغاء، القرطاجني، 44 –45.

3 ـ -خصائص الأسلوب في الشوقيات، الطرابلسي، 173.

4 ـ م.ن ، 59، وينظر، بنية اللغة الشعرية كوهن، 78 – 224.

وفي سياق دلالات الأصوات، ينبغي الانتباه إلى المحدد الآتي، وهو "أن ليس هناك معان جوهرية للأصوات، ولكن المرسل هو الذي يمنحها إياها بناء على التراكم، وعلى السياق العام والخاص" [1] ومن هنا انطلق الباحثون الأسلوبيون من أحد ثلاثة اختيارات "بعضهم يبدأ من المرسل، فيدرس اختياراته، حال ممارسته عملية الإبداع، وبذاك فإن الأسلوب عند هؤلاء هو الاختيار أو الانتقاء.. وبعضهم من المتلقي، لذلك يدرس ردود، الأفعال والاستجابات التي يبديها المتلقي حيال المنبهات الأسلوبية في النص، وينطلق بعضهم من مبدأ عزل المرسل والمتلقي من دراسة الأسلوب، لذلك تراهم ينطلقون من النص ذاته" [2]. وهذا النظر النقدي في النص الشعري ذاته، يتركز في الإمكانات التعبيرية الكامنة في المادة الصوتية، لأنها تأثيرات صوتية "تظل كامنة في اللغة العادية، حيث تكون دلالة الكلمات التي تتألف منها والظلال الوجدانية لهذه الكلمات بمعزل عن قيم الأصوات نفسها ولكنها تنفجر حيثما يقع التوافق من هذه الناحية، وإذن فثمة مجال- بجانب علم الأصوات بمعناه الدقيق -لعلم أصوات تعبيري" [3].

وعلم الأصوات التعبيري، ينظر في أسلوبية الكلام الشعري، في مستواه الصوتي، كونه "أول المنطلقات الأسلوبية التي تلتقي منهجياً بالوصف البلاغي، لصوتية المفردات اللغوية، وأنساقها التعبيرية، وإقرار الأثر الصوتي في تكثيف العلاقة، بين الدال والمدلول وإحداث المتغيرات اللغوية لأداء المعنى... فالصوت يختلف باختلاف ذات الشيء المحدث له" [4] وأصوات الألفاظ "دالة على جهات الكلام، كحروف الشيء وجهاته" [5]، وفي هذا الاتجاه كان اختيار الأسلوبية

1 ـ دينامية النص، محمد مفتاح، 63.

2 ـ الأسلوبية الإحصائية، مقال، 53.

3 ـ دليل الدراسات الأسلوبية، جوزيف شريم، 36.

4 ـ الأسلوبية الصوتية، مقال، ماهر مهدي هلال، 7.. آفاق عربية، ع كانون الأول، 1992م.

5 ـ سر الفصاحة، 11.

الصوتية للتكرار المنظم للوحدات الصوتية، نابعاً من نهجها في وصف "صوتية المفردة اللغوية، بوصفها رمزاً دالاً بالمحاكاة، وعلى مستوى التركيب المتسم بالتردد الصوتي المولد للإيقاع المشحون بطاقة السياق الدلالية [1] لأن الأسلوبية الصوتية تنطلق من "تصورات موضوعية للأنساق الصوتية التي يعمد الشعراء إلى إشاعتها في قصائدهم"[2].

وفي مجال صوتيات التعبير نلحظ الأسلوبية الصوتية تميز بين ثلاثة أشكال صوتية:

الأولى هي الصوتية التمثيلية التي هي الصوائت بوصفها عناصر لغوية موضوعية. الثانية هي الصوتية الندائية أو الانطباعية التي تعنى بدراسة المتغيرات الصوتية الهادفة إلى دراسة التأثير في السامع، والثالثة هي الصوتية التعبيرية التي تعنى بدراسة المتغيرات الصوتية الصادرة عن مزاج أو سلوك عفوي لمتكلم معين [3]، وفي هذا الإطار فإن الأسلوبية الصوتية "تعتمد على مفهوم المتغيرات الصوتية الأسلوبية وبمقدار ما يكون للغة حرية التصرف ببعض العناصر الصوتية للسلسلة الكلامية، بمقدار ما تستطيع أن تستخدم تلك العناصر لغايات أسلوبية" [4] ذلك أن اللغة تمتلك "نسقاً كاملاً من المتغيرات الأسلوبية الصوتية، ويمكن أن نميز من بينها: الآثار الطبيعية للصوت، المحاكاة الطبيعية للصوت، المد، التكرار، الجناس، التناغم،..." [5]، وفي هذا لا ينظر للصوت منفرداً، أي "ليس الصوت نفسه كشيء منعزل بالتفاصيل العضوية لنطقه ولفظه،

1 ـ الأسلوبية الصوتية، ماهر مهدي، 71.

2 ـم.ن.ص 74.

3ـ الأسلوب والأسلوبية، بيير جيرو، 139.

4 -المصدر نفسه، 39.

5 -المصدر نفسه، 4..

وإنما هو الصوت من حيث تميزه عن مجموعة الأصوات الأخرى. ودخوله في تشكيل أنظمتها، ومن هنا، يمكن وضع خصائص لغة ما، لا على أساس الدور الذي تقوم به الحبال الصوتية وسقف الحلق، وإنما على أساس التقابلات الصوتية التي تميز بعض الكلمات عن بعضها الآخر، فكل صوت في لغة ما، يدرس على أنه مجموعة الملامح التي تميزه عن بقية أصوات اللغة نفسها، وتضعه في مكان من جداول القيم الخلاقة في علاقاته بها، وبهذا تصبح بنية الأصوات هي محور الدراسة لا طريقة إنتاجها" [1].

ويمكن أن نلحظ هذه المقولات الأسلوبية في مقومات عمود الشعر، ولا سيما تلك التي تخص أسلوبية النص الشعري. فعلى الصعيد الصوتي نجد في، جزالة اللفظ واستقامته حيثيات صوتية، من جهة أن العنصر الصوتي لم يحتل مكان الصدارة، في فصاحة اللفظ المفرد إلا من جهة ما يحققه من خصوصية أسلوبية ولهذا كان ابن سنان حريصاً على تقعيده، في خلال ما اشترطه لفصاحة الألفاظ من خفة اللفظ، وحسن وقعه في السمع، وتجنب الكلمات الكثيرة الحروف، وتجنب العامي الساقط أو السوقي المبتذل، وهو يحبذ التصغير الذي لا يخلو من مزية صوتية وإن كان دلالياً في أساسه [2].

أما الجرجاني فقد حاول الاجتهاد في إبراز "عنصر المعنى فيما اعتبره غيره لفظاً خالصاً، وفي هذا الصدد تناول التجنيس، وهو المقوم الصوتي الحر الوحيد الذي أثار انتباهه، مشيراً إلى أن لا مزية له في نفسه، أي باعتباره أصواتاً مسموعة، بل لما يدخله من اعتبارات ووظائف فنية" [3].

ويرى أحد الباحثين أن الجرجاني "لم يطرح قضية المعنى كمبدأ متحكم

1-نظرية البنائية، صلاح فضل، 115 –116. وينظر: البلاغة والأسلوبية، 145.

2 -سر الفصاحة، 1.9.

3 -الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، 82.

في كل مكونات الفصاحة، ومنها المكون الصوتي، بل إنه جعل الصوت عوضاً لغيره، وجعل حضوره في غيره كافياً لإبعاده، ولو نظر إلى تفاصيل العنصرين: الصوت والدلالة. من دون أن يغمط أحدهما حقه، لكان لنظريته قيمة كبيرة" [1]. وهذا الملحظ عند الجرجاني سبقته إشارات في عمود الشعر، في باب التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، من جهة أن الوزن يسهم في الشعرية كونه من "الأمور التي تجعل القول مخيلاً" لاتصاله بزمن القول وعدد زمانه "أي أن التخلي عن الوزن الفاعل يجعل القصيدة تخسر مناطق في نفس المتلقي لا يمكن الوصول إليها إلا عبر الوزن" [2] ذلك أن القصيدة "بترابطها الشفوي بين التحول الدلالي والإيقاع ومنه الوزن، أقدر على تجسيد ذبذبات الروح" [3] فكلما كان الوزن عنصراً دلالياً في النص الشعري، ساعد على تعميق البنية الدلالية، وتزداد قيمته الفنية حين "يلصق فوق خط الاختلاف الدلالي سلاسل من التمثلات الصوتية" [4] وفي ضوء هذا القول نفهم إشارة هيجل إلى "أن الشعر يحتاج إلى الوزن أو القافية اللذين يمثلان هالته الحسية الوحيدة، بل يمكن القول إنه يحتاج إليهما، أكثر من حاجته إلى القول المخيل" [5]، وفي تركيب أجزاء النظم تشكيل موسيقي "يؤثر في النفس البشرية.. يلطف الخلق، ويسهل القياد" [6] من قبيل الفصل والوصل كونه "وزناً ما، للكلام، وإن لم يكن وزناً عددياً، فإن ذلك للشعر، وهذا هو الذي يتحدد بمصاريع الأسماع" [7] وهذا ما ألمح إليه (كروتشه) من أنه "كلما

---

1 -الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، 83.

2 -عضوية الموسيقى في النص الشعري، عبد الفتاح صالح، 51.

3 -المرجع نفسه، 52.

4 -الصورة والبناء الشعري، محمد حسن، 1..

5 -فن الشعر، هيجل، 75.

6 -نظرية الشعر عند العرب، مصطفى الجوزو، 237.

7 -الخطابة، أرسطو، 222.

قمنا بتحليل قطاع من التعبير، وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة جمالية، فاللغة نفسها في جميع مظاهرها، إنما هي تعبير خالص، ومن ثم فهي علم جمالي وهي أصوات منظمة مهيأة من أجل التعبير، هذا التصور للغة، إنما هو تصور أسلوبي" [1] لأن علم الأسلوب ملتقى لدراسة كل الوسائل التعبيرية والجمالية في آن معاً [2].

ونلحظ المقوم الصوتي في قول المرزوقي بـ "التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن "وقد جعل عياره" الطبع واللسان، فلما لم يتعثر الطبع بأبنيته وعقوده، ولم يتحبس اللسان في فصوله ووصوله، بل استمرا فيه واستهلاه، بلا ملال ولا كلال، فذلك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة، تسالماً لأجزائه وتقارناً.. وإنما قلنا "على تخير من اللذيذ الوزن" لأن اللذيذ يطرب الطبع لإيقاعه، ويمازجه بصفائه، كما يطرب الفهم لصواب تركيبه، واعتدال نظومه" [3].

فصحة النظم تتأتى من التحام أجزاء النظم والتئامها، وهذا يولده الاختيار الأمثل للوزن، أي المناسبة، ومن هذا كله تتولد اللذة التي تطمح إليها النفس، فالوزن الجميل والحسن، هو المطلوب، والاختيار تتحكم به الطبيعة النفسية للشاعر والمتلقي معاً، أي أن الشاعر يريد أن يسمع ما يتفاعل مع حالته النفسية، وهذا يؤيده كلام المرزوقي، فالاختيار الذي يقوم على أساس ما يلائم الحالة النفسية، يولد اللذة، ومن هنا كان الخلل في مكونات الشعر، وزناً أم غير وزن، يكشفه الذوق والحس، لأن العروض قد يعرف بالهاجس [4]، "والشعر كلام

---

1 -علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته صلاح فضل، 35.

2 -المصدر نفسه، 37.

3 -شرح ديوان الحماسة، 1 /9 –1..

4 -ينظر، رسائل الجاحظ، 2، القيان، 161 –162.

موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الوزن" [1].

وقد يبدو أن حديثه عن لذيذ الوزن، دعوة على نحو غير مباشر إلى أن يكون الشاعر حراً في اختيار تجربته الإيقاعية، في خلال الألفاظ والصياغات التي تقدمها، ومثل هذا التصور نقرؤه عند الجاحظ في قوله: "أنشدني خلف الأحمر:

وبعضُ قريضِ القوم أولادُ علةٍ تكد لسانَ الناطقِ المتحفظِ

.... أي إذا الشعر مستكرهاً، وكانت ألفاظ البيت من الشعر، لا يقع بعضها مماثلاً لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أبناء العلات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤنة، قال:

وأجود الشعر، ما رأيته: متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان" [2]. وهذا الأمر على صعيد بناء البيت الشعري الواحد وما يصدر عن نظمه من تلوين صوتي يسهم في تكوين ملامح المكون الصوتي وتحديدها.

أي أن المكون الصوتي المتمثل في التئام أجزاء النظم، يعتمد على مشاكلة اللفظ للمعنى في خلق تناسب صوتي متوافق، لا يجعل الجملة هجيناً، بأسلوب تأتي القافية فيه مكونة القمة التي يتصاعد إليها الأداء الإيقاعي الصوتي.

وهنا نفهم مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، على أنها فهم مستفاد من فهمه للمعنى الذي هو "الغرض المفاد بألفاظ التراكيب، لا المعنى الموضوع له اللفظ، لأن المعنى الموضوع له اللفظ، لا يتصور في اشتراكه، مشاكلة بينه وبين اللفظ الدال عليه، فالمراد أن الغرض تناسبه الألفاظ الموضوعة لمعان حميدة، والغرض الخسيس تناسبه الألفاظ الموضوعة للمعاني

1 -رسالة الغفران، 251.

2 -البيان والتبيين، 1 /66 –67.

الخسيسة" [1] وهو ما ذهب إليه الجاحظ بقوله: "إلا إنني أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني" [2] وهو ما ذهب إليه بشر بن المعتمر حين قال: أن "من أراد معنى كريماً، فليتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما"[3].

وفي ختام البيت الشعري بقافية على نحو متناسب ما يشير إلى عناية العرب بالقافية، تلك العناية التي تكشف عن موقعها في تشكيل الأسلوب الصوتي بوصفها خصيصة أسلوبية.

والقافية بوصفها أصواتاً تتكرر على نحو متناسب في أواخر الأشطر، وتكرارها جزءاً من بنية الموسيقى الشعريّة، فهي فواصل صوتية يتوقع السامع ترديدها، والمتلقي يستمتع بهذا التردد الذي يطرق الآذن في مدد زمنية منتظمة، وبعدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى الوزن [4].

وعلى هذا النحو تعطي القافية للوزن "بعداً من التناسق والتماثل يضفي عليه طابع الانتظام النفسي والموسيقي والزمني" [5] وهذا ما انطلق منه حازم القرطاجني حين عرف القافية على أنها "حوافر الشعر، عليها جريانه واطراده، وهي مواقفه، فإن صمت استقامت حريته وحسنت مواقفه ونهاياته" [6]، فالقافية أداة إيقاعية تبعث الإيقاع الأصلي للوزن، ذلك الإيقاع الذي يفترض ثباته جزءاً

---

1 -شرح المقدمة الأدبية، محمد الطاهر عاشور، 75.

2 -البيان والتبيين، 1 /145.

3 -المصدر نفسه، 1 /136.

4 -موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، 273.

5 -الشعرية العربية، أدونيس، 13.

6-منهاج البلغاء، 271.

من الشكل الشعري. وقد أولاها النقاد والبلاغيون اهتماماً واشترطوا فيها شروطاً منها: التمكن وصحة الوضع والتمام. مما يجعل موقعها في النفس مؤثراً، بشروط: أن تكون حروف الروي في كل قافية من الشعر حرفاً واحداً بعينه، غير متسامح في إيراد ما يقاربه معه [1].

وبلغ أمر العناية بالقافية حد الحرص على التكرار الصوتي الذي لا يتناسب مع طبيعة الشعر كما في لزوميات المعرى، التي تؤكد أهمية الدور الموسيقي إحساساً منه بمدى فاعليتها في خلق الشعرية [2].

لأنها تؤدي إلى بنية التوازي التي "يحظى فيها الصوت حتماً بالأسبقية على الدلالة" [3]، والوظيفة الدلالية التي يؤديها الوزن للقافية تكشف عن "أننا لا نفكر في القيم الصوتية منفصلة عن المعنى بل نفكر في المعنى، من خلال مستويات متعددة، تتجاوب تجاوباً لا يسمح بالتفكير فيها، منفصلة عن غيرها" [4].

وهذا كله يحدد شعرية الوزن والقافية في بنية الشعر العربي كونهما يعدان أحد مقومات هذه الشعرية، فهما ركنان في القصيدة "لا يمكن أن يقوم بناؤها إلا عليهما" [5] ولا نجد ناقداً عربياً قديماً، نفى أهمية الوزن والقافية عن الشعر، بل أن الوزن عند العرب "أعظم أركان حد الشعر، وأولاها به خصوصية وهو مشتمل على القافية، وجالب لها ضرورة" [6].

وقد أشار الفارابي إلى أن الجمهور وكثير من القراء يرون القول شعرياً متى كان موزوناً، مقسوماً بأجزاء، ينطلق بها في أزمنة متساوية، وإذا لم يكن موزوناً

---

1 -منهاج البلغاء، 271 –272.

2 -موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، 2.4.

3 -قضايا الشعرية، ياكوبسون، 1.8.

4 -مفهوم الشعرية، جابر عصفور، 267.

5 -مقدمة ديوان (نداء القمم)، يوسف خليف، 15.

6 -الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف، 78.

بإيقاع فليس يعد شعراً إنما هو قول شعري [1]. والفارابي يفرق بين الشعر والقول الشعري، على أساس أن الشعر هو قول مخيل موزون، والقول الشعري قول مخيل غير موزون. أما ابن سينا فيرى القول الموزون غير المخيل لنا، إنما هو شعر ناقص، أما القول المخيل الموزون فهو الشعر الكامل، والقول المخيل غير الموزون هو النثر [2].

فالوزن بوصفه أحد مقومات الشعرية العربية إنما هو "إبراز أو إحداث لفجوة حادة في طبيعة اللغة، خلق لمسافة توتر عميقة بين المكونات اللغوية العائمة في وجودها العادي خارج الشعر ووجودها داخله، الوزن هو تناول للمادة اللغوية بأبعادها الصوتية" [3]. أما النظم فهو، حتى في الدراسات الحديثة: خطاب يكرر كلياً أو جزئياً، الصورة الصوتية نفسها متجاوزاً في الواقع حدود الشعر، إلا أن الشعر يستلزم في الوقت نفسه الوظيفة الشعرية [4].

واقتضاء اللفظ الشعري للقافية، متصل بما لها من حضور في موسيقى الشعر وكاشف عنه، إذ أنها تطغى على البنية الموسيقية للشعر، لأنها الوقفة التي تبرز عندها النغمة الموسيقية، وأن التوازن الصوتي بين قافية البيت الشعري والبيت الذي يليه تجعل النفس في حضور دائم مع النص الشعري، والغنائية التي تحدثها القافية تولد التواصل الدائم بين المتلقي والنص الشعري.

---

1 -جوامع الشعر. ملحق بكتاب تلخيص أرسطو طاليس في الشعر، ابن رشد، 172.

2 - فن الشعر، أرسطو، تح، عبد الرحمن بدوي، 168.

3 - في الشعرية، كمال أبو ديب، 89.

4 -بنية اللغة الشعرية، كوهين، ٥٢.

الفصل الثالث

مدخل إلى اللسانيات

جذور اللسانيات...

في تعريف اللسانيات:

اللسانيات مصطلح يعنى العلم الخاص بالدراسة الموضوعية للغة البشرية، من خلال الألسنة الخاصة بكل قوم، وهو مشتق من لسن بمعنى فصح، واللسان في اللغة يحمل عدة معان؛ منها: أداة بلع للطعام، وعضو آلة النطق، وأداة للتعبير أو الاتصال.

ظهر المصطلح لأول مرة في العام 1816م مع جهود النحاة المقارنين، إلاّ أنه تبلور واتضحت حدوده مع اللساني الفرنسي فرديناند دي سوسير (f.de Saussure) من خلال محاضراته المشهورة سنة 1916م.

واللسانيات هي العلم الذي يدرس اللغة الإنسانية دراسة علمية، تقوم على الوصف، ومعاينة الوقائع، بعيدا من النزعة التعليمية والأحكام المعيارية...[1] والمقصود بالدراسة العلمية اتباع قدر معين من المنهجية والشمولية التي تتيح الإحاطة الموضوعية بكل مفاصل المادة اللغوية...

ويحدد جون ليونز عناصر الاختلاف بين الدراسة اللسانية وعلم اللغة كما كان متعارفاً به قبل القرن التاسع عشر في الخصائص الآتية :

1 ـ مبادئ اللسانيات : محمد قدور.ص11

1ـ اللسانيات تتصف بالاستقلالية، وهذا أهم مظاهر استقلاليتها، في حين أن النحو التقليدي كان يتصل بالفلسفة والمنطق، وكان خاضعا لهما في بعض الأحيان .

2ـ تهتم اللسانيات باللغة المنطوقة قبل المكتوبة، أما النحو التقليدي، فاهتمامه انصب على النص المكتوب.

3ـ عدم تفضيل الفصحى على غيرها من اللهجات[1]، فاللهجات على اختلافها وتعددها لا تقل أهمية عن سواها من مستويات الاستخدام اللغوية.

4ـ اللسانيات دراسة عامة تقوم على بناء نظرية لسانية يمكن تطبيقها على جميع اللغات الإنسانية.

5ــ لا تهتم اللسانيات بالتمييز بين اللغات البدائية والمتحضرة؛ لأنها كلها جديرة بالدرس والبحث العلميين.

6- تدرس اللسانيات اللغة ككل، وعلى صعيد واحد في تسلسل متدرج من الأصوات إلى الدلالة، مرورا بالجوانب الصرفية والنحوية.

وتعود أهمية الألسنية في التنظير الأدبي، والنقدي إلى كونها تتطور باستمرار، فتزيد من طاقاتها التفسيرية، وعلى الخصوص إلى كونها تستند إلى (النظرية السوسورية) في العلاقة، والعلاقات اللغوية التي كانت مسؤولة عن هذا التطور؛ فضلا عن أنها أرست قاعدة (البنيوية) في علم اللغة، والنقد الأدبي، ودعمتها كحركة فكرية تعد أشكال الحياة الاجتماعية والثقافية، خاضعة لمنظومات من العلاقات اللغوية، أو المنظومات الموازية للغة..

مفهوم العلاقة عند دي سوسور

ذهب دي سوسور إلى أن (اللغات) هي عبارة عن منظومات مكونة من علامات، وأن (العلاقة اللغوية) تتألف من عنصرين: الصورة الصوتية، أو بديلها

1 ـ ملاحظة: قد نعثر في اللهجات العربية على ألفاظ فصيحة مهجورة...

المكتوب، ويطلق دي سوسور عليها مصطلح: الدال، ثم المفهوم، ويطلق عليه مصطلح: المدلول، إلا أن العلاقة بينهما علاقة اعتباطية وفرقية، لأن الارتباط بينهما تواضع عرفي، وليس ثمرة علاقة طبيعية...

كيف نفهم إذاً قدرة العلامة على (الدلالة)، أو قدرة اللغة على (توليد المعنى)؟.. يجيب دي سوسور أن وظيفة العلامة تتوقف على علاقتها بالعلامات الأخرى، أو بدقة أكثر تتوقف على اختلافها عنها، فنحن لا نميز (الكلمات) بفضل خصائص لها أصيلة، بل بفضل اختلافها بعضها عن بعض، ويقول دي سوسور: - اللغة تشتمل فقط على فروق...

ينتج عن ذلك أن علينا كي ندرس الكيفية التي تؤدّي بها (اللغة) وظيفتها، جعل موضوع البحث، ليس العلامات الفردية، المنعزلة، بل أن تدرس (العلاقات) القائمة بين هذه العلامات؛ لأن (اللغة) ليست كتلة من الوقائع المنفصلة، وإنما هي (منظومة) مغلقة على نفسها، وظيفة كل عنصر فيها تتوقف على موقعه ضمن المجموع..

ومن هنا المقابلة التي يقيمها (دي سوسور)، داخل المنظومة اللغوية بين العلاقات الركنية، والعلاقات الترابطية، (العلاقات الركنية) سنتجماتيك هي العلاقات الأفقية الجمعية، مثل العلاقات التي تتألف منها كلمة: شجرة، و(العلاقات الترابطية) أسوسياتيف علاقات استبدالية، يقال عنها اليوم برادغمتية. هي تكملة لفكرة الطبيعة الفرقية التي للعلاقة اللغوية، إذ من أجل التمييز بين العناصر اللغوية، لا بد من الرجوع إلى علاقات الغياب..

نحن نتعرف إلى (المعنى)، ونضفيه على إحدى كلمات السلسلة المتعاقبة، من طريق وضعها ذهنياً أمام (خلفية) من الكلمات الأخرى غير واردة في السلسلة، هي في آن واحد تشبهها، وتختلف عنها.. وأن (الفرق) في اللغة لا يمكن أن يكون وظيفياً، إلا من خلال اقترانه بـ: التشابه، والاختلاف..

يضاف إلى ذلك أن (دي سوسور) يميز في دراسته للغة بين (المنظومة اللغوية)، وبين (الكلام) الذي تعززه وأيضاً تحدّده المنظومة اللغوية.. وفي رأيه أنه ينبغي على أي عالم يهدف إلى إظهار كيفية أداء اللغة وظيفتها، أن يتخذ من المنظومة اللغوية موضوعاً لبحثه، وليس الكلام..

البنية الوظيفية عند مدرسة براغ

مع مدرسة براغ، برز مفهوم (البنية) إلى الوجود، وصارت التحليلات البنيوية تشغل مكان الصدارة في البحث، ففي دراسة اللغة أصبحت (البنية) هي البديل عن مفهوم (العلاقات اللغوية) عند دي سوسور.. وفي دراسة الأدب حلت (البنية) محل (الشكل والأداء) عند الشكلانيين الروس..

فقد نظرت مدرسة براغ إلى الأدب على أنه (بنية)، فنظرت إلى العمل الشعري على أنه (بنية وظيفية) لا يمكن فهم عناصرها إلا من خلال ربطها بالمجموع.. ويقول (فاتشبيك) أنه ينبغي على العالم اللغوي دراسة القوانين البنيوية للمنظومات اللغوية كافة..

إن تعريف النص الأدبي بأنه (بنية) يعني النظر إليه كمجموعة من العلامات المترابطة، وليس كأداة، أو كشكل.. ويقول (موكاروفسكي) إن النص الأدبي يجب أن ينظر إليه على أنه (علاقة أحادية) حيث تكون الدوال والمدلولات خاضعة لمنظومة أحادية، ومعقدة من العلاقات.

ومن حيث أن هذا المفهوم الجديد لا يميز بين نصوص أدبية وبين أعمال اتصال عادية، راحت مدرسة براغ تشرح الفارق الذي بين البنيات الأدبية والشعرية، وبين البنيات غير الأدبية من طريق توسيع مفهومها الشكلاني عن (الوظيفة)..

كان مفهوم (الوظيفة) الشكلاني يتعلق بالأدوات الأدبية ضمن نصّ معيّن، فراحت مدرسة براغ تطبقه على أشكال اللغة عامة.. وقد عبر عن ذلك (جاكبسون)

في محاضرته: - الألسنية وأفق الشعرية - التي ألقاها أمام مؤتمر في أميركا عام 1958، وهي ترتكز إلى مقولات كان اقترحها (موكاروفسكي) قبل أعوام..

هناك في رأي (جاكبسون) ست وظائف مختلفة، تقابل العوامل الستة التي ينبغي توفرها في أية عملية اتصال، وهي: 1- الباث، أو المخاطب، بكسر الطاء، 2- المتلقي، أو المخاطب، بفتح الطاء، 3- السياق، 4- السنن أو الشيفرة، 5- وسيلة الاتصال، ثم 6- الرسالة نفسها..

إن (الوظيفة) تتألف بتركيز رسالة على أحد هذه العوامل، فالتركيز على (الباث) يعطي (الوظيفة الانفعالية) التي تعبر عن عواطفه، ومشاعره، والتركيز على (المتلقي) يعطي (الوظيفة الافهامية)، أو الطلبية، أي وظيفة التأثير على المتلقي، والتركيز على (السياق) يعطي (الوظيفة الإحالية)، أو المرجعية، والتركيز على (السنن) أو الشيفرة يعطي (الوظيفة الماوراء لغوية)، والتركيز على (الرسالة) نفسها يعطي (الوظيفة الشعرية).

إن النص الأدبي يتضمن عادة هذه الوظائف بدرجات متفاوتة، إذ هي تشكل تسلسلاً هرمياً بحسب الغلبة النسبية لكل منها.. فإذا كانت (الوظيفة الشعرية) هي الغالبة وصفت الرسالة بأنها أدبية، أو جمالية، ويحدث ذلك وفق مبدأ التغريب، وبذلك تمكنت (مدرسة براغ) من إبراز الخصائص المميزة للنص الأدبي، أو الشعري، وفي الوقت نفسه الإقرار بعلاقته بالمؤلف، وأيضاً بالسياق الاجتماعي.. وذلك لأن (الوظائف) مع غلبة إحداها على الأخرى في النص، وتمييزها له من غيره، تظل شيئاً من الوجود، وعلى الناقد أن لا يتجاهل ذلك، أو ينكر صلة الأدب بالواقع، بل بتدبّره، ويتدبّر الخصائص الداخلية للنص..

وهذا يعني أن مدرسة براغ أعادت طرح نظريات الشكلانيين، ودمجتها مع تصوراتها الخاصة في الألسنية، وعلى الخصوص وضعها في إطار سيميولوجي علامي، ويقول (موكاروفسكي) أن الأعمال الأدبية - حقائق أدبية- بمعنى أنها

تمثل أنواعاً مختلفة، ومعينة من العلاقات التي لا يمكن فهمها إلا ضمن نظرية عامة في العلامات...

اللغة واقع قائم بذاته

اللغة تنظيم

يعرف سوسور اللغة بأنها تنظيم من الإشارات المفارقة... وتتكون من كل منظم من العناصر لا يمكن دراسته إلا من حيث كونه يعمل كمجموع...ويشبه سوسور اللغة بلعبة الشطرنج؛ فإذا استبدلت قطع اللعب الخشبية بآخرى عاجية لا يكون لذلك أي تأثير في التنظيم... فيما إن زدت عدد القطع أو أنقصتها فسيكون لهذا التغيير تأثير عميق في قواعد اللعبة...[1]

اللغة والكلام

يفرق علماء اللغة المحدثون بين طبيعتين للغة الإنسانية؛ هما: اللغة (النظام اللغوي) (language)، والكلام (speech)، ويعود الفضل في هذا التفريق بينهما إلى عالم اللغة السويسري دي سوسير الذي يؤكد أن للغة وجهين؛ (أي: وجهين لعملة واحدة)، هما: 1- اللغة (النظام اللغوي) 2-الكلام، وبين الاثنين فروق:

1 ـ ميشال زكريا، الألسنية، بيروت، 198.، ص38

اللغة (النظام اللغوي)	الكلام
1- نظام من الإشارات مخزون في الذاكرة.	1 - استخدام تلك الإشارات لفهم رسالة، أو لإنتاجها؛ بوساطة شخص معين في مكان وزمان معينين.
2 - اللغة موجودة في حالة من الإمكان؛ أي وجود بالقوة؛ لأنها غير متحققة على الواقع، وإذا تحققت أصبحت كلاماً. والمخزون في الذاكرة هو انطباعات الأصوات الناتجة عن حركة أعضاء النطق أو اهتزاز طبلة الأذن. فضلا عن قدرات فطرية وقواعد صرفية ونحوية، ومخزون من المفردات.	2 - الكلام إيجاد بالفعل.
3 - اللغة تسمو فوق الفرد؛ إنها ملك للمجتمع الذي اختار هذا النظام للتفاهم بين أفراده. ولا يمكن أن تكون أداة اتصال إلا إذا كان يمتلكها جميع أفراد المجتمع الكلامي.	3 - الكلام استخدام اللغة بوساطة شخص معين؛ أي أنه فعل فردي.
4 -اللغة يتلقاها الفرد بشكل سلبي منذ صغره وحتى شيخوخته، ولا يملك من أمرها شيئاً، ولا يستطيع أن يغير فيها شيئاً.	4 - الفرد سيد كلامه، له الحق في الكلام أو السكوت. له الخيار في استخدام أساليب بلاغية في حدود قواعد اللغة، وله الحق في تأليف الكلام حسب المقام ومقتضى الحال. ويمكنه الجهر بكلامه أو الهمس به.
5 - اللغة ثابتة ذات طبيعة جامدة؛ لأنها قواعد محفوظة في الذاكرة بحسب طبيعتها العقلية السيكولوجية.	5 - الكلام ذو طبيعة متلاشية؛ فبمجرد انتهائك لفظ عبارة ما، ينتهي الكلام، بحكم طبيعته الفيزيائية غير الباقية.
6 - اللغة ذات طبيعة سيكولوجية نفسية؛ لأنها قواعد مخزنة في الذاكرة.	6 - الكلام ذو طبيعة سيكولوجية (نفسية)؛ لأنه علامات مرتبطة بمعان معينة، وذو طبيعة فيزيائية (طبيعية)؛ لأنه صوت يستقبل بالحواس السمعية، وله موجات يمكن أن تقاس.

الكفاية والأداء

فرق تشومسكي اعتماداً على آراء دي سوسير في اللغة والكلام، بين نوعين من القدرات اللغوية؛ هما: الكفاية (competence) والأداء (performance)، والفرق بين تصوري الرجلين هو أن "دي سوسير"، يرى الكفاية اللغوية مخزونة في العقل الجمعي، أما تشومسكي؛ فيرى أنها مخزونة في عقل الفرد.

ويسمي تشومسكي القدرة على إنتاج الجمل وتفهمها في عملية تكلم اللغة بالكفاية اللغوية... ويميز بين الكفاية الذاتية والأداء الكلامي... فالكفاية الذاتية هي معرفة الإنسان الضمنية للغته، والأداء الكلامي هو الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معين..[1]

المقدرة اللغوية (الكفاية)	الأداء اللغوي
الكفاية هي القواعد التي يمتلكها الشخص عن لغته؛ وهي إما قوالب وقدرات فطرية يولد الشخص مزودا بها، أو قواعد صوتية ونحوية اكتسبها من خلال احتكاكه بأفراد مجتمع كلامي معين.	استخدام القدرة اللغوية في موقف معين بوساطة متكلم معين. والأداء يتأثر بالظروف المصاحبة للكلام؛ كالتعب والضوضاء والدواعي الأسلوبية والجمالية للكلام.

الفرق بين الجملة والتعبير

التفريق بين الكفاية والأداء، يؤدي إلى التمييز بين الجملة (sentence) المرتبطة بقواعد الكفاية، والتعبير (utterance) المتعلق بالأداء.

1 ـ ميشال زكريا، الألسنية، بيروت، 198.، ص45

التعبير	الجملة
1- حدث كلامي معين.	1- هي هيآت مجردة وقواعد مخزنة في الذاكرة.
2-جزء من الأداء.	2- جزء من النظام اللغوي
3-التعبيرات المقبولة لا يعني بالضرورة أنها تحقق كامل للجمل النحوية الصحيحة.	3- بعض الجمل قد لا يتحقق كتعبير مقبول، نحو: "دارك تحترق مع أني لا أعتقد ذلك".
4-مرتبط بزمان معين وشخص معين.	4- الجملة غير مرتبطة بزمن معين أو مكان أو ظرف محدد.

الأسلوبيات

يذهب (ديفيد روبي) إلى أنه في أيامنا، أي في الربع الثالث من القرن العشرين، غالباً ما نعامل نظرية مدرسة براغ، أو نظرية جاكبسون في الوظيفة الشعرية على أنهما من - الأسلوبيات- مع أنهما لا تدعيان لنفسيهما ذلك، ثم يقول إنه يطلق مصطلح (أسلوبية) على: - الدراسة التي تركز على الأشكال الأدبية للنص- كما يطلق مصطلح (أسلوب) على: سياق الاستخدام الأدبي للغة...

وهناك في نظره، أربع طرائق تنظر بها الأسلوبية إلى لغة الأدب، وأسلوبه، وهي: 1- كون الأسلوب زخرفة، أو 2- كونه دلالة ذاتية أو 3- كونه تمثيلاً، أو 4- كونه نمطاً، ثم يوضحها، ويضرب عليها الأمثلة فيما يأتي:

الأسلوب كزخرفة

أقدم هذه الطرائق هي الطريقة التي تنظر إلى الأسلوب على أنه (زخرفة)، إذ كانوا يفترضون أن الكتابة تصبح جميلة عند إضافة الزخارف اللغوية إليها، كالمحسنات البديعية من جناسات وطباقات وما شابه.. ومع ذلك، لا بد من التنويه أن القدماء نادراً ما افترضوا أن (الأسلوب) يتحسن باستخدام التنميق،

على العكس، إن استخدام التنميق كان ينظر إليه وقتها، من خلال علاقته بدرجة الأسلوب، والمستوى الذي تقتضيه الأنواع المختلفة للكتابة..

الأسلوب كدلالة ذاتية

وهنا يقول (ديفيد روبي) أنه سيحلل رأي (ريفاتير) في الأسلوب، على الرغم من أن (الانحراف اللغوي) كما تمثلته مدرسة براغ، أو (التكافؤ) كما تمثله جاكبسون يخدمان تركيز الانتباه على الرسالة..

فقد أظهر (جاكبسون) أن (الوظيفة الشعرية) تتعلق بتصرف الكاتب، أو الشاعر بالمفردات، والتراكيب على جدولي (الاختبار، والتوزيع)، حيث قال: يُسقط أو يرمى مبدأ التكافؤ أو التعادل من (محور الاختيار)، إلى (محور التوزيع) فيرفع التكافؤ، أو التعادل إلى مرتبة الأداة المكونة للسلسلة المتعاقبة.

إلا أن (ريفاتير) يرد على جاكبسون في ذلك، بأن جاكبسون لا يميز الملامح اللغوية التي يمكن للقارئ إدراكها، عن الملامح التي لا يمكن له أن يدركها، أو هو لا يدركها فعلاً، ثم يضيف أنه ما دام أن (البنية اللغوية) تتضمن فقط العناصر التي تولد استجابة القارئ، فإن التشديد يجب أن يكون على القارئ..

وعلى هذه الشاكلة، فإن (الوظيفة الأسلوبية)، أي ما كان يقول جاكبسون عن وظيفة شعرية، تتكون فعلاً من أرجحية عامل (الرسالة) أو الميل في النص نحو الرسالة، إلا أن هذا الميل في نظر ريفاتير ليس نتاجاً للتعادلات، أو لخرق عرف خارجي، وإنما هي ثمرة خرق (داخل النص) نفسه، إذْ يمكن للغة العادية أن تكون مصدراً للتأثير الأسلوبي، وأن الحكم في ذلك هو (القارئ)..

ومن هنا ذهب (ريفاتير) إلى عد (الأسلوب) مصدراً مهماً من مصادر التأثير الأدبي، وعرّف (الأسلوب) بأنه يتكون من تأسيس نمطٍ معينٍ من الانتظام اللغوي الذي يؤدي إلى إثارة توقعات لدى القارئ.. في حين كان (جاكبسون) يعرّف

(الأسلوب) بأنه تكافؤ، أو تعادل في المزج بين جدولي (الاختيار، والتوزيع)ـ أي ما كان يقول عنه دي سوسور العلاقات الركنية، والعلاقات الترابطية..

الأسلوب كتمثيل

يقول (ديفيد روبي) أنه يعني بـ (التمثيل) استخدام اللغة بهدف عكس محتوى النص، أو تعزيزه، أسوة بمبدأ بوب بأن على الصوت أن يكون صدى للمعنى - ويتجلى (التمثيل) في الائتلاف الصوتي، وأثره في الرمزية الصوتية.. وأن (أسلوبيات) التمثيل التي في رأيه يمثلها (سبتزر)، تعمق الصلة التي بين الملامح الفردية للغة النص، وبين الملامح الفردية التي لمضمونه..

وفي مجموعة من المقالات نشرها عام 1948 تحت عنوان: - الألسنية والتاريخ الأدبي- يطلق (سبتزر) على منهجه في التحليل الأسلوبي تسمية (الدائرة الفيلولوجية)، حيث يذهب إلى أن عملية (الدراسة الأسلوبية) عليها أن تبدأ من أي (تفصيل في النص يلفت اهتمام المحلل، سواء لأنه يمثل انحرافاً عن أنماط الكتابة القائمة، أو لأنه يمتلك دلالة على العمل الأدبي ككل)..

إن الخطوة الأولى في نظر سبتزر (خطوة حدسية)، يربطها المحلل بانطباعه عن مجمل العمل الأدبي، أو بشعوره حياله، ما يفضي به إلى تعديل ذلك الانطباع، ثم يرجع المحلل بحركة دائرية (رحلة الذهاب والإياب) إلى تفاصيل أخرى بغية ربطها بالانطباع العام لكلٍ عضويٍ، وبذلك يتوصل المحلل إلى الأصل الروحي المشترك، إلى الجذر السيكولوجي لتعدد مزايا النص اللغوية.

وقد حلل (سبتزر) قصيدة للشاعر (ييتس)، هي: "ليدا وطائر التم" التي تتحدث عن اغتصاب زيوس لليدا، فيركز على متتالية الزمان/ المكان..

وفي نظر سبتزر تعرض القصيدة (مفارقة) هي أن القوة الطاغية للحظة واحدة تولّد أحداثاً لا يتضح معناها إلا على (امتداد) الزمان، ويقترح سبتزر أن

تكون القصيدة احتجاجاً على الآلهة التي تسمح للجنس أن يكون نتاجاً للقوة غير المصحوبة بالمعرفة، في الوقت الذي تجعل منه قوة حاسمة..

المهم، أن سبتزر أقام تحليلاته بحركة بين الوصف المحدد للبنيات اللغوية، وبين (تفسير) معنى القصيدة ككل، فأظهر صلة المضمون باللغة..

إلا أن الملاحظ هنا هو أن هذا الاتجاه التحليلي إذ كان يوافق اتجاه مدرسة براغ في (الاهتمام بالمضمون)، إلا أن مدرسة براغ كانت تعالج المضمون كمنظومة علامية ترتبط عناصرها في ما بينها، في حين أن (سبتزر) عالجه في إطار الانطباع الإجمالي الذي تركه في المحلل... والذي ربط التناسل بالحدث المأسوي الذي في مولد هيلين، وحرب طروادة..

الأسلوب كنمط

يقول (ديفيد روبي) إن (النمط) هو الطريقة التي يمكن أن نميّز بها نصاً ما، أو مجمل أعمال مؤلف ما، أو أعمال مجموعة من الكتاب، أو حقبة أدبية بكاملها، وفق نماذج نمطية من الاستخدام اللغوي.. وبذلك هو يربط عادة بأمور واقعية خارج النص، مثل فلسفة المؤلف، أو مثل حركة أدبية..

ويدل (ديفيد روبي) على هذه الطريقة بالتحليل الأسلوبي الذي قام به العالم الألسني (هاليداي) لقصيدة (ييتس)، سابقة الذكر: "ليدا وطائر التم"، فهو تحليل يؤكد فقط النماذج الأدبية اللغوية المتميزة في النص، من دون ربطها، أو ربط النص بعوامل خارجية..

فقد قدم (هاليداي) في مقالة بعنوان: - الألسنية الوصفية في الدراسات الأدبية- تحليلاً أسلوبياً لقصيدة ييتس، إلا أنه طرح فيها نقاطاً مختلفة عن النقاط التي كان سبتزر قد طرحها، وهي:

1- إن لجوء ييتس المتكرر إلى (أداة التعريف)، ضمن تراكيب تتألف من

اسم تسبقه صفة هو لجوء غير عادي، لدرجة أن (الأداة) فيه لا تعود تعرف شيئاً..

2- إن الكلمات الفعلية في القصيدة قد جردت من (الصيغة الفعلية) إلى حد بعيد، فأغلبها أسماء فاعل، أو أسماء مفعول، أو مصادر، وفي ذلك مبالغة في الاستخدام..

3- كلما قلّت (فعلية الأفعال) في القصيدة، عظمت طاقة معناها الجذري، ما جعل بعض الكلمات تظهر بمظهر أقوى، مع أنها أقل فعلية..

***

وبذلك قدم (هاليداي) وصفاً للملامح اللغوية التي تميّز النصّ، من دون أن يتطرق إلى أي تفسير للعمل الأدبي، كما فعل سبتزر.. ناهيك عن أن محاولة (سبتزر) تتصل بمحاولات منظري التفسير الألمان، خصوصا ديلثي، ونظريته في الدائرة التفسيرية..

وأما (هاليداي)، فإنه يترك (الدلالة الأدبية) للمتخصص الأدبي.. وفي رأيه أنه ليس بمقدور (الألسنية) أن تقدم مفتاحاً للسمات الأدبية الخصوصية، أو دليلاً للتفسير، وإنما كل ما هي تستطيع فعله هو تقديم وسيلة لوصف النص، على أساس نظرية لغوية عامة..

وهذا معناه أن عمل المحلل الألسني يقتصر على (ربط النص) باللغة التي كتب بها، وبذلك تصبح (الأسلوبيات) دراسة مقارنة لأنماط التفضيلات التي يظهرها الكاتب في اختصاره للغته، ضمن المصادر اللغوية التي في متناوله.. أو لنقل بعبارة أخرى، تدرس (الأسلوبيات) تواترات الاختيار النسبية التي تميز لغة النص عن لغة غيره، أي هي، كما يقول (هاليداي): - تطبيق للألسنية، أكثر منها توسيع لها.

مهام اللسانيات:

يحدد سوسير مهام اللسانيات في الأمور الآتية:

1 ـ البحث عن القوى الموجودة في اللغات كافة وبطريقة شمولية متواصلة، ثم استخلاص القوانين العامة التي يمكن أن ترد إليها كل ظواهر التاريخ الخاصة .

2 ـ تقديم وصف وتاريخ مجموع اللغات، وهذا يعني سرد تاريخ الأسر اللغوية، وإعادة بناء اللغات الأم في كل منها .

3-تحديد نفسها والاعتراف بنفسها، يقول سوسير: "يتكون موضوع اللسان أولا من جميع مظاهر اللغة الإنسانية وتعبيراتها؛ سواء منها لغة الشعوب البدائية أو الشعوب المتحضرة، وسواء تعلق الأمر بالعصور المغرقة في القدم، نقصد العصور الكلاسيكية، أو عصور عهد الانحطاط، آخذين في الحسبان، بالنسبة إلى كل مرحلة؛ لا اللغة السليمة واللغة الممتازة فقط، بل كل أصناف التعبير وأشكاله...[1]

وقد حدد سوسير المراحل المؤرخة لعلم اللسان في ثلاث مراحل:

-الأولى: علم النحو عند القدماء الذي عرف استمرارا مع بوررويال، وما يميز هذه المرحلة انبناؤها على المنطق والتفسير العقلي والمعيارية ، وكانت غاية هذه الدراسة تنحصر على وجه التحديد في إيجاد قواعد من شأنها أن تميز الصيغ الإعرابية الصحيحة من الصيغ الخاطئة؛ فهي إذاً دراسة معيارية بعيدة كل البعد من الملاحظة الخالصة، وهي بالضرورة وجهة نظر ضيقة من هذه الناحية[5]» .

-الثانية: مرحلة فقه اللغة الذي اهتم بالنصوص وتأويلها وتحليلها، ولم يتخصص بالدراسة اللغوية، «فإن أراد أن يتناول المسائل اللسانية، فإنما يفعل ذلك من أجل أن يقارن بين نصوص مختلفة، وأن يحدد اللغة الخاصة لكل مؤلف، ويحاول أن

---

1 ـ محاضرات في الألسنية العامة : سوسير ص14

يهتدي إلى ما كتب في لغة قديمة أو غامضة، وأن يفسر تلك الكتابة»[1]، ومشكلة فقه اللغة أنه ارتبط باللغة المكتوبة لا المنطوقة...

-الثالثة: مرحلة النحو المقارن أو الفقه المقارن، ويقيم سوسير هذا النحو بقوله: "إن الخطأ الأول الذي تولدت عنه سائر الأخطاء الأخرى، كون النحو المقارن لم يتساءل في أبحاثه قط، وهي أبحاث محصورة مع ذلك باللغات الهند أوربية، عما إذا كانت مقارناته ومقارباته لها ما يقابلها في الواقع، وعلى أي شيء تدل هذه العلاقات التي يكتشفها".

وتتفق جل الدراسات المؤرخة لظهور اللسانيات كعلم مختص في الدراسة العلمية للغة، على أن المقدمات الممهدة لبروزه توجد في ما عرف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحت مسمى النحو التاريخي والمقارن... فإلى حدود القرن الثامن عشر كانت الدراسات اللغوية في أوروبا قليلة ومحدودة يعوزها التنظيم، وتفتقر إلى المنهج العلمي المؤسس على الموضوعية والشمولية، واقتصرت على اللغتين المنقرضتين الإغريقية واللاتينية وبعض اللغات الأوروبية الحديثة، ولم يتجاوز الدرس اللغوي ذلك إلا في بعض دراسات قليلة تناول بها المستشرقون بعض اللغات السامية وبعض اللغات القديمة في جنوبي الهند.

وفي نهاية القرن الثامن عشر، حدث تحول مهم في الدراسة اللغوية في أوروبا، فقد اكتشف السير وليم جونز وهو قاض انكليزي في البنغال، في العام 1786 اللغة السنسكريتية، وعدت هذه السنة علامة مفصلية في تاريخ البحث اللغوي؛ حيث قدم السير جونز الذي كان قاضيا في المحكمة البريطانية بالهند ورقته في الجمعية الملكية الآسيوية في كلكتا، مثبتا القرابة التاريخية للسنسكريتية، اللغة الكلاسيكية للهند، مع اللاتينية واليونانية والجرمانية . ويقول في هذا التقرير

1 ـ زياد سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ص8

المشهور وذائع الصيت: "اللغة السنسكريتية مهما يكن قدمها، لغة ذات تركيب عجيب، وهي أكثر كمالا من اليونانية وأغزر إنتاجا من اللاتيتنية، وأكثر منهما تهذيبا بشكل رائع، وهي فوق ذلك على قرابة بكل منهما في جذور الأفعال وصور القواعد معا، قرابة أقوى من أن تكون نتاجا للمصادفة، وهي قرابة قوية في الواقع لدرجة أن أي عالم في "الفللجيا" لا يمكنه أن يفحص اللغات الثلاث جميعا، من دون أن يعتقد أنها نشأت عن أصل معين مشترك ربما لم يكن موجودا، فضلا عن أن هناك مسوغا مشابها مع أنه ليس قويا تماما لافتراض أن كلاًّ من القوطية والسلتية تشتركان في الأصل نفسه مع السنسكريتية».

وعند ظهور هذا الاكتشاف، تحولت أنظار علماء اللغة الأوربيين الى اللغة السنسكريتية والى وجوه الصلة بينها وبين لغاتهم، فبدأ الدرس اللغوي الحقيقي الحديث في القرن التاسع عشر، ولكن هذا الدرس اتخذ الطابع التاريخي المقارن، حتى صار هذا القرن يسمى قرن التاريخ اللغوي المقارن.

علما أن الحديث عن السنسكريتية ليس جديدا كل الجدة، إذ أورد روبنز في كتابه أن أول إشارة معروفة للسنسكريتية قد كانت في نهاية ق 16، عندما كتب الإيطالي فيليبو ساستي إلى وطنه من الهند واصفا اللغة السنسكريتية بإعجاب، ومشيرا إلى عدد من التشابهات بين كلمات سنسكريتية وكلمات إيطالية... وبعد ذلك جرت ملاحظة تشابه بين السنسكريتية وبعض اللغات الأوربية من الألماني ب.شولز والفرنسي بيير كوردو...

3 ـ النحو المقارن: مبادئ وأسس :أتاحت السنسكريتية مجالا واسعا للمقارنة. فقد ركز علماء اللغة مع بداية القرن التاسع عشر على التحليل المقارن للغة، بدراسة النصوص المكتوبة، واكتشاف عناصر التشابه بين لغة وأخرى، وملاحظة التغيرات التي تطرأ على اللغة عبر الزمن، ومقارنة التغيرات التاريخية بين اللغات المتشابهة... وهو لم يكن أسلوبا خاصا باللغويين، بل كان سائدا في

الدراسات العلمية السائدة آنئذ، خصوصا علم التشريح والحياة... ويبرز ذلك في كتابات العالم الألماني شيلجل الذي قرر في كتاب له نشر في العام 1808 أن الوسيلة الوحيدة في إثبات الصلة بين أفراد مجموعة لغوية هو الشبه في نحوها وتراكيبها، وليس في الألفاظ المشتركة بينها اعتمادا على الوسيلة التي توسل بها علم التشريح في تعريفه لظهور الكائن البشري... ويبرز ذلك على الخصوص في استمداد العلم اللغوي جهازه الاصطلاحي من العلوم الحية...

لقد اثبت شليجل صلات التشابه الكثيرة التي تربط اللغات الأوربية والهندية والآرية بعضها ببعض في كتابه "خلاصة النحو المقارن للغات الهندية الجرمانية"...

وقدم العالم الألماني جريم المتوفى 1863، دراسة للتقابلات الصوتية بين اللغات الجرمانية وغيرها من اللغات الهند اوروبية، مستنبطا بذلك قوانين صوتية تتحكم في هذا التقابل، سميت قوانين جريم...لكن أشهر مؤسس للقواعد المقارنة هو بوب صاحب "في نظام تصريف اللغة السنسكريتية ومقارنته بالأنظمة الصرفية المعروفة في اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية"... يقول سوسير :"فلم يستحق إذاً بوب كل تقدير لكونه قد اكتشف أن اللغة السنسكريتية ذات قرابة ببعض اللغات الأوربية والآسيوية، بل لكونه قد فهم أن العلاقات بين اللغات ذات الأصل الواحد يمكن أن تصبح موضوعا ومادة لعلم مستقل"، من هنا أتت أهمية دراسة بوب التي استفاد منها العديد من الدارسين مثل ماكس مولر وجورج كوتيوس وأوغست شليشر .

ويتحدد منهج النحو المقارن بالتطبيق على المجموعات اللغوية المنتسبة إلى أصل واحد بعيد... فالنحو المقارن يهيئ السبيل لتصنيف اللغات بحسب خصائصها ولتجميعها في عائلات... فبمقارنة الأصوات والأشكال المستعملة في مجموعة من اللغات تظهر الأصوات والأشكال التي استحدثتها هذه اللغة أو تلك،

وتتحدد الأصوات أو الأشكال القديمة التي احتفظت بها هذه أو تلك".

4-النحاة الجدد وظهور اللسانيات التاريخية :

عرف القرن التاسع عشر مرحلتين أساسيتين في الدراسة اللغوية: حقبة المقارنة وحقبة اللسانيات التاريخية... وإن كان من الصعب وضع تصنيف مضبوط وعلمي للمرحلتين، فقد اتفق على أن الأولى تميزت بسيطرة الأبحاث المنشغلة بالبحث في القرابة بين اللغات، ثم انتقلت على البحث الجزئي في التطور اللغوي الذي سيكتمل مع النحاة الجدد ما بين 1876 ـ 1886 ؛ أي أن البداية كانت مقارنة ثم غدت تاريخية، وتنبع أهمية إسهامات النحاة الجدد من أن وصف اللسان الأم الذي يتمثل في الهندي الأوربي، يرتكز على الوقائع الصوتية أكثر مما يرتكز على الوقائع الصرفية والتركيبية، فقد وضعوا قوانين صارمة لبحث الصلات المشتركة بين الكلمات التي تنتمي إلى ألسن مختلفة بحثا مقارنا، فمن هم النحاة الجدد؟ ولِمَ ظهروا في هذا القرن بالذات؟

يعد القرن التاسع عشر قرن النزعة التطورية الداروينية...فقد أثرت نظرية داروين حول أصل الأنواع والتطور في مناهج العلوم والفلسفة، ما انعكس على الدرس اللغوي... فقد نظر اللغويون إلى اللغات واللهجات على انها كائنات يمكن تصنيفها بحسب أنواعها... وتتطور تطور النباتات والحيوانات...

وشكل النحاة الجدد تمهيدا للدرس اللساني؛ بحيث نقلوا البحث اللغوي إلى مرحلة العلمية، حين أبعدوا كل الممارسات الميثولوجية والعاطفية التي تقارب اللغة وفق رؤية انتمائية... واهتموا إلى حد كبير بدراسة اللهجات بوصفها ممارسات لغوية كاملة بدل تصورها انحرافات عن الأصل اللغوي كما قال النحو التقليدي المعياري وفق مبدأ الصواب والخطأ؛ لكنهم رأوا فيها ميدانا حيويا لما تظهره من التغير اللغوي ما دامت تمثل المرحلة الأخيرة في تنوع الأسرة الهند أوربية .

وجرت مراجعة مقولة إن السنسكريتية هي أقدم اللغات كما تصور نحاة القرن التاسع عشر، مع محاولة تقديم معالجة للإشكالات الصوتية التي اعترضت سبيل الباحثين، والاعتراض على مثل هذه الفرضيات التي لا تسدي للبحث العلمي أية فائدة ... وتأكيد صرامة القوانين الصوتية وانعدام الاستثناء الأصواتي .

يذكر أن اللسانيات تجعل موضوعها منحصراً في الجملة (فونيمات، مورفيمات، مركبات)، غير معيرة اهتماماً يذكر لما بعد الجملة الذي يشكل المحور الرئيس لنظرية النصّ، ما يجعلها عاجزة لوحدها عن فهم الخطاب، وذلك لأن تحليل الجملة هو مستوى أصغر ضمن مستوى أكبر هو النصّ. ومن هنا فإن (تحليل الخطاب) يبقى محدوداً، لأنه لا يستطيع تحديد السمة أو الخصوصية التي تجعل من عمل معطى عملاً أدبياً. ولهذا تتضافر عدة فروع معرفية: كالأسلوبية، والتحليل الحكائي، وتحليل الخطاب، ولسانيات الجملة، والتحليل النفسي، وحتى المادية الجدلية... من أجل إنتاج هذا الموضوع الجديد الذي هو (النصّ).

- بين علم الدلالة وعلم اللسانيات:

إن نشأة علم الدلالة، لم تكن نشأة مستقلة عن علوم اللغة الأخرى. إنما كان يعد هذا العلم جزءاً لصيقاً بعلم اللسانيات الذي كان يهتم بدراسة اللسان البشري، إلا أن عدم اهتمام علماء اللسانيات بدلالة الكلمات- كما أشار إلى ذلك (بريال)- هو الذي كان دافعاً لبعض العلماء اللغويين إلى البحث عن مجال علمي يضم بحثاً في جوهر الكلمات ودلالاتها، لكي يحددوا ضمنه موضوعاته ومعاييره وقواعده ومناهجه وأدواته... وما كان ذلك يسيراً، خصوصا إذا علمنا ذلك التداخل المتشابك الذي كان يجمع بين علوم اللغة مجتمعة وعلم الألسنية الذي ذهب علماؤه إلى تفريعه إلى مباحث جمعت بين حقول مختلفة من العلوم كما هو شأن اللسانيات النفسية (psycolinguistique)، ومبحث اللسانيات العصبية

euro-linguistique وما إلى ذلك.

إن العلم اللساني كان يهتم بوصف الجوانب الصورية للغة ويتجنب الخوض في استبطان جوهر الكلمات ومعانيها الذي أصبح من اهتمامات علم الدلالة (الحديث)، ثم إن ضرورة الإحاطة ببعد اللغة الاجتماعي والثقافي والنفسي وتتبع سيرورة المعنى الديناميكي... كل هذه حواجز وقفت أمام علماء اللسانيات، فاستبعدوا بذلك الخوض في دراسة المعنى وركزوا بحوثهم على شكل الكلمات، إلى أن برز علم الدلالة ليسد هذا الفراغ في الدراسات اللغوية من جهة، ويعمق البحث في الجانب الدلالي للغة من جهة أخرى، ويجتاز تلك الحواجز التي حالت دون أن يخوض اللسانيون في دراسة المعنى، "لأن علم الدلالة هو ميدان يتجاوز حدود اللسانيات التي يتعين عليها وصف الجوانب الصورية للغة قبل كل شيء، فالدلالة ليست ظاهرة لغوية صرفاً، وإذا كان بالإمكان بناء الحقول الدلالية فإنه ينبغي آنذاك الاعتماد على المعطيات الخارجية فقط..(...)

إن بعد اللغة الاجتماعي والثقافي من العوائق التي تقف أمام الدراسات الدلالية الحديثة، ويمكن تحديد ذلك في ما يأتي:

أ- تعدد القيم الحافة بدلالة الألفاظ المركزية.

ب- إن دلالة اللفظ ليست ظاهرة... ويمكنها أن تعتني دوماً بحسب التجارب الجديدة (اللغوية وغيرها التي يخبرها المتكلم)"[1].

إن هذه المباحث المتشعبة التي هي من صميم اهتمامات علم الدلالة، هي التي دفعت علماء الألسنية ومنهم التوزيعيين[2] إلى إبعاد دراسة الدلالة من اللسانيات.

1 ـ سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ترجمة محمد يحياتين، ص28.

2 ـ التوزيعية: نظرية تزعمها العالم اللغوي الأمريكي بلومفيلد وهي نظرية عامة للألسنية ترى أن اللغة تتألف من إشارات معبرة تتدرج جميعاً ضمن نظام اللغة لمنطق يكون التعبير على مستويات مختلفة والجملة تحمل إلى مؤلفاتها المباشرة بواسطة قواعد التوزيع والتعويض والاستبدال.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن دراسة المعنى لم تخل منه أي مباحث لغوية؛ سواء أكانت قديمة أم حديثة، آية ذلك أنه لا يمكن تصور دراسة الكلمات وهي جوفاء خالية من الدلالات. وهذا ما عبر عنه سوسير في سياق حديثه عن الدال والمدلول وشبه اتحاد الكلمات ودلالتها بوجهي الورقة الواحدة.

إن علم الدلالة كمبحث من المباحث اللغوية بحسب ماهية اللسانيات، يهتم بحلقة من حلقات علم اللسان البشري، هذه الحلقة تكمن في المظهر الإبلاغي وما يتعلق به، فالرسالة الإبلاغية هي التي تضطلع بنقل دلالة الخطاب إلى المتلقي بحيث يتم- في الحالات العادية- استيعابها استيعاباً كافياً، "فالدراسة اللسانية لا تقف عند تشخيص الحدث اللغوي في مستواه الأدائي، ولكن في سلكه الدائري، إذ تهتم اللسانيات بتولد الحدث وبلوغه وظيفته ثم بتحقيقه مردوده عندما يولد رد الفعل المنشود، وهكذا يكون موضوع علم اللسان اللغة في مظهرها الأدائي ومظهرها الإبلاغي وأخيراً في مظهرها التواصلي.[1]

لقد ولجت اللسانيات كل مجالات الاتصالات الإنسانية حتى غدت ملتقى لكل العلوم الإنسانية واعتمدت في الخطاب بأنواعه، ولا يمكن أن نقيم هذا الدور الرائد في مجالات الحياة للألسنية من دون أن نقر بحضور الدلالة في ذلك، كفرع أساسي ومهم في فعالية الخطاب "فاللسانيات تستلهم الظاهرة اللغوية ونواميسها من مصادر لسانية وغير لسانية، فتعمد إلى إجراء مقطع عمودي على كل منتجات الفكر، بمنظور مخصوص، فبعد البحث عن خصائص الخطاب الإخباري والخطاب الشعري الأدبي، تعمد اللسانيات إلى دراسة نواميس الخطاب العلمي والقضائي والإشهاري والديني والمذهبي.[2]

ولم يكن للألسنية هذا الاهتمام الواسع باللغة الإنسانية، إلا بعد أن ظهرت في

---

1 ـ د.عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص81.

2 ـ المرجع السابق، ص-16**8.

أوربا مدارس بنيوية عاينت الظاهرة اللغوية من كل جوانبها: الجانب الصوتي، والجانب المعجمي، والجانب التركيبي والجانب الدلالي، واستقر لديها أن "الألسنية هي دراسة اللغة بحد ذاتها دراسة علمية، وتحليل خصائصها النوعية، بغية الوصول إلى نواميس عملها"[1]. وأن "اللغة تنظيم، وهذا التنظيم وظيفي، يتوسله الإنسان للتعبير عن أغراضه ولعملية التواصل" فلم تعد الألسنية تهتم بشكل الكلمات فحسب، بل أعطت لجوهر هذه الكلمات أهمية كبيرة، بعد ما تأكد لدى علماء الألسنية، أن البحث الألسني يبقى ناقصاً ما لم يهتم بجوانب اللغة جميعها، ويظل حكمه على الظواهر اللغوية يفتقد إلى طابع المعيارية التي تسم ديناميكية اللغة وفعاليتها بسمة التقعيد. ولم يحصل هذا الوعي اللغوي في البحث الألسني إلا مع العلماء اللغويين المتأخرين كالعالم الأمريكي "بلومفيلد" الذي كان يرى أن الدراسة الألسنية، لا تنحصر بدراسة الأصوات والدلالات اللغوية بذاتها، بل تشمل دراسة الارتباط القائم بين أصوات معينة ودلالات معينة (...)، وجدير بالذكر أن مفهوم ارتباط الصوت اللغوي بالدلالة، قد تبنته الألسنية بصورة عامة.[2]

وبعد هذا التزاوج الذي لزم علم الألسنية الأخذ به، تبين لعلماء اللغة المحدثين أن الجانب الدلالي في اللغة لا يزال البحث فيه هزيلاً كما كان في القديم، وأنه محتاج إلى نظرة أخرى على مستوى البحث وعلى مستوى المنهج، على الرغم مما قدمته العلوم المستحدثة من نظريات أنارت جوانب مهمة من علم الدلالة كنظريات الإعلام والتواصل والمعلوماتية. يقول في ذلك الكاتبان: ريمون طحان ودينز بيطار طحان: "يقترن الكلام أو الأصوات، بنظريات الدلالة العامة، وكان علم الدلالة الجزء الهزيل من النظريات الألسنية، وقد أصبح يفضل نظريات الإعلام والتواصل والمعلوماتية، مزوداً بمؤشرات سليمة منها أن المتكلمين بلغة واحدة يتبنون المعنى

1 ـ ريمون طحان، دينز بيطار، فنون التقعيد وعلوم الألسنية، ص92.

2 ـ د.ميشال زكريا، انظر الألسنية (علم اللغة الحديث): ص232 - 233.

الواحد في الكلام الواحد أو الجملة الواحدة"[1].

وبعد ذلك توفر لعلم الدلالة وجود مستقل، وإن بقيت تربطه بعلوم اللغة الأخرى- وخاصة الألسنية- وشائج تتجلى بصورة واضحة في مجالات البحث. حيث يبرز التقاطع بين هذه العلوم مجتمعة. ولكن ما يميز البحث الدلالي، هو عمق الدراسة في معنى الكلمات والتراكيب متخذاً في ذلك منهجاً خاصاً يتوخى المعيارية في اللغة والكلام، "والعلوم إذا اختلفت في المنهج تباينت في الهوية وقوام العلوم ليست فحسب مواضيع بحثها وإنما يستقيم العلم بموضوع ومنهج".[2] وتبعاً لذلك اتسع نطاق البحث الدلالي، وأحرز علماء العرب سبقاً في هذا المجال حيث برز لغويون كثيرون وضعوا نظريات مختلفة وأرسوا بذلك قواعد أضحت مدارس دلالية، تنظر إلى قضية "المعنى" بنظريات مختلفة، وداخل المنهج الأوحد للبحث الدلالي ظهرت مناهج فرعية رأى أصحابها نجاعتها في تقديم الأجوبة الكافية لمختلف المسائل التي طرحت في الدراسات الدلالية، والتي عجز عنها البحث اللغوي قبلها، ولكن ما هي القضايا الأساسية التي طرحها الدرس الدلالي الحديث؟ وما هي المباحث اللغوية التي اختص بها علم الدلالة حتى غدت مجالاً خاصاً به، تعبر عن خصوصية هذا العلم واستقلاله عن بقية العلوم اللغوية الأخرى؟

---

1 ـ فنون التقعيد وعلوم الألسنية، ص1.5.

2 ـ عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص41.

اللسانيات المقارنة

تهدف الألسنية المقارنة إلى تبيان أثر الاحتكاك بين اللغات (الفرنسية والعربية، أو الإنجليزية والعربية)، ولها علاقة واضحة بعلم اللغة الاجتماعي...

يمكن من خلال الألسنية المقارنة تبيان أثر السريانية في العربية وهما تنتميان إلى أصل واحد...

ويمكن أن نتناول مثلاً دراسة نطق اللبناني للغة الفرنسية... والاستفادة منه في تسهيل مهمة تعليم الفرنسية للبنانيين، كما يسهم هذا العلم في تخليص الفرنسية من الآثار الصوتية ذات الطابع الاجنبي... ومن مجالاته أيضا:

- دراسة الصوائت (النسق الصائتي للفرنسية والعربية الفصحى واللبنانية)...
- دراسة انصاف الصوائت...
- دراسة الصوامت (النسق الصامتي للفرنسية والعربية الفصحى واللبنانية)...
- مقارنة الانسقة الثلاثة...
- دراسة مسائل متعددة منها الصوامت المطبقة، والتضعيف، ودراسة التكوين المقطعي، وتجاوز صائتي... والتقاء صامتي، والنبر والتنغيم...

-المقارنة بين اللغة العربية واللغة الفرنسية، أو بين اللغة العربية واللغة الانكليزية في المستوى الفونولوجي والمستوى التركيبي... من خلال اعتماد نظرية ألسنية واحدة في مجال وصف اللغتين.

ويتضمن هذا العلم أيضا:

- التنظيم الفونولوجي العربي.

- التنظيم الفونولوجي الفرنسي (أو الإنكليزي)، أو...

- المقارنة بين التنظيمين...

- قواعد اللغة العربية...

- قواعد اللغة الفرنسية (أو الانكليزية).

- المقارنة بين قواعد اللغة العربية وقواعد اللغة الفرنسية (او الانكليزية).

نشوء اللسانيات المقارنة

علم تأسس على يد السير ويليام جونز في نهاية القرن الثامن عشر... لدراسة النصوص المكتوبة وتحليلها في لغات مختلفة ذات صلة، وأشار إلى وجود علاقة بين اللغات اللاتينية واليونانية، والسنسكريتية... توحي بنشوئها من مصدر واحد، نتيجة ما لاحظه من تشابه معانٍ (أصوات متشابهة) في اللغات الثلاث... فعلى سبيل المثال كلمة frater اللاتينية، وكلمة phrater اليونانية، وكلمة bhratar في اللغة السنسكريتية تعني كلها (أخ)...ما دفع بعض علماء اللسانيات لدراسة العلاقة بين اللغات المختلفة، والتفاعلات الناشئة عن حوار متحدثين من خلفيات ثقافية مختلفة، بهدف مساعدة الراغبين في تعلم لغات غير لغتهم الأصلية، واهتمت اللسانيات بدراسة كيفية تشكل كلمات تكون معاني متشابهة في لغات مختلفة، وعمل دراسات مقارنة على هذه اللغات، وأطلق على عناصر التشابه بين اللغات مصطلح صلة القرابةrelationships genetic، وكون اللسانيين من كل مجموعة من اللغات ذات المنشأ الواحد عائلة لغوية صاغوها على شكل (شجرة عائلة) من أشهر هذه العائلات:

- شجرة اللغات الهند أوروبية: وتضم السنسكريتية، واليونانية، واللاتينية، والإنجليزية، والألمانية، ولغات أوروبية وأسيوية أخرى.

- شجرة لغات الجونكويان Algonquian: لغات سكان أمريكا الشمالية الأصليين.
- شجرة لغة البانتو: تضم اللغة السواحيلية، والهوسا، والزولو ولغات أفريقية أخرى.
- شجرة اللغات الأفرو آسيوية: كانت تسمى اللغات الحامية السامية وهي العائلة اللغوية الأساسية السائدة في الشمال الإفريقي والشرق الأوسط. وتنقسم إلى خمس عائلات فرعية هي: السامية، والبربرية، والمصرية، والكوشية، والتشادية، وتنتمي اللغة العربية إلى مجموعة من أربع مجموعات تُقسم إليها اللغات السامية:
  - المجموعة الأولى (مجموعة الشمال الأقصى) وتمثلها اللغة الأكادية (الأشورية البابلية) أقدم اللغات السامية الموثقة، وسادت بلاد ما بين النهرين خلال الحقبة من العام 3000 ق.م حتى القرن الميلادي الأول.
  - المجموعة الثانية (مجموعة الشمال الأوسط) وتضم اللغة العبرية القديمة والحديثة، والأوغاريتية، والفينيقية، والآرامية، والسريانية التي تسمى أحياناً (الآرامية المسيحية).
  - المجموعة الثالثة (مجموعة الجنوب الأوسط) وتضم اللغة العربية الفصحى، واللهجات العربية الإقليمية الحديثة، واللغة المالطية.
  - المجموعة الرابعة (مجموعة الجنوب الأقصى) وتضم لهجات جنوب الجزيرة العربية المنحدرة من أصول قديمة؛ كلغة مملكتي معين وسبأ، واللغة الأمهرية، واللغة الإثيوبية التقليدية ولغات أثيوبية إقليمية مثل التيجري Tigré والتيجرينيا Tigrinya والجوراج Gurage.

وللتعرف إلى تاريخ انفصال لغات عائلة لغوية عن بعضها البعض، يجمع اللسانيون في قوائم كلمات يسمونها (الكلمات الثوابت culture free)، وكل قائمة تخص لغة من لغات العائلة، ويجرون عليها عمليات إحصائية، يستخلصون منها التاريخ الذي انفصلت فيه هذه اللغات عن اللغة الأم. وتتميز الكلمات الثوابت بخاصية الثبات وعدم التغير على مر الزمن، إذ يقاوم أصحاب اللغة تغيير هذه الكلمات تلقائياً؛ لأن لها قيمة خاصة مثل كلمات (أم ـ أب ـ أخ ـ رأس ـ عين ـ أرض، إلخ).

الألسنية المقارنة واللهجات

علم اللغة الحديث يعنى باللهجات كاهتمامه بالفصحى... فاللغة واللهجات ينطبق عليهما تعريف اللغة بوصفها نظاما من الرموز الصوتية... ويجد علم اللغة الحديث في اللهجات ميدانا خصبا لدراسة الظواهر اللغوية وتوزيعها جغرافيا في الوطن اللغوي، ويفسر ظاهرة لغوية موجودة في مكان ما، ومنعدمة في آخر...

وإن كان اللغويون العرب يتجنبون جمع النصوص اللغوية التي ينطق بها أبناء قبيلة معينة، فعلم اللغة الحديث يهتم بلغات القبائل جميعا، ويرى في مثيلات لهجات لخم وجذام وقضاعة وغسان وإياد وتغلب واليمن وعبد قيس... المخالطة أو المجاورة لغير العرب، مجالا خصبا للدراسات اللغوية المقارنة...[1]

وفي هذا السياق، يدرس هذا العلم التداخل بين اللغات، وقضية التأثر والتأثير في ما بينها... فدراسة اللهجات في هذا السياق، لا يعني في حال من الأحوال، الدعوة إلى إحلال العامية مكان الفصحى، أو إهمال النطق الفصيح... إنما يعني دراسة لغوية لها دلالات اجتماعية وحضارية مهمة...

1 ـ هيام كردية، أضواء على الألسنية، بيروت، ط1، 2008، ص30 - 31

يذكر أن اللهجات الحديثة هي المستودع الذي ترسبت فيه ظواهر لغوية جمة انقرضت من الاستعمال الأدبي... وقد يكون بعض هذه الظواهر انتقل من لهجات قديمة جاهلية وإسلامية... أو من مخلفات الفصحى، ولكن قل استعماله...

وقد نتمكن بوساطة هذه المادة الباقية من اللهجات من أن نرجع إلى أصل مواد اللغة العربية، أو نستدل على كيفية التطور اللغوي الذي أصاب ظاهرة ما حتى تطورت واتخذت مظهرا آخر في العربية الفصحى...

يذكر أن مجمع اللغة العربية في القاهرة جعل من ضمن أغراضه تنظيم دراسة علمية للهجات العربية في الأقطار المختلفة...[1]

الدراسات الألسنية في المعاجم اللغوية

يمكن لدارس اللسانيات المقارنة، أن يستفيد من جهود المجامع اللغوية، كمجمع اللغة في دمشق أو العراق أو القاهرة... لأن أعمال اللغويين ولا سيما في ما يتعلق بالترجمة والتعريب... تلقي الضوء على المزيد من الدراسات المقارنة... وتعميما للفائدة، نعرض هنا جهود مجمع اللغة العربية بالقاهرة، أنموذجا قد يفيد الدارسين...

مجمع اللغة العربية في القاهرة[2]

"في سنة 1932م صدر مرسوم بإنشاء مجمع اللغة العربية الملكي الذي جاء في المادة الثانية من مرسوم إنشائه أن أغراضه هي:

آ- أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وذلك

---

1 ـ قانون المجمع، مادة4، فقرة ج

2 ـ محمد علي الزركان، الجهود اللغوية في المصطلح العلميّ الحديث، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998

بأن يحدد في معاجم، أو تفاسير خاصة، أو بغير ذلك من الطرق، ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب.

ب-أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات، وتغير مدلولها.

ج-أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية.

د-أن يبحث كل ماله شأن في تقدم اللغة العربية، مما يعهد إليه فيه، بقرار من وزير المعارف.

وقضى المرسوم المشار إليه في مادته الثالثة أن:

يصدر المجمع مجلة، تنشر فيما تنشر، أبحاثه التاريخية، قوائم الألفاظ والتراكيب التي يرى استعمالها أو تجنبها، وتتقبل مناقشات الجمهور واقتراحاته"[(1)].

ثم صار اسمه (مجمع فؤاد الأول للغة العربية) بموجب المرسوم الملكي الصادر سنة 1940.

وأخيراً أصبح اسمه (مجمع اللغة العربية) بموجب القانون رقم 434 لسنة 1955 بعد الثورة المصرية. وكانت قد صدرت هذه المراسيم والقرارات وغيرها في زيادة عدد أعضائه وتوزيعهم توزيعاً جديداً دون التعرض إلى أغراضه وأهدافه، إلا ما كان في القرار الجمهوري رقم 1144 لسنة 1960 أثناء الوحدة بين مصر وسورية، والقاضي بتوحيد المجمعين في دمشق والقاهرة باسم (مجمع اللغة العربية) فقد جاءت المادة الثانية التي تبين أغراضه ووسائله أكثر اختصاراً وتركيزاً مما سبقها، مضيفة صيغة جديدة للفقرة(ب) التي نصت على: توحيد المصطلحات في اللغة العربية.[(2)]

---

1 ـ مجلة مجمع اللغة العربية الملكي/ ج1 ص6.

2 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- الملحقات/ 128.

إلا أن هذا المجمع قد سار في سنيه الأولى على النهج نفسه الذي سلكته المجامع السابقة من الاهتمام بتعريب ألفاظ الحضارة دون التعرض للمصطلحات العلمية. وقد بلغ ما أخرجه نحو 246 كلمة عربية الأصل والاشتقاق عاش منها الكثير حتى يومنا هذا، واندثر بعضها الآخر لعدم تقبلها وها هي بعض نماذج منها فيما يخص البيوت وما فيها:

"الصرح: gratteciel- الطبقة: étage -الشقة: appartement- البهو: salon- الردهة: sale - الثوى chambre d´hôte -المثوى: pension- السرداب: son- seul -أنابيب المياه: tuyaux -المدفأة: poéle - الموقد: foyer- الدهليز: vestibule- المصعد: ascenseur- الطابق:grandes briques، وهو الآجر الكبير"[1].

ولاحظنا مما تقدم أن المجامع اللغوية العلمية كافة قد انصرفت إلى الاهتمام بتعريب ألفاظ الحضارة وتفسيرها دون الالتفات إلى المصطلحات العلمية على الرغم من أهميتها وضرورتها لتواجه سيل المخترعات العلمية الجارف، سواء كان ذلك في دمشق أم في القاهرة، حتى أن اهتمام مجمع دمشق بالمصطلحات العلمية كان ضئيلاً جداً إذا ما قيس بما صنعه مجمع القاهرة فيما بعد.

وقد فسر الدكتور إبراهيم بيومي مذكور رئيس مجمع القاهرة ذلك بقوله: "لا تخضع ألفاظ الحضارة لمثل ما تخضع له المصطلحات العلمية من قيود في الوضع والاستعمال، لأنها ملك العامة الذين يعبرون في طلاقة وينفرون من التحكم فيما جرت به ألسنتهم.

ولقد تواردت على العربية قديماً وحديثاً حضارات مختلفة حملت إليها ما حملت من أسماء ومسميات، فاحتفظت ببعضها ولفظت بعضها الآخر، أو أحلت

---

1 ـ مجلة مجمع اللغة العربية الملكي /ج1 ص28 ورضا، الشيخ أحمد/ معجم متن اللغة/ ص102-100.

محله أسماء عربية، وإذا رجعنا إلى أخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن، وجدنا أن التركية كانت متفشية في لغة الدواوين وشؤون الحياة العامة..

وقد هال هذا الغزو الكتاب والمصلحين وشغلوا به منذ منتصف القرن الماضي بدرجة كبيرة، وربما زادت على اشتغالهم بمصطلحات العلوم. ولا أدل على ذلك من أن الجمعيات اللغوية الأهلية التي قامت بمصر في أخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن وقفت جهدها كله على ألفاظ الحضارة وشؤون الحياة العامة. وجاراها في هذا مجمع اللغة العربية فعني بها عناية خاصة، خاصة في سنيه الأولى، وتوفر منها لدى بعض أعضائه قوائم ومدخرات قديمة ملئت بها الأعداد الأولى من المجلة والمحاضر.

لم يكن للمجمع بد من أن يعرض لألفاظ الحياة العامة لأنها جزء من متن اللغة كثير الورود والاستعمال، ولأنه كان عليه أن يتخير من بينها ما ينبغي أن يدخل المعجمات الحديثة، وقد عرض لها في جد في دوراته الثلاث الأولى، ولم تخل مقترحات بعض أعضائه من نقد وملاحظة، ثم انصرف عنها إلى المصطلحات العلمية والفنية ولم يعد إليها إلا بعد نحو عشر سنين بدفعة قوية من أحد أعضائه ورئيسه فيما بعد.

فقد اقترح لطفي السيد تكوين هيئة لجمعها من واقع الحياة في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة، وتمهيداً لوضع معجم خاص فيما يكمن الإفادة منه في المعجمات اللغوية. وتكونت هذه الهيئة فعلاً وسجلت طائفة من ألفاظ الحياة العامة التي ربما كان لها أثر في "معجم النهضة" لاسماعيل مظهر، وكان المجمع يلحقها أولاً بلجنة المعاجم، ثم استقلت بها لجنة ألفاظ الحضارة.

والواقع أن هذا المنهج ترجح بين طرفين متقابلين: طرف يلجأ إلى بطون الكتب اللغوية يستخرج منها ألفاظاً مهملة بل غريبة أحياناً لتؤدي بها مسميات الحضارة الحديثة.. ولم يسلم هذا المنحى من النقد. وطرف آخر يرى أن الأولى

بالمجمع أن يسجل فيجمع ألفاظ الحضارة من مظانها ثم يهذبها ويقر منها ما يرتضيه. وما لا سبيل إلى اقراره يدعه للزمن والاستعمال كي يصلح من شأنه ويقوم عوجه[1]...»

منهجية المجمع في قبول المصطلحات العلمية

والنهج الذي يسير عليه المجمع في قبول المصطلحات أو رفضها هو أن تنظر كل لجنة مع خبرائها في الألفاظ العلمية التي تأتيها من الجامعات المصرية، أو الإدارات الحكومية، أو من الخبراء أنفسهم، أو من الجماعات والأفراد، وأن تضع ما تراه من الألفاظ العربية مقابل الألفاظ الانكليزية أو الفرنسية، وأن تعرفها بالعربية تعريفاً علمياً، أو تشرحها، وأن يبعث بها المجمع إلى أعضائه، وإلى العلماء الاختصاصيين ليبدوا ملاحظاتهم عليها، وأن تنظر اللجنة فيما يردها من ملاحظات، وأن تعرض الألفاظ بعد ذلك على مجلس المجمع الأسبوعي، فيتناقش أعضاؤه فيها، حتى إذا استقر رأي المجلس على جملة منها، عرضتها إدارة المجمع على المؤتمر في اجتماعه السنوي. وبعد ذلك تنشر المصطلحات التي أقرها المؤتمر في مجلة المجمع، ويترك مجال سنة أو أكثر لتبدي جمهرة العلماء في البلاد العربية رأيها فيها. ومتى مرت المدة الكافية تصبح المصطلحات في حكم المقبولة نهائياً.[2]

"وحين بدأت النهضة العلمية العربية الحديثة، أخذنا نكون لها لغتها، فأحيينا شيئاً من المصطلح القديم، ووضعنا ألفاظاً جديدة بالاشتقاق أو النحت[3] أو

---

1 ـ مدكور، ابراهيم/ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً /ص58 - 59.

2 ـ الشهابي، مصطفى /المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 69 - 70.

3 ـ العرب تَنْحَتُ من كلمتين كلمةً واحدة، وهو جنس من الاختصار، وذلك مثل: "رجل عَبْشَميّ" منسوب إِلَى اسمين، وأنشد الخليل:

أقول لَهَا ودمعُ العين جارٍ   أَلَمْ تَحْزُنْكِ حَيْعَلَةُ المنادي

التركيب، ولم يتردد بعض الباحثين في أن يعرب، بل ربما أسرف في التعريب، ونطقت الكلمات المعربة بطرائق مختلفة، وترتب على هذا كله بلبلة كانت موضع الشكوى في أخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن، ولعلها من أهم الأسباب التي دفعت إلى إنشاء المجامع اللغوية والعلمية.[1]

وحجة القائلين بالتعريب والذين أسرفوا به هي أن اللغات الهند وأوربية وبخاصة الحديثة منها متضافرة فيما بينها، يأخذ بعضها عن بعضها ووراءها اليونانية واللاتينية تشدان أزرها، وتربطان بينها، وتمدانها ببعض ما يعوزها. وللغات الأوربية طريقة سهلة في الأشتقاق ويكفي أن يضاف إلى أصل الكلمة مقطع في أولها أو في آخرها لكي تؤدي معنى جديداً.

ولعل هذا هو الذي دفع بعض أصحاب العربية أن يقولوا بالتعريب المطلق وأن يأخذوا الشيء أو المعنى بلفظه الأجنبي الدال عليه، زعماً منهم أن العربية لا تستطيع أن تواجه هذا السيل الجارف من المخترعات والمستحدثات، وأعتقد أن تجربة المجمع المعاصر استطاعت أن تدفع هذه الشبهة دفعاً تاماً، وأن تثبت أن العربية كفيلة بأن تواجه حاجات العصر ومقتضياته وليست أقل من غيرها تأهباً لهذه المهمة[2].

"ولا شك في أننا قطعنا في الخمسين سنة الأخيرة شوطاً يعتد به في تكوين لغة العلم والحضارة، وأدرك مجمع القاهرة منذ البداية ما لهذه اللغة من شأن في النهوض والتقدم، فعني بها عناية خاصة، ووقف عليها قسطاً غير قليل من

= مكان قوله: "حَيَّ علي". وهذا مذهبنا فِي أنّ الأشياء الزائدة عَلَى ثلاثة أحرف أكثرها منحوت، مثل قول العرب للرجل الشديد "ضَبَطرٌ" [ضبط وضبر] وَفِي "الصِّلِّدْم" إنه من "الصَّلد" و "الصَّدْم".

1 ـ مدكور، ابراهيم/ مجموعة المصطلحات العلمية والفنية/ مج14 (المقدمة).

2ـ م. ن/ مج 13 (المقدمة).

جهوده، وحاول أن ينشر ولو على نطاق محدود ما انتهى إليه من قرارات في المصطلح العلمي والحضاري، ويسعده دائماً أن يأخذ بها الباحثون واللغويون ويعولون عليها، فتسد بها حاجة، ويستكمل بها نقص.

وليس شيء أدل على هذه الحاجة من ذلك النشاط الملحوظ في التأليف المعجمي، فقد وضعت في السنوات الأخيرة (1960 - 1970) طائفة من المعجمات العلمية التي يعالج بها مصطلحات علم بعينه كالطب ومنها ما يعرض للمصطلحات العلمية بوجه عام، ويتسم بطابع موسوعي واضح. وقد أفاد معظمها من جهود المجمع السابق، ولم يفت أصحابها أن يعلنوا ذلك ويسجلوه..

ونعتقد أن مالدى المجمع من ذخيرة في المصطلحات العلمية جدير بأن يرتب ويبوب، وأن ينشر في معجمات متخصصة إلى جانب مجموعة المصطلحات الدورية التي تصدر كل عام. وقد بدأ يعد العدة لذلك، ويأمل أن يوفق له"[1]

وفي وسعنا أن نقرر أننا بدأنا نكون لغة علمية حديثة نعوّل فيها على ما بناه الآباء والأجداد، ونضيف إليها كل ما تدعو إليه الحاجة لأداء مستحدثات العلم والحضارة"[2]

صوغ المصطلح العلمي

لم يخرج المجمع في صوغه عن وسائل الوضع اللغوي المألوفة فقال بالاشتقاق، والمجاز والنقل، والنحت والتعريب. ولكنه يسر من أمرها، وفسح مجال تطبيقها وأقر فيها أصولاً ما أجدر المؤلفين والمترجمين أن يفيدوا منها..

فأجاز مثلاً الاشتقاق من أسماء الأعيان والجواهر، وترخص في أمر تلك القاعدة المشهورة من أنه "لا يشتق من الجامد" ولم يخرج في هذه الرخصة عن ألف العرب واستعمالهم، فيقال مكهرب وممغنط من الكهرباء والمغنطيس، كما

---

1 ـ مدكور، ابراهيم/ مجموعة المصطلحات العلمية والفنية/ مج14 (المقدمة).

2 ـ مم. ن/ مج15(المقدمة).

قال العرب مذهّب ومفضّض. وفي هذا ما يمكن علماء الكيمياء والفيزياء وغيرهم من ايجاد الأفعال والصفات التي تدعو إليها الحاجة.

وقال بقياسه المصدر الصناعي، فيكفي لتكوينه أن يضاف إلى الكلمة ياء نسب وياء تأنيث، وقد كان مقصوراً من قبل على السماع، فيقال المثالية والكانطية، كما قيل قديماً الجبرية والقدرية، ولهذا المصدر أهميته في الدلالة على المعاني العلمية الدقيقة، وخاصة أسماء المذاهب والنظريات مما هو مختوم بـ (ism) في اللغات الأوربية.

وحاول أن يقيس أوزاناً فيما لم يقل بالقياس فيه، لأداء دلالات خاصة، فصاغ قياساً اسم الآلة من الثلاثي على وزن مفعل ومفعال ومِفْعَلة، ووزن فِعالة للدلالة على الحرفة كزراعة وصناعة، ووزن فُعال للدلالة على المرض كزكام وصداع، وفُعال أو فَعيل للدلالة على الصوت.

وأجاز النسب إلى جمع التكسير كأحيائي، وكان مقرراً من قبل ألا ينسب إلا إلى مفرد، وزيادة الأف والنون قبل ياء النسبة للشبيه بالشيء المنسوب إليه كسمساني وقد وردت في العربية كثيراً، ودخول "أل" على "لا" النافية كاللاهوائي واللامائي. وفي هذا ما يساعد على الضبط والدقة، ويمكن الباحثين من التفرقة بين المعاني المختلفة. وحاول أن يضع مقابلات لبعض الصيغ الأجنبية الكثيرة الورود مثل: "يُفْعَل" لصيغة able. مثل Fondable يُذاب وmangealbe يؤكل وpotable يُشرب. ولكن هذه اللاحقة لم يستقر للمجمع فيها قرار من حيث الاستعمال فترجمت بطرق وصيغ مختلفة[1].

ورسمت للتعريب ضوابط تنظمه وتعين على الإفادة منه، فيعرب خاصة ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس كأكسجين، وهيدروجين، وأنزيم، وأيون،

1 ـ الشهابي، مصطفى / المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 77 والحمزاوي، محمد رشاد/ أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة/ 465-463.

والكترون، في الكيمياء، وما ينسب إلى علم من اسم شخص أو اسم مكان، أما ما وراء ذلك من تلك الكلمات التي أخذت من اللغة العادية لأداء معان علمية فينبغي ترجمته.

ويحتفظ بالتعريب بالأصل ما أمكن، ويؤخذ بأقرب نطق إلى العربية دون تحيز إلى أصل فرنسي أو انكليزي، ويوحد هذا النطق قدر الطاقة، ولا بأس من أن يشكل المصطلح المعرب ضبطاً لنطقه[1].

ولا حاجة بنا إلى أن نشير إلى أن للمجمع تجربة طويلة في جمع المصطلحات وإقرارها، ولم تخل تجربته من دروس يمكن أن تعد نواة لخطة منهجية في صوغها.

فهو يرى أن يؤدي المعنى الواحد بلفظ واحد، وأن يكون هذا اللفظ صالحاً للاشتقاق والنسبة إليه، ويكره ترجمة المصطلح الأجنبي بجملة، أو بلفظين شبه مترادفين. ويشترط في المصطلح العربي أن يكون واضحاً دقيقاً نصاً في معناه، لأن لغة العلم تتنافى مع الغموض والإبهام، كما تتنافى مع المجاز والاستعارة والسجع والجناس. ويدعو إلى تجنب الابتذال والغرابة، وأن كان لا يرفض تخير بعض الألفاظ النادرة أو العامية السليمة. ويسلم بأن يختص كل علم بمصطلحاته، وأن يستعمل اللفظ الواحد أحياناً في معان مختلفة باختلاف العلوم، ولكنه يتشدد في أن توحد المصطلحات المشتركة التي لا تتغير دلالتها من علم إلى علم. ويلتزم أن يقرن المصطلح العربي بمقابلة الأجنبي. ولا بأس بالإشارة إلى الأصل اليوناني أو اللاتيني. وإذا كان في الماضي قد اكتفى بعرض قوائم من المصطلحات ومقابلها الانكليزي أو الفرنسي فإنه يشترط اليوم أن يعرف المصطلح ليفهم على وجهه وتتبين مدى دقته. ويبدو من هذه التجربة الطويلة أن العربية ليست أقل استجابة

---

1 ـ مدكور، ابراهيم/ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- ماضيه وحاضره/ 56-55.

لمقتضيات العلم من أية لغة أخرى. وكم من مصطلح عربي ألصق بمعناه وأدق في دلالته من مصطلح أجنبي.[1]

من قرارات المجمع في أقيسة اللغة وأوضاعها

وهذه لمحة في أهم القرارات التي اتخذها مجمع اللغة العربية في مصر تسهيلاً لعمل نقلة العلوم العصرية إلى لغتنا العربية، وفائدتها واضحة لكل ذي عينين ولم يقرها المجمع إلا بعد دراسة عميقة لموضوع القياسي والسماعي وما في هذا الموضوع من آراء لأئمة اللغة العربية.

والذي يسر للمجمع وضع هذه القرارات وجود أعضاء فيه يعدون من أكبر علماء العربية وآلاتها في العصر الحاضر. ويدل هذا العمل على أن تآزر اللغويين والاختصاصيين بالعلوم والآداب هو شيء ضروري في كل مجمع حريص على دقة المصطلحات العلمية، وعلى سلامتها من الشوائب اللغوية. وليس كل ناقل علم من العلوم العصرية بقادر على وضع مصطلحاتها العربية أو تحقيقها، أو تمييز بعضها من بعض. والعلماء الذين يتحلون بمعرفة دقائق العلوم الحديثة، وأسرار اللغة الأعجمية التي ينقلون منها، وأسرار اللغة العربية التي ينقلون إليها، هم قليلون جداً في بلادنا العربية.[2]

نشر المجمع معظم هذه القرارات في الأجزاء الأولى من مجلته. وقد فتح بها الكثير من أبواب القياس، وأثبت أن أعضاءه يعدون من الأحرار المجتهدين، لا من المحافظين الجامدين، وأنهم يعملون على تقدم لغتنا العربية مع المحافظة على سلامتها[3].

---

1 ـ مدكور، ابراهيم/ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- ماضية وحاضرة/ 56.

2 ـ الشهابي/ مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 80.

3 ـ الشهابي/ المرجع السابق نفسه/ 71.

فقرار المولد هو:

"المولد هواللفظ الذي استعمله المولدون على غير استعمال العرب، وهو قسمان:

1-قسم جروا فيه على أقيسة كلام العرب من مجاز أو اشتقاق، أو نحوهما، كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك. وحكمه أنه عربي سائغ.

2-وقسم خرجوا فيه عن أقيسة العرب، إما باستعمال لفظ أعجمي لم تعربه العرب.. وإما بتحريف في اللفظ أو في الدلالة لا يمكن معه التخريج على وجه صحيح. وإما بوضع اللفظ ارتجالاً. والمجمع لا يجيز النوعين الأخيرين في فصيح الكلام"[1]

ويتضح من الفقرة الأولى أن المجمع سهل على المؤلفين استعمال كثير من الألفاظ العلمية السائغة، من التي لم ترد في الأمهات من معجماتنا، ولكنها وردت في كتب علمية مشهورة، وهي كثيرة، ويتضح أيضاً أنه أجاز للعلماء وضع مصطلحات علمية جديدة، ضمن الشروط الملمح إليها في الفقرة المذكورة.

أما الفقرة الثانية فهي تتعلق بالألفاظ المحرفة أو المرتجلة التي تخرج عن أقيسة كلام العرب. فهذه لا يجيز المجمع استعمالها في فصيح الكلام. وقد أصاب[2].

وقرار الاشتقاق من أسماء الأعيان هو:

"اشتق العرب كثيراً من أسماء الأعيان. والمجمع يجيز هذا الاشتقاق -للضرورة- في لغة العلوم. ويراعى عند الاشتقاق من أسماء الأعيان القواعد التي سار عليها العرب[3].

وهذا القرار من أهم قرارات المجمع. والخلاصة أن باب الاشتقاق واسع،

---

1 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- مجموعة القرارات العلمية/8-6

2 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 72.

3 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- مجموعة القرارات العلمية/ 8-6

وأن فيه مجالاً لتنمية اللغة، ولا سيما بالمصطلحات العلمية..والاشتقاق من الأعيان في العلوم العصرية هو اليوم ضرورة بادية أمام أعيننا. فنحن في حاجة إلى أن نقول مثلاً كهرب من الكهرباء ومغنط من المغنطيس، وبستنة من البستان[1]...

وقد تولى الشيخ أحمد الاسكندري بيان الغرض من هذا الاشتقاق والاحتجاج له في بحث نشره في الجزء الأول من مجلة المجمع (من ص232 - 268) وفي كلمة ألقاها في الجلسة الأولى من الدورة الثانية للمجمع. كما قدم الأستاذ علي الجارم بحثاً يقترح فيه وضع قواعد لاشتقاق الأفعال من الجامد[2].

وكان مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد تناول موضوع النحت بضع مرات في تواريخ مختلفة، ورأينا أنه اتخذ قراراً بجواز النحت عندما تلجئ إليه الضرورة العلمية... وقد نشر هذا القرار في الجزء السابع من مجلة المجمع ص158.

ومن البيّن أن القرار جاء مقتضباً، ولذلك عادت لجنة الأصول إلى بحث موضوع النحت فاتخذت فيه القرار الآتي الذي وافق عليه المؤتمر في الدورة الحادية والثلاثين (1964 - 1965)م:

"النحت ظاهرة لغوية احتاجت إليها اللغة قديماً وحديثاً. ولم يلتزم فيه الأخذ من كل الكلمات ولا موافقة الحركات والسكنات، وقد وردت من هذا النوع كثرة تجيز قياسيته، ومن ثم يجوز أن ينحت من كلمتين أو أكثر اسم أو فعل عند الحاجة، على أن يراعى ما أمكن استخدام الأصلي من الحروف دون الزوائد. فإن كان المنحوت اسماً اشترط أن يكون على وزن عربي، والوصف منه باضافة ياء النسب، وإن كان فعلاً كان على وزن فعلل أو تفعلل إلا إذا اقتضت غير ذلك الضرورة، وذلك جرياً على ما ورد من الكلمات المنحوتة.[3]

1 ـ الشهابي، مصطفى /المرجع السابق نفسه/ 16-73.

2 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- مجموعة القرارات العلمية/ 8-6

3 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية. 204، 75، 73.

وقرار الأخذ بالقياس في اللغة:

"يؤخذ بمبدأ القياس في اللغة، على نحو ما أقره سلفاً من قواعد ويجوز الاجتهاد فيها متى توفرت شروطه "صدر في الجلسة 14 من الدورة 15 (المؤتمر) (كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد أمين في محاضرته: "مدرسة القياس في اللغة")[1].

وقرار المصدر الصناعي:

"إذا أريد صنع مصدر من كلمة، يزاد عليها ياء النسب والتاء" صدر ونوقش في الجلسة 32 والدورة 1 وتولى الشيخ أحمد الاسكندري بيان الغرض منه والاحتجاج له في بحث نشر في الجزء الأول من المجلة (من ص211 - 215) وفي كلمة ألقاها في الجلسة 1والدورة1)[2].

وجعل المجمع صنع المصادر الصناعية قياساً بأن يزاد على الكلمة ياء النسب والتاء. فقد قالت العرب مثلاً: جاهلية ولصوصية وجبرية وطفولية وعروبية وربوبية وفروسية. وقد قال العلماء الأول: كيفية وكمية ومائية وخصوصية الخ. ونحن في هذا الزمن نحتاج في العلوم إلى إيجاد مصادر صناعية، فنقول مثلاً: قلوية وحمضية وسمية وعطرية وهكذا.[3]

وقرار مصدر (فعالة) للحرفة:

"يصاغ للدلالة على الحرفة أو شبهها من أي باب من أبواب الثلاثي مصدر على وزن (فِعالة) بالكسر" صدر في الجلسة 25 والدورة1 ونوقش فيها. وتولى الشيخ

---

1 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- القرارات العلمية/ 11، 21، 22.

2- م. ن/ 11، 21، 22

3 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية. 73، 75، 204.

الاسكندري بيان الغرض والاحتجاج له[1]...

قال الشهابي: في وسعنا إذاً أن نصوغ مثل مصدر (غراسة) من غرس وأن نجعلها أمام كلمة (Aboriculture)، وإن لم ترد الغراسة في المعجمات في مادة غرس..[2]

وقرار مصدر (فَعَلان) للتقلب والاضطراب:

"يقاس المصدر على وزن (فَعَلان) لفَعَل اللازم مفتوح العين، إذا دل على تقلب واضطراب".[3] إننا نحتاج أحياناً في بعض العلوم إلى هذا المصدر مثل: نوسان Oscillation ونبضان Pulsation وموجانOndulation[4] الخ.

وقرار مصدر (فُعال) للمرض:

"يقاس من (فَعَل) اللازم المفتوح العين مصدر على وزن (فُعال) للدلالة على المرض "قد بين الشيخ أحمد الاسكندري في الشرح أن من أكثر الصيغ وروداً صيغة فُعال، فهي قياسية عند سيبويه والأخفش وابن مالك ومن تابعهم[5].

ويعرف الأطباء الذين لهم عناية بوضع الألفاظ العلمية فائدة هذا القرار. فقد قال القدماء: زُكام وزحار وكُساح وجُذام، الخ. ونحن في حاجة إلى الكثير من مثل ذلك، وإلى الاشتقاق على هذا الوزن حتى من أسماء الأعيان مثل: وُراك Coxalgie من وَرك، وعُصاب névralgie من عَصَب وهكذا[6].

1- مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- القرارات العلمية/ 11، 21، 22

2 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية. 73 ،75 ،204.

3 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً/ مجموعة القرارات العلمية/ 23،24،25،27.

4 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 74.

5 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً/ مجموعة القرارات العلمية/ 23،24،25،227.

6 ـ الشهابي، مصطفى/ مصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 74.

وقرار مصدر (فَعَل) و(فُعال) للداء:

"بما أن الضرورة العلمية في وضع المصطلحات تقتضي استعمال صيغة (فَعَل) للداء يجاز اشتقاق (فُعال) و(فَعَل) للدلالة على الداء، سواء أورد له فعل أم لم يرد".

قدم الأستاذ مصطفى الشهابي اقتراحاً في هذا الموضوع إلى مؤتمر المجمع في الجلسة 3 والدورة 24 فأحيل إلى لجنة الأصول، فدرسته وقدمت تقريرها فيه إلى مؤتمر المجمع[1].

وقرار أخذ (تفعال) للتكثير والمبالغة مما ورد له فعل وما لم يرد:

"تصح صياغة التّفعال للمبالغة والتكثير مما ورد فيه فعل، طوعاً لما أقره المجمع في دورته العاشرة من قياسية صوغ مصدر من الفعل على وزن (التّفعال) للدلالة على الكثرة والمبالغة، وكذلك تصح صياغته مما لم يرد فيه فعل، طوعاً لما أقره المجمع في دورته الأولى في جواز الاشتقاق من أسماء الأعيان للضرورة في لغة العلوم"[2].

وما أوردناه هنا من هذه القرارات كان على سبيل المثال لا الحصر. فقد بلغت في جملتها أربعين قراراً، ولولاها لما أمكن التوسع في صوغ المصطلحات العلمية والفنية وإكثارها.. مما جعل اللغة العربية تتجدد وتواكب الركب العلمي والحضاري كأية لغة حية أخرى. وللإطلاع على مزيد من هذه القرارات المهمة فإنه يمكن الرجوع إلى جلسات المجمع في دورات انعقاده ومؤتمراته ثم في قراراته النهائية التي حوتها مجلته كذلك[3].

1 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً/ مجموعة القرارات العلمية/ 23،24،25،27.

2 ـ م. ن/ 23،24،25،27.

3 ـ الخطيب، أحمد شفيق/ معجم المصطلحات العلمية والفنية/ المقدمة.

من قرارات المجمع في الترجمة

تتعلق هذه القرارات في النهج الذي ينبغي لواضعي المصطلحات العلمية أن يسيروا عليه عند وضع مصطلحاتهم.

فمن قرارات المجمع في الترجمة تفضيل الكلمة على الكلمتين:

"تفضل الكلمة الواحدة على كلمتين فأكثر، عند وضع اصطلاح جديد، إذا أمكن ذلك، وإذا لم يمكن ذلك تفضل الترجمة الحرفية "صدر في الجلسة 33 من الدورة الأولى[1].

وقرار ترجمة صيغ الكشف والقياس والرسم:

"تلتزم صيغة واحدة تجري عليها كلمات الجنس الواحد، فما يراد به الكشف وضعنا له صيغة (مفعال) Scope، وما يراد به القياس وضعنا له صيغة (مِفْعَل) métre، وما يراد به الرسم وضعنا له صيغة (مِفْعَلة) graph" صدر في الدورة 5 والجلسة 25[2].

يقول الشهابي في صدد هذا القرار: وعلى هذا وجب أن نقول مثلاً مجهار mioroscope لا مِجْهَر ولا مِجْهَرة، وأن نقول مِكْثَف densimétre لا مكثاف ولا مِكْثَفة، وأن نقول مبرقة للآلة télégraphe لا مِبْرق ولا مِبْراق وهكذا. وأعتقد أن هذا القرار يقيد المجمع ولجانه وسائر واضعي المصطلحات بقيد ثقيل.

1 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً /القرارات العلمية/ 69،70، 71، 73.

2 ـ م. ن/ 69،70، 71، 73.

ومع هذا قرأت أخيراً مقالاً لأحد أعضاء المجمع يقول فيه أن المجمع عدل عن قائمة المصطلحات التي كان وضعها على أساس هذه القواعد الثلاث"[1].

ويقول الدكتور وجيه السمان في هذه الصيغ:

"اتخذ المجمع هذه القرارات قبل عام 1950 ثم عاد بعد ذلك فعدل عن اتباع هذه القواعد، والحقيقة أنها تقيد واضعي المصطلحات بقيد ثقيل، ويقف الإنسان أمامها أحياناً حائراً ويكاد يعجز عن اتباعها. فمثلاً بم نترجم wattmétre؟ فإذا اتبعنا القاعدة وجب أن نقول: المِوَط، ولا تستقيم الترجمة إلا إذا ظلت هذه الكلمة مشكلة على الدوام، وإلا فإنها ستقرأ المُوط. وA´mperemétre هل نترجمها بالمئبر!، وبم نسمي عداد الطاقة الكهربائية Watt heure mètre؟ أو الجهاز الذي يقيس في آن واحد الأنبرية والفولتية ويسميه الانكليز A´romètre وكيف تسمى البحوث التي تدرس فيها الظواهر والمواضيع المنتهية بـ Mètre و scopeو graghe تسمية تنسجم مع أسماء هذه الأجهزة؟ الحق أن التقصير في هذا الباب ما يزال كبيراً وأن الفوضى ضاربة فيه أطنابها، وهنا يبدو الاختلاف بيننا وبين الأقطار العربية..[2]"

وقرار ترجمة الصدر (a)or (an) بـ (لا):

"في ترجمة الصدر a or an الذي يدل على معنى النفي، هل يترجم بكلمة (عدم) أو (لا)-تقرر وضع كلمة (لا) النافية مركبة مع الكلمة المطلوبة فيقال مثلاً:

---

1 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية /-76 وينظر السمان وجيه/ التعريب في العلوم الطبيعية، مجلة الآداب سنة 23 عدد 2 ص36.

2 ـ السمان، وجيه/ التعريب في العلوم الطبيعية/ مجلة الآداب البيروتية/ سنة 23، عدد2، ص36.

اللاجفن، مقابل لـ ablepharia واللامقلة، مقابلاً لـ anophthalmus صدر في الدورة 8 والجلسة 2 (المجلس).

ولكن المجمع رأى بعدئذ أنه لا يمكن اتخاذ ذلك قاعدة، فقد انتهى الرأي إلى "الموافقة على ألا يتخذ قرار باستعمال (لا) دائماً أو عدم استعمالها، إنما نقول إنه يجوز لنا استعمال (لا) مركبة مع الاسم المفرد، إذا وافق هذا الاستعمال الذوق، ولم ينفر منه السمع "الدورة 8 الجلسة 2[1].

ولقد أصاب المجمع في هذا الاستدراك، فللذوق والسمع مكانه في هذا الموضوع[2].

وقرار ترجمة الصدر (Hyper) بكلمة (فرط) والصدر (Hypo) بـ(هَبْط):

"تقرر أن يترجم الصدر Hyper بكلمة (فرط) فيقال مثلاً (فرط الحاسية) مقابلاً لـ Hypersensitiveness، والصدر (Hypo) بكلمة (هبط)[3].

ولكن الدكتور محمد رشاد الحمزاوي بين مواطن الاضطراب والخلل في كيفية استعمال تلك السوابق فقال: "أن القرار الداعي إلى اعتماد أربع سوابق: (Hypo ,Hyper, an, a) في فترة ثلاثين سنة، يفيد أن المجمع قد تهاون بالموضوع وبالمشاكل الناجمة عن السوابق، ولقد لاحظنا أن السوابق الأربع المقررة لم تكن حلولاً مثالية لمجابهة المشاكل الموضوعة، لأنّها لا تستقر على حال. فلقد كان من المفروض أن تزودنا السابقة (a) المترجمة بـ(لا) بكلمات عربية مثل: لا قدمي: Apodal - لا مشيجي: Apogamie- لا جرثومي: Aposporie.

1 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً/ القرارت العلمية/ 69، 70، 71،73.

2 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 77.

3 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً/ القرارت العلمية/ 69، 70، 71،73.

إلا أننا نعجب من وجود مصطلحات وضعها المجمع متكونة من نصفين: عربي ولاتيني، مما يخرق القواعد المقررة، ومن ذلك مصطلح: (لا أستجمية) تعبيراً عن Astigmatisme و(لا مكروني) لـAmicron، حيث أن (لا) تفقد معنى النفي لتصبح سابقة ثابتة.ولقد طرأ على قرار المجمع في هذا الصدد اضطراب آخر من ذلك أن (a) كثيراً ما تترجم بـ(عدم) التي خصت مبدئياً للتعبير عن (an) (in) اللتين كثيراً ما ترجمتا بما يدعى بالذوق العربي، إلا أن هذا الذوق الذي يعتبر مشكلة في حد ذاتها، يشهد في الحقيقة على الصعوبات التي يواجهها المجمع في هذا الميدان، فنجد مثلاً: (عديم الأوراق الطويلة) للتعبير عن: afoliate أما (وهني) فهو مصطلح غير دقيق لأنه يعبر عن: (Adynamique) و(psychoaesthenique).

ويمكن أن نبدي نفس الملاحظات في شأن السابقة (an) في الأمثلة التالية: لا وقاية: anaphylaxie -لا تكسيني: Anatoxine- لا محوري: Anaxial وذلك شأن (جفور) الذي يعبر عن: Anaphrodisie ومنعكس أو مقلوب للتعبير عن: Anatrope.

أما السابقة (Hyper) فيعبر عنها بـ(فرط) مثلما تشهد بذلك الألفاظ التالية: فرط الوظيفة: Hyperfonction -فرط العرق: Hyperidrose- فرط التوتر: Hypertension.

إلا أن ذلك لم يسلم من الاضطراب، لأن المجمع قد قرر أن يعبر عنها بصيغة (تَفْعال) مثل (تنشاط) تعبيراً عن (Hyperactivitè) و(تحماض) تعبيراً عن: (Hyperaciditè) وإن كان المجمع قد استعاض عن كل سبق بالترجمة المخصصة مثلما تشهد بذلك الألفاظ التالية: تضخم: (Hypertrophie) -الطرح (طول البصر): (Hyperme tropie) ونجد أحياناً ألفاظاً هجينة مثل: فرط الأنسولونية، تعبيراً عن (Hyperinsulinisme)...

وبقرار من المجمع اتفق على التعبير عن السابقة (Hypo) بـ(هبط)، ولقد

لاحظنا في هذا الصدد أن مصطلحات المجمع قد استعاضت عنها بـ (نقص) مثلما تشهد بذلك: نقص الاحساس (Hypoasthenie) -نقص الوظيفة Hypofonction... والملاحظ أن المجمع كان يعبر أحياناً عن السابقة (Hypo) بـ(أقل) في (أقل أزموزية) مقابلاً لـ (Hypotonique) ولقد عبر عنها مترجمون آخرون بـ (تحت). وذلك من شأنه أن يفتح الباب واسعاً للتشويش والمترادفات...[1].

وقرار ترجمة الكلمات المنتهية بالكاسعة (Scope):

"الكلمات الأجنبية المنتهية بالكاسعة (Scope) ينظر في معناها فإن استطعنا أن نشتق منه اسم آلة على وزن (مِفْعال) فعلنا وتضاف ياء النسب إلى المشتقات منه، وإن لم يمكن اشتقاق اسم آلة من المعنى، أو حالت دون ذلك صعوبات أخرى، وضع لاسم الآلة لفظ (مكشاف) مضافاً إلى عمل الآلة، وتكون المشتقات بالنسب إلى المضاف إليه أولاً، ثم المضاف[2]" صدر في الجلسة 15 من الدورة5.

وقرار ترجمة الكلمات المنتهية بالكاسعة (Able):

"تترجم الكلمات المنتهية بـ(able):

"تترجم الكلمات المنتهية بـ(able) بالفعل المضارع المبني للمجهول، ويترجم الاسم منها بالمصدر الصناعي،فيقال: (يذاب) و(يؤكل) و(لايذاب) و(لايؤكل)، ويقال (المذوبية) و(المأكولية)[3] وقد مثل لهما قبل قليل.

---

1 ـ الحمزاوي، محمد رشاد/ أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة/ 447 - 450/ ط1 بيروت1988.

2 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- القرارات العلمية/ 74-75-77-78-79.

3 ـ مم. ن/ 74-75-77-78-79.

وقرار ترجمة الكاسعة (oid) بكلمة (شبه):

تترجم الكاسعة (oid) بكلمة (شبه) فيقال (شبه غرائي) و(شبه مخاطي) و(شبه ظهاري) مقابلاً بها: (colloid) و(mucoid) و(epithelioid)" صدر في الجلسة 2 من الدورة 8 (المجلس).

وفي دورة لاحقة عاد مجلس المجمع إلى الكاسعة (oid) فوافق مجلسه على أن: "كل كلمة أجنبية فيها الكاسعة (oid) التي تدل على التشبيه والتنظير تترجم في الاصطلاحات العلمية بالنسب مع الألف والنون، مثل: غرواني، وسمسماني، فيما يشبه الغراء والسمسم "الدورة 10 والجلسة 6 (المجلس). وأن "تستعمل صيغة النسب مع الألف والنون في كل الاصطلاحات الطبية التي تنتهي الكلمة الافرنجية منها بحروف: oid أو From أوlike، ما لم يتناف هذا الاستعمال مع الذوق العربي[1].

ولكن الشهابي تنبه لهذه القرارات فناقشها قائلاً: "قلت إن كلمة (colloide) الفرنسية معناها شبه الغرا (وبالمد والكسر أي شبه الغراء). وذكرت أنني رأيت في مجلة المجمع كلمة منحوتة من هذين اللفظين وهي (شبغراء) فالنسبة إليها شبغرائي وشبغرائي، وإلى (شبغرا) شبغروي (colloidal).

فالمجمع بقراره بالنسب مع الألف والنون أزال كلمة (شبه) وجعل أداة النسبة السريانية الأصل تحل محلها وتفيد معنى النسبة جميعاً. ونحن اذن أمام ثلاث كلمات عربية تقابل الكلمة الفرنسية الأخيرة وهي: شبه غرائي، وشبغرائي، وغرواني، وهي التي أقرها المجمع بقراره هذا. ولكن من الضروري أن يثبت في الأذهان أن النسبة السريانية بالألف والنون قد حلت محل (شبه) و أفادت معنى النسبة أيضاً، وفي ذلك ما فيه من صعوبة.. ولعل الاستغناء عن هذه القاعدة أصلح، فقد ألفت آذان الطلاب في المدارس قول الأساتذة: هذا جسم شبه غروي

1 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- القرارات العلمية/ 74-75-77-78-79.

أو شبه بلوري أو شبه مخاطي.. ومع هذا فأنا لا أستثقل كثيراً قولهم (شبغروي وشبلوري وشبمخاطي) وأرى أنها أدل على المعنى من غراوني وبلوراني لأن أداة النسبة هذه لا تتضمن معنى التشبيه والتنظير خلافاً لكلمة (شبه) أو (شب) في الكلمات المنحوتة.

ومهما يكن من أمر فالمجمع قد احتاط بقوله: يجب أن لا يتنافى هذا الاستعمال مع الذوق العربي في الاصطلاحات الطبية"[1]

ويتابع الحمزاوي ملاحظاته عن اللواحق (الكواسع) وقرارات المجمع فيها فيقول: "فهل يعني هذا أننا سنواجه المشاكل نفسها فيما يتعلق باللواحق؟ الملاحظة أننا وجدنا من القضايا والمشاكل في شأنها، مالا يختلف كثيراً عما جاء منها في مستوى السوابق. ولقد بدا لنا أن المجمع قد اعتنى خاصة باللواحق أكثر من اعتنائه بالسوابق، لأنه أقر رسمياً تسعاً منها، فما هو سبب هذه العناية؟ يعود ذلك إلى حاجة المجمع إلى التعبير عن أسماء الآلة والمواد الكيميائية التي لها مشاكل مميزة سنستعرضها فيما يلي لا سيما في مستوى اللواحق التي ستفيدنا في هذا الشأن.

فاللاحقة (الكاسعة) Able يعبر عنها حسب قرار المجمع بالفعل المبني للمجهول، فلقد ترجمت كلمتا (fondable) و(mangeable) بـ يذاب ويؤكل، إلا أن الأمثلة الواردة في مصطلحات المجمع لا تؤيد دائماً ذلك، لأننا لاحظنا أن أغلب المصطلحات المنتهية بـ (able) قد ترجمت بطرق وبصيغ مختلفة، فلقد ترجمت كلمة (dètèctable) بـ ما يكشف، يستكشف، يستبان، ويترجم اللاحقة أحياناً بـ قابل لـ أو غير قابل لـ وهي عبارة طويلة للتعبير عن لاحقة أوربية، فمن ذلك: دين غير قابل للحجر: (insaisissable).

1 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية/78 - 79.

ولقد كانت هذه اللاحقة موضوع ترجمات متضاربة، مما يشهد بنسبية قرار المجمع في شأنها. ويتنوع ذلك التضارب بحسب المترجمين، ولذلك دعا مصطفى الشهابي إلى اعتماد صيغة المضارع المبني للمجهول للأفعال المتعدية والمضارع المعلوم للأفعال اللازمة. فيقوم الأول مقام اسم الفاعل أو المفعول كما يشهد بذلك المثالان التاليان: يعمل: faisable- يحب: aimable -يدوم: durable- يتبدل أو يبدل: variable.

لكن المصطلحات الأوربية المنحوتة لا تخضع دائماً إلى صيغة أو صيغتين عربيتين فيمكن التعبير عنها بأفعال مجردة أو مزيدة مثلما رأينا سابقاً. كما يمكن أن يعبر عنها باسم الفاعل المشتق من مختلف الصيغ. فلقد استعمل المجمع: ماء شارب للتعبير عن (eau potable) مما ينافي قراره، فلقد ورد مثلاً: جائز: acceptable وvalable- مشرف: honorable -ولقد استعمل كذلك اسم المفعول: مسؤول: responsable وتستعمل صيغة (فعول) لا سيما في الكيمياء، وقد استعملها كثيراً الكيميائي السوري الكواكبي: خلول: dialysable -خثور: coagulable- خمور fermentable...

إن هذه الصيغ لا تعتمد على اطراد واضح يستحق أن نقره للتعبير عن (able) التي ترجمت حسب الأذواق المختلفة. فلا يمكن أن ندلي في شأنها برأي واضح إلا بعد دراسة إحصائية في الميادين المطبقة فيها، والملاحظ أن أفعل التفضيل وارد كذلك للتعبير عن able مثل: أحب: (agrèable) وإن كان استعماله قليلاً لا يستحق التعقيد"[1].

---

1 ـ الحمزاوي، محمد رشاد/ أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة/ ص463 - 465 والملاحظ أن ما نسبه إلى الشهابي والكواكبي يفتقر إلى الدليل إذ لم أعثر عليه فيما أشار إليه من المراجع.

من قرارات المجمع في التعريب

لم يلهج الناس في النصف الأخير من القرن الماضي بمسألة لغوية مثلما لهجوا بالتعريب، فأجازه قوم وحرمه آخرون، مع أن عرب الجاهلية أدخلوا في لغتهم شيئاً من الكلمات الأعجمية..

ويظهر أن المجمع عالج في البداية مشكلة التعريب في شيء من الحيطة تحت تأثير الظروف التي كانت محيطة بها في الغالب. عرض لها في دور انعقاده الأول، وأصدر فيها قراراً لا يخلو من غموض ونصه: "يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية -عند الضرورة- على طريقة العرب في تعريبهم[1] فما حد الضرورة؟ ومن هم العرب المشار إليهم؟ وما طريقتهم؟ كل تلك نقط لم توضح في شرح هذا القرار والاستشهاد له، ويبدو من جو مناقشته أن المجمعيين الأول كانوا أميل إلى المنع وعدم التوسع في هذه الرخصة، وعبثاً أريد فيما بعد بسط الأمر وتوضيحه. وكأنما آثر المجمع أن يحل هذه المشكلة حلاً عملياً، فأقر معربات كثيرة وحديثة في العلوم والفنون، وقبل ما اشتق منها من أفعال وأوصاف. وأصبح من المسلم به مثلاً أن الأولى باسم الجنس في العلوم والفنون أن يعرب لا أن يترجم، مثل أكسجين، الكترون، بارومتر، ترمومتر. وأصبح التعريب لا ينظر إليه في توجس وخيفة، كما كان الشأن من ذي قبل، على أن تمكن الباحثين والمترجمين من العربية بمدهم بزاد لغوي لم يكونوا يجدونه بالأمس.

---

1 ـ مدكور، ابراهيم/ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً، ماضيه وحاضره/ 44 - 45

ولا حاجة بنا أن نشير إلى أن هذه القرارات اللغوية لم تصدر لأول وهلة، بل عانى المجمع فيها ما عانى، وطال فيها الأخذ والرد. فدرست في اللجان، ونوقشت في المجلس والمؤتمر، واستشهد لها واعترض عليها، ومن بينها ما أعيد النظر فيه وعدل. ومن حسن الحظ أن من بين اللغويين القدامى من استمسك بالقياس والاجتهاد أمثال أبي علي الفارسي وابن جني، وفيهما نصرة للمجددين من المعاصرين، ولهما جملة مشهورة كثيراً ما استشهد بها: "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب[1]..

وقال الأستاذ الشهابي موضحاً رأيه في قرار المجمع الآنف الذكر:

"وهذا القرار يجيز للعلماء تعريب المصطلحات العلمية، إذا لم يكن من المستطاع ايجاد ألفاظ عربية بطريق الحقيقة أو بطريق المجاز. وقيد (الضرورة) يشير إلى ذلك. وفي الجزء السادس من مجلة المجمع محاورة طريفة بين أعضاء المجمع المتشددين في موضوع التعريب، وأعضائه المتسامحين فيه.. وسنرى أن هنالك ألفاظاً علمية أعجمية نستطيع أن نجد أو أن نضع لها ألفاظاً عربية سائغة وأن هنالك ألفاظاً أعجمية أخرى لا يمكن بل لا يجوز إلا تعريبها. وفي الحالين أرى أن قيد (الضرورة) الذي وضعه المجمع للتعريب هو ضرورة. أقول هذا لأني عارف بسخافات بعض أساتيذ العلوم الحديثة، الذين عربوا ألفاظاً علمية أعجمية، كان في استطاعتهم أن يجدوا لها ألفاظاً عربية مقبولة بقليل من الجهد، ومن المعرفة بأصول تلك الألفاظ الأعجمية وبمعانيها[2].

ثم يتابع الشهابي بيان وجهة نظره في حاشية بأسفل الصفحة نفسها فيقول:

"لا أرى مسوغاً للخوف من كثرة المصطلحات العلمية التي نضطر إلى

---

1 ـ مدكور، ابراهيم/ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً، ماضيه وحاضره/ 44 - 45.

2 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 71 - 72.

تعريبها وإلى ادماجها في لساننا. فالألفاظ، كثرت أو قلت، ليست من مقومات اللغة، واللغات تتميز بعضها من بعض بتراكيب جملها وبحروف معانيها، أي بما اختصت به من قواعد الصرف والنحو وأساليب الاشتقاق والقياس. ففي الألمانية والانكليزية والفرنسية آلاف مؤلفة من الألفاظ العلمية المشتركة، ومع هذا نرى كلا من اللغات الثلاث مستقلة عن الأخرى.. وعلى الرغم من هذه الحقائق فأنا من القائلين بعدم اللجوء إلى التعريب إلا عند الضرورة. وحدود الضرورة عندي ليست واسعة"[1].

ولكن المجمع توسع مؤخراً في قبول المعرب الحديث أكثر مما كان عليه من قبل، نظراً للمستجدات الحديثة فلم يعد يتقيد بقراراته السابقة في شروط التعريب، يقول رئيس المجمع في هذا الصدد: "ولا بأس من التعريب إن دعت إليه حاجة، وهناك ألفاظ شبه دولية ترجع إلى أصول يونانية أو لاتينية، وقبلتها اللغات العالمية الكبرى، ولا ضير في أن تغذى بها العربية وينسى متنها..

وأوضح ما يكون التعريب في ميادين جديدة استحدثها الكشف والبحث في الطبيعة والكيمياء وهو من صنع المختصين، وكلما كانوا متمكنين من لغتهم كانوا أقدر على الوضع وأقل ميلاً إلى التعريب. ومهمة المجمع أن يقر ما عربوه ما دام أدل على المعنى ولا بديل له وعززه الاستعمال"[2].

ويقول أحد المعجميين المحدثين: "لقد أدى مجمع اللغة العربية في القاهرة خدمة كبيرة للغة العربية حين حطم الأسطورة القائلة بأن إدخال المعرب من الألفاظ في متن اللغة يحط من قدرها. ففي المعاجم المتخصصة والعامة التي أصدرها المجمع المذكور دليل واضح على الدور المهم الذي يؤدي التعريب في

---

1 ـ الشهابي/ المرجع السابق نفسه/ 71

2 ـ مدكور، ابراهيم/ مجموعة المصطلحات العلمية والفنية/ مج21 (المقدمة).

لغة العلم الحديث"[1].

ومن مقرارت المجمع في التعريب تفضيل العربي على المعرّب:

"يفضل اللفظ العربي على المعرب القديم، إلا إذا اشتهر المعرّب" صدر في الدورة 1 والجلسة 33.

وقرار النطق بالمعرب كما عربته العرب:

"ينطلق بالاسم المعرّب على الصورة التي نطقت بها العرب" صدر في الدورة 1 والجلسة 33.

وقرار تعريب أسماء العناصر الكيمياوية:

"عند تعريب أسماء العناصر الكيمياوية التي تنتهي بالمقطع (ium) يعرب هذا المقطع بـ (يوم) ما لم يكن لاسم العنصر تعريب أو ترجمة شائعة، فيعرب منتهياً بالمقطع (يوم) إلى جانب تعريبه الشائع"[2] صدر في الدورة 25 والجلسة 12.

ويبدو أن الذي اقترح هذا القرار هو الأستاذ مصطفى الشهابي، فقال في الاحتجاج له: "يسمي علماء الكيمياء في الغرب معظم العناصر الكيمياوية، ولا سيما التي كشف النقاب عنها حديثاً بأسماء ينهونها بالكاسعة (ium) فيقولون مثلاً: osmium, Scandium, Thallium, Actinium, Radium الخ. وفي إحدى الجلسات بمجلس مجمع اللغة العربية بالقاهرة لاحظت أن لجنة الكيمياء تنهي أسماء العناصر الكيمياوية المعربة تارة بالواو والميم مثل بوتاسيوم وصوديوم وراديوم وأكتينيوم، وهو الصحيح، وتارة بالميم مع ضم الحرف الذي يأتي قبل الميم مثل قولهم:

1 ـ الخطيب، أحمد شفيق/ معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية/ 748.

2 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً/ مجموعة القرارات العلمية/ 84، 85،98.

ثاليم وأسميم وسكنديم، وذلك مرغوب عنه، فالتعريب الصحيح هو: ثاليوم واسكنديوم وأسميوم وهكذا.

وعندما ذكرت لمجلس المجمع ملاحظتي على صحة التعريب اتخذ القرار السابق[1]" وهناك قرار في تعريب أصناف المواليد وقرار آخر في رسم الألفاظ المعربة، وقرارات عديدة في كيفية كتابة الأعلام الأجنبية بحروف عربية مع ذكر القواعد الثلاث والعشرين الناظمة لتحويل الحروف اليونانية واللاتينية إلى حروف عربية، بالإضافة إلى قواعد كتابة الأعلام الجغرافية وتصحيحها من قبل المتخصصين[2].

من قرارات المجمع في وضع المصطلحات العلمية:

إن وضع المصطلحات العلمية في أشق الأمور وأدعاها إلى الصبر والجلد والأناة كما سبق أن قلناه والمعروف أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة وضع آلافاً كثيرة من المصطلحات العربية في فروع العلم المختلفة، وذلك حسب القرارات التي أقرتها مجالسه ومؤتمراته. فهذا المجمع قد تفرد منذ سنين بمعالجة شؤون اللغة العربية ومصطلحاتها، ثم أن مقره في عاصمة أكبر قطر عربي، حيث يوجد أكبر عدد من العلماء باللغة العربية وبالمصطلحات العلمية، وحيث تكثر المراجع التي يستعان بها، ساعده على ذلك.

ومجمل القول أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة وكلية الطب في الجامعة السورية هما أنشط الجماعات عملاً في وضع المصطلحات العلمية الدقيقة في عصرنا الحاضر[3].

---

1 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 164 - 165.

2 ـ مجموعة القرارات العلمية/ 95 - 118.

3 ـ الشهابي /المرجع السابق نفسه/83-143-175-180.

فمن قرارات المجمع استخراج المصطلحات من الكتب العربية القديمة:

"ينظر المجمع في اختيار مختصين بشؤون العلوم العربية لإخراج المصطلحات العلمية القديمة من الكتب العربية، وعرض كل فرع على اللجنة المختصة، وإذا لم تكن لجنة مختصة تشكل لجنة جديدة".

صدر في الدورة 12 والجلسة الثانية (لجنة عامة للمجلس).

ومن قرارات المجمع وضع معاجم للمصطلحات المستخرجة من الكتب العربية القديمة:

"تدرس كتب العرب القديمة المتصلة بالمصطلحات العلمية، ويعمل لكل كتاب منها معجم بالمصطلحات التي وردت فيه، بحيث تكون هذه المعاجم في متناول الأيدي عند التعريب" صدر في الدورة 21 والجلسة2.

وقرار تفضيل المصطلح العربي القديم على الجديد:

"تفضل الاصطلاحات العربية القديمة على الجديدة، إلا إذا شاعت "صدر في الدورة1 والجلسة33.

وقرار الاقتصار على اسم واحد لكل معنى:

"الاصطلاحات العلمية والفنية والصناعية يجب أن يقتصر فيها على اسم واحد خاص لكل معنى". صدر في الدورة2 والجلسة11[1].

وقد علق الشهابي على هذا القرار بقوله: "... فواضع المصطلحات يكون مضطراً أحياناً إلى إثبات مصطلحين أو أكثر، أمام الكلمة الأعجمية الواحدة، لأنه لا يملك حق تفضيل مصطلح عربي على آخر، ولا سيما عندما يكون كلاهما

1 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- القرارات العلمية/ 137و148.

سائغاً في نظره".[1]

وقرار شرح المصطلحات قبل عرضها على المجمع:

"لا تعرض على المجمع مصطلحات علمية، إلا أن تكون مشروحة بقلم الخبير المختص، فإن ذلك مما يساعد على النظر في صحة وضع هذه المصطلحات، مع تجنب بعض أسباب البطء في العمل، وعلى زيادة الاطمئنان إلى أن اللفظ الاصطلاحي وقع موقعه "صدر في الدورة 5 والجلسة12[2].

وقرار تعريف المصطلحات قبل دخولها في المعجم:

"في شأن المصطلحات التي يقرها المجمع، لا تعتبر صالحة للدخول في المعجم قبل أن توضع لها التعاريف وتعرض على المجمع، حتى يطمأن إلى دلالة المصطلح على موضوعه" صدر في الدورة 8 والجلسة14 (المجلس).

وقرار الاكتفاء بالشرح الشفوي في نظر المصطلحات:

"ناقش المؤتمر في اقتراح ألا تعرض المصطلحات العلمية على المجلس أو المؤتمر إلا بعد أن تعرفها اللجان المختصة، حتى يتسنى لغير الفنيين من الأعضاء، فهم معانيها واختيار أصلح الألفاظ لهذه المعاني، وانتهى المؤتمر إلى الموافقة على المضي في نظر المصطلحات، اكتفاء بالشرح الشفوي الذي يتولاه مقرر اللجنة المختصة "صدر في الدورة 12 والجلستين 7-6 (المؤتمر).

---

1 ـ الشهابي، مصطفى/ المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 76.

2 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- القرارات العلمية/ 137و148.

وقرار طريقة النظر في المصطلحات وتسجيلها ونشرها:

"تعزز اللجان ما تضعه من مصطلحات، فما كان منها شائعاً عرفته تعريفاً معجمياً موجزاً وعرضته على مجلس المجمع ومؤتمره، وما كان منها غير شائع حفظته في جزازات ونشرته بين الهيئات العلمية، وفي مجلة المجمع، وتلقت ملاحظات هذه الهيئات وأهل الاختصاص، فتولت تمحيصها وانتهت إلى قرار فيها، على أن تكون المصطلحات الشائعة التي يقرها المجمع بتعريفاتها مادة تدخل في المعجم. وأما المصطلحات غير الشائعة فتظل في المجمع حتى يتسنى إخراجها في معجمات علمية. وكلما وجد المجلس والمؤتمر لديهما وقت فراغ كان لهما أن ينظرا في هذه المصطلحات غير الشائعة "صدر في الدورة 13 والجلسة7 (المؤتمر).

وقرار تعريف المصطلحات قبل عرضها على المجلس والمؤتمر:

"لا يعرض على مجلس المجمع ولا على المؤتمر من الكلمات إلا ما تم تعريفه، فإذا ما أقر المجمع ترجمة كلمة وتعريفها سجلت في جزازات وأعدت للمعجم "صدر في الدورة 13 والجلسة 4(المؤتمر).

وقرار تعريف المصطلحات بعد نشرها مبدئياً بلا تعريف:

"المصطلحات التي أقرها المجلس والمؤتمر بدون تعاريف، والتي لم تنشر بعد، تعاد إلى اللجان المختصة لتعريفها وعرضها على المؤتمر، ولا مانع من نشرها بدون تعريف نشراً مبدئياً، لتلقي ملاحظات المختصين، مع الإشارة إلى ذلك[1] (المؤتمر).

1 ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً- مجموعة القرارات العلمية 149 - 153.

لاحظنا من خلال استعراضنا لهذه القرارات المعجمية أنها كانت تنظم بشكل عام منهجية المجمع في قبول المصطلحات العلمية وإقرارها، وأن هذه المصطلحات لا تأخذ طريقها إلى الإقرار والاستعمال إلا بعد أن تمر بأدوار متعددة واختيارات دقيقة. وسوف نلاحظ في القرار التالي وما يليه الخطوات اللازمة في كيفية إعداد هذه المصطلحات. كما نلاحظ أن المجمع كان يكرر قراراته على تقارب مضمونها زيادة في التأكيد.

قرار طريقة إعداد المصطلحات وعرضها وتسجيلها:

"فيما يتعلق بالمصطلحات الجديدة يتبع ما يأتي:

1-يطلب من الخبير أن يقدم للجنة المصطلح مشروحاً شرحاً كتابياً مقبولاً.

2-على (السكرتير) الموظف لكل لجنة أن يدون ما يدور حول المصطلح من المناقشات والشرح والتوضيح، ويلخص ذلك ويعرضه على كاتب سر اللجنة.

3-يعرض على المجلس المصطلحات التي أقرتها اللجان مصحوبة بهذه الملخصات يزيدها الخبير في الجلسة عند الحاجة شرحاً وتوضيحاً، وعلى (سكرتيرية) المجلس أن تسجل هذا الشرح مع ما يدور في المجلس من مناقشات. وهذا لا يمنع بالأولى أن تعرض على المجلس المصطلحات المستكملة للتعاريف الفنية.

4-إذا أقر المجلس هذه المصطلحات نشرت في الأوساط العلمية بمختلف البلاد العربية، مع ملخص لما دار حولها من شرح وبيان.

5-تعاد المصطلحات التي أقرها المجلس إلى اللجان المختصة وما أبدي عليها من ملاحظات لتعريفها وصياغتها صياغة نهائية كي تعرض على المؤتمر.

6-تعد لكل مصطلح جزازة خاصة يثبت فيها ما دار حوله من مناقشات من أول

اقتراحه إلى أن يتم اقراره من المؤتمر، وتنظيم هذه الجزازات تنظيماً فنياً". صدر في الدورة 14 والجلستين 6.4 (المؤتمر) وعرض الموضوع في الدورات 12و13و14 في جلسات شتى من المجلس والمؤتمر.

"وفي الجلسة 12 من الدورة 12(المجلس) تقرر ألا يقتصر عمل المجمع على المصطلحات، وأن يجتهد المجمع في النظر في المصطلحات عن طريق الاستعانة بالمختصين بشكل ينظم فيما بعد".

وفي الجلسة 2 من الدورة 12 (لجنة عامة للمجلس) تقرر أن يكون تنظيم النظر في المصطلحات على الوجه الآتي:

(1) ترسل المصطلحات جميعها إلى البلاد العربية والهيئات العلمية قبل عرضها على الملجس.

(2) توضع علامات على المصطلحات التي ترى اللجنة الاستئناس فيها برأي المجلس.

(3) توضع علامات للكلمات الاصطلاحية التي يستعملها الناس عامة ويرى المجلس ادخالها في معجمه.

وفي الجلسة 3 من الدورة 12 (اللجنة العامة للمجلس) عرض قرار المؤتمر، ورئي أن ينظر المجلس في المصطلحات عقب فراغ اللجان منها دون تقيد بعرضها على الهيئات العلمية أولاً، فقرر الأعضاء أن يسير المجلس حسب منهاجه القديم في نظر المصطلحات[1] ولكن هذا الرأي لم يؤخذ به فكانت القرارات التالية التي اتخذها المجمع في دورات شتى تحاول مشاركة الهيئات الأخرى سواء كانت في مصر أم في البلاد العربية، والاستعانة بالمختصين وأخذ آرائهم"[2].

---

1 ـ مجموعة القرارات العلمية /154، وحاشية 163.

2 ـ م. ن، وحاشية 163

قرار طلب قوائم المصطلحات من الجامعات والمعاهد والهيئات:

"يطلب إلى الجامعات وإلى المعاهد والهيئات العلمية والفنية، وضع قوائم بالمصطلحات المستعملة بها في جميع العلوم والفنون والآداب، وأن تحدد معانيها تحديداً دقيقاً، وأن تردها إلى اللغة العربية إذا استطاعت، وأن تذكر مقابلها من اللغات الافرنجية التي أخذت منها هذه المصطلحات وأن ترسل تلك إلى المجمع" صدر في الدورة 7 والجلسة 2(المؤتمر)[1].

وقرار إضافة مصطلحات البلاد العربية:

"تضاف كل لفظة سرت في البلاد العربية إلى جانب ما وضعته اللجنة المجمعية "دورة 21 جلسة 2 (المؤتمر).

هذا وقد كثرت المطالبات بتوحيد المصطلحات العلمية في البلاد العربية بدءاً من الدورة الأولى للمجمع من قبل الأعضاء الأساتذة الشبيبي ونلّينو والشهابي.. وغيرهم.

وقرار عرض كلمات المجمع على الجمهور:

"تعرض الكلمات والمصطلحات التي يقرها المجمع سنة على الجمهور بعد إقرارها، ويتقبل المجمع في خلال تلك السنة الانتقادات التي يعترض بها العلماء "صدر في الدورة 2والجلسة 30.

وقرار عرض المصطلحات على الوزارات والهيئات في البلاد العربية:

"يكون من وسائل النشر التي يتخذها المجمع إرسال المصطلحات قبل عرضها على المجمع إلى وزارات المعارف والهيئات العلمية في مصر والبلاد

1 ـ مجموعة القرارات العلمية /157.

العربية وغيرها، والانتظار بها مدة كافية، لتبدي هذه الوزارات والهيئات رأيها، وتوافي المجمع به". صدر في الدورة 7 والجلسة 2(المؤتمر).

وقرار عرض المصطلحات على الأعضاء والهيئات قبل نظرها:

"كلما فرغت اللجان الفنية من النظر في المصطلحات العلمية فرئيس المجمع يرسل هذه المصطلحات إلى الجهات العلمية العربية وإلى حضرات أعضاء المؤتمر في الخارج. ويطلب إلى الجميع إبداء ملاحظاتهم في مدة معقولة، ومتى وردت هذه الملاحظات فمراقبة المجمع تحرر بها قوائم متضمنة للأصل الذي أقرته اللجان ولما ورد على هذا الأصل من مقترحات الجهات العلمية الخارجية وحضرات أعضاء المؤتمر، وتعرض هذه القوائم على مجلس المجمع للنظر فيها استعداداً لعرضها على المؤتمر مع ما يراه من الملاحظات".

وقرار نشر مصطلحات كل علم مستقلة قبل نشرها في المجلة:

"ينشر المجمع المصطلحات التي وضعتها اللجان وأقرها المجلس، بحيث تنشر مصطلحات كل علم في نشرة خاصة وتوزع مجاناً على الأفراد والهيئات المختصة بهذه المصطلحات، ويتبع هذه فيما يقر من المصطلحات بعد ذلك. وما أقره المؤتمر من هذه المصطلحات يعاد نشره بعد ذلك في مجلة المجمع" صدر في الدورة 14 والجلسة 3 (المجلس)[1].

وقرار استعمال مصطلحات المجمع في التدريس:

"يقدم المجمع رجاء إلى وزارة المعارف أن يراعي مدرسوها ألفاظ المجمع

---

1 ـ مجموعة القرارات العلمية /157و166

ومصطلحاته في التدريس[1]..."صدر في الدورة 5 والجلسة 9.

تعليق وتعقيب على تلك القرارات:

وقد جاءت هذه القرارات ثمرة حركة دائبة في دورات متفرقة، وجرى عليها من التمحيص وإعادة النظر، وما عدل في بعضها وأضاف جديداً إلى بعضها الآخر، على هدي من التجربة، أو وجهات النظر المختلفة.. وسيجد المتتبع لها أن المجمع لم يبتدع فيها قواعد جديدة، ولم يخرج بها عن طبيعة اللغة العربية ونظامها الموروث بل كانت وجهته الاجتهاد في تفسير ظواهر اللغة، والمواءمة بين طبيعة اللغة ومقتضيات الحياة الجديدة...

وإن المجمع حاول التغلب على العقبات التي كانت تعترض سبيل العاملين على ايجاد أسماء عربية للمسميات الحديثة. ومن بين تلك العقبات الخلاف بين العلماء في القياسي والسماعي من المشتقات والمصادر. لذلك رأى المجمع ضرورة البت في هذه الناحية، وإجازة القياس فيها، قبل الشروع في وضع مصطلحات العلوم وأسماء الآلات والأدوات الحديثة وأسماء الحرف والصناعات التي لم تعرفها العرب من قبل، أو عرفتها ولم يضع علماؤها لها أسماء، فكان من ذلك القرارات الخاصة بقياسية بعض الصيغ ومثل هذا يقال في قياسية الاشتقاق -في لغة العلم- من أسماء الأعيان، ففيها سد للحاجة الشديدة إلى إيجاد أفعال وصفات من غير المصادر: كأسماء الأعيان والجواهر المحسوسة في علوم الطبيعة والكيمياء والطب، وفي الصناعات المختلفة.

وقد نبه المجمع في احتجاجه لهذا القرار إلى أنه لم تقم عقبة في سبيل وضع اصطلاحات العلوم الكيميائية والطبيعية والطبية والحيوية أصعب من منع

1 ـ مجموعة القرارات العلمية/ 166 يقول د.شاكر الفحام: القرارات السبع السابقة لا يعمل بها الآن، فقد مضى أمرها وانقضى.

الاشتقاق من الأعيان، وأنه -بقراره هذا- قد صان العربية عن العجز والاستخذاء أمام المعاني العلمية الحديثة.

والجانب الآخر والمهم من هذه الأقسام يجمع طائفة من التوجهات الخاصة باختيار المصطلحات أو وضعها وتعريفها، وتهيئتها للاستعمال العام، وهذه التوجهات تدور كلها حول الربط بين قديم اللغة وجديدها، والإفادة مما ضمته الكتب العربية القديمة من مصطلحات علمية وفنية وحضارية.. وعرض الألفاظ والمصطلحات المختارة على الهيئات العلمية وجمهرة الناس لترى فيها رأيها وتنقذها، وإشاعة الألفاظ التي يتم تمحيصها والموافقة عليها في دوائر التعليم، ومن طريق الصحافة والإذاعة وغيرهما من وسائل الإعلام، وكثير من قرارات هذا القسم ينحو نحو التوجيه للجان المجمع وخبرائه فيما يقومون به من جمع المصطلحات واختيارها وتعريفها وعرضها وإعدادها لأن تأخذ أمكنتها في مختلف المعاجم. ولقد اقتصر على اثبات نصوص القرارات، دون شرح وتمثيل، فلو شرح كل قرار ومثل له لبلغ الحجم أضعافاً. فما من قرار إلا ودار حوله من البحوث والمناقشات ما يستغرق الكثير من الصفحات.[1]

التوصيات الخاصة بوضع المصطلحات العلمية

لقد أقر مجلس المجمع ومؤتمره في دورته الخامسة والأربعين عام 1979 التوصيات الخاصة بوضع المصطلحات العلمية، والتي نشرت في المجلد الحادي والعشرين من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية وهي:

آ-المبادئ الأساسية لاختيار المصطلح:

1-الالتزام بما أقره مجلس المجمع ومؤتمره من نهج أو أسلوب لوضع المصطلحات العلمية وتعاريفها.

1 ـ ينظر: مجموعة القرارات العلمية، الصفحات: ن س ع ف ص ق ر.

2-الوفاء بأغراض التعليم العالي ومطالب التأليف والترجمة والثقافة العلمية العالية باللغة العربية.

3-الحفاظ على التراث العربي وخاصة ما استقر منه من مصطلحات علمية عربية صالحة للاستعمال الحديث.

4-مسايرة النهج العلمي العالمي في اختيار المصطلحات العلمية، ومراعاة التقريب بين المصطلحات العربية والعالمية لتسهيل المقابلة بينهما للمشتغلين بالعلم وللدارسين.

ب-التوصيات:

1-الأخذ ما أمكن بوضع مصطلح عربي لمقابلة الانكليزي أو الفرنسي مع الاسترشاد بالأصل اللاتيني أو الاغريقي إن وجد، ومراعاة أن يتفق المصطلح العربي مع المدلول العلمي الأجنبي، دون تقيد بالدلالة اللفظية مثل: "غرفة كاتمة" وليس "غرفة ميتة" في مقابل: dead room، "انفعال" وليس "ضغطاً" في مقابل: strain ، "مكونات فحمية" وليس "مقاييس فحمية" في مقابل: coal measures ، "نيم الريح" وليس "علامات الريح" في مقابل: wind marks، "مهبط النهر" وليس "تحت النهر" في مقابل: down stream، "المد" في مقابل: high tida و"الجزر" في مقابل: low tide، "صخور مغتربة" في مقابل: Nappes، "منكشف الصخر" في مقابل: out crop، "طية متكئة" في مقابل: overfold، "مهوى الصدع" في مقابل: hade of fault.

2-إيثار الألفاظ غير الشائعة لأداء مصطلحات علمية ذات دلالة محددة دقيقة، مثال ذلك: "كم" بدلاً من "كمية" في مقابل: Quantum، "امتزاز" بدلاً من "امتصاص سطحي" في مقابل: adsroption، "استطارة "بدلاً من "تبعثر" في مقابل scattering، "أيض" بدلاً من "تحول غذائي" في مقابل:

metabolism، "مبدى" بدلاً من "عتبة" في مقابل: threshold، "تطوّح" في مقابل: straggling، "بوغ" بدلاً من "جرثومة" في مقابل: spore، "الصخر السرئي" بدلاً من "بيض السمك" في مقابل: oolitic rock، "التجوية" بدلاً من "التأثر بالعوامل الجوية" في مقابل: weathering.

على أن تتجنب الألفاظ الغربية والمبتذلة والثقيلة على النطق أو السمع والتي لا يسهل الاشتقاق منها مثل:

"الرياضيات" بدلاً من "ماتيماتيقا" في مقابل: mathematics

"ترمومتر" بدلاً من "محرار" في مقابل: thermometer

"الكحول" بدلاً من "الغول" في مقابل: A´lcohol

3-التعريب عند الحاجة، وبخاصة عندما ينصب المصطلح الأجنبي على اسم علم، أو كان من أصل يوناني أو لاتيني شاع استعماله دولياً، ويحتفظ بصورته الأجنبية مع الملاءمة بينها وبين الصيغ العربية، مثال ذلك:

فيزيقا:physics جيولوجيا:geology

بيولوجيا:biology فسيولوجيا:physiology

ديناميكا: dynamics استكاتيكا: statics

سيكلوترونcy- clotron نيوترون:neutron

أنزيم: enz- yme ببسين: pepsin

ميكا: mica كاميرة:camera

4-عد المصطلح المعرب من اللغة العربية واخضاعه لقواعدها، وإجازة الاشتقاق والنحت منه، واستخدام أدوات البدء والالحاق، على أن يقاس كل ذلك على اللسان العربي. مثال ذلك لفظ "أيون" مقابل "ion" الذي اشتق من الفعل "أين" فيقال: "أينت الغاز فتأين" وينسب إليه فيقال: "جهد أيوني" و"كثافة أيونية" و"غاز مؤين" وينحت منه "كاتيون" أي"أيون" كاتودي" و"آينون"

أي "أيون أنودي" و"محلول لا أيوني" و"أكسيد": oxide الذي اشتق منه أكسدة ومؤكسد ومؤكسَد. و"بسترة اللبن" pasteurization واشتق منه "لبن مبستر" و"لبن لا مبستر".

5- الأخذ بما درج المختصون على استعماله من مصطلحات ودلالات علمية خاصة بهم أو قاصرة عليهم، معربة كانت أو مترجمة مثال ذلك:

متزامن: synchronus متفلور: fluorescent

هدرته: hydration ترانزستور: transistor

تلجنن:lignification كربنة: carbonation

تصخر: petrification تسلكت cilicification

اللهم الا أن يتبين خطأ الاستعمال الشائع، فيستبدل به استعمال صحيح مثل "حاسب الكتروني" لا"عقل الكتروني": computer (الحاسوب)

6- إفراد المصطلح الواحد بلفظ واحد ما أمكن: وهذا يساعد على تسهيل الاشتقاق والنسبة والإضافة والتثنية والجمع، مثال ذلك لفظ "ترمومتر" بدلاً من "مقياس درجة الحرارة" فيقال: "قراءات ترمومترية" بدلاً من "قراءات مقياس درجة الحرارة" و"ترمومترات بلاتينية" بدلاً من "مقياس درجات الحرارة البلاتينية" هذا بالإضافة إلى ما في هذا التعبير الأخير من اللبس.

وكذلك "زوم" للعدسة ذات البعد البؤري المتغير: zoom

و"بريشة" بدلاً من كسارة صخرية ملتحمة: breccia

و"دوللي" بدلاً من "حامل الكاميرة المتحرك": dolly

7-توحيد المصطلحات المشتركة "عربية كانت أو معربة" ذات المعنى الواحد بين فروع العلم المختلفة. فإن كان المصطلح أصيلاً في أحد فروع العلم الأساسية التزمت به الفروع الأخرى مثل: "فوتون" و"الكترون" وهما مصطلحان نشآ أصلاً في الفيزيقا واستخدمتها بقية العلوم. أما إذا كان مشتركاً بين علوم

مختلفة، فينبغي أن يتم عليه اتفاق وإجماع من المختصين في هذه العلوم، مثال ذلك أسماء العناصر.

8- عند وجود ألفاظ مترادفة أو متقاربة في مدلولها، ينبغي تحديد الدلالة العلمية الدقيقة لكل واحد منها، وانتقاء اللفظ العلمي الذي يقابلها، مثال ذلك:

مقاومة: resistance معاوقة:impedance

ممانعة: reluctance مقاصرة: inertance

ويحسن عند انتقاء مصطلحات من هذا النوع أن تجمع كل الألفاظ ذات المعاني القريبة أو المتشابهة الدلالة وتعالج كلها مجموعة واحدة.

9-ضرورة تعريف المصطلح، ولا شك في أن المصطلحات يفسر بعضها بعضاً، وحين يرد مصطلح في تعريف مصطلح آخر فلا محل لتعريفه هنا، وإنما يرجع إلى تعريفه في موضعه.

10-يكتب اسم العالم الأجنبي بالصورة التي ينطلق بها في لغته، مع الإشارة إلى جنسيته وتخصصه، ويضاف إليه الاسم مكتوباً بالحروف اللاتينية.

11-البدء بالمصطلحات الأشهر والأكثر تداولاً ثم تأتي مرحلة تالية المصطلحات الأقل شهرة وتداولاً، ذلك ييسر إخراجها في معاجم موجزة أو وسيطة أو كبيرة.

12-عند طباعة المعاجم تكتب المصطلحات الأجنبية بحروف صغيرة مالم تكن أعلاماً، ويكتب المصطلح العربي المقابل غير معرف بالألف واللام ليتيسر الكشف عنه في المعجم.[1]

المجمع وتوحيد المصطلحات العلمية العربية:

"من حق العالم أن يضع مصطلحه، ولكن لا قيمة لهذا المصطلح إلا إذا أقر من أهل العلم والمتخصصين، وبذا يصبح جزءاً من اللغة العلمية الشائعة. ولم يكن

1 ـ مجموعة القرارات العلمية والفنية التي أقرها مجمع اللغة العربية عام 1979/مج21.

علماء العرب في نهضتهم الحديثة وثيقي الصلة فيما بينهم، إذ يصطلح كل كما يرى ويعبر كما يحلو له. وفوق هذا تباينت هذه النهضة في تاريخ بدئها ومؤثراتها من بلد إلى آخر.. وقد أدى ذلك إلى بلبلة المصطلح واضطراب الاستعمال في الحديث والكتابة، وأريد بالمجامع اللغوية أن تتدارك هذا النقص، وتعاون في توحيد المصطلحات العربية. وفي سبيل هذا التوحيد حرص مجمع القاهرة دائماً على أن يساهم فيه علماء العرب جميعاً كي تجيء مصطلحات وليدة اجماع وثمرة تعاون مشترك.

ومن مبادئه الثابتة أن لا يصبح المصطلح نهائياً إلا إذا أقره المؤتمر السنوي رمز هذا التعاون، ومتى أقر نشر في المجلة أو في مجموعات خاصة وبلغ للهيئات العلمية في شأن بعض المصطلحات، ويجيب دون أن يفرض رأياً أو يلزم بقرار..

ولا شك في أن لقرارات المجلس وزنها، وفي نشرها ما يمكن من الإفادة منها، وللمصطلحات فيها نصيب واضح، وقد بقي قدر كبير منها محبوساً زمناً، ومنذ انتظم نشرها أقبل الناس عليها وكثر استعمالها، وتلك وسيلة هامة لتوحيد المصطلح العربي، وتعاونها اليوم وسائل أخرى، في مقدمتها الاتحادات والمؤتمرات العلمية العربية التي تنعقد من حين لآخر، كالمؤتمر الطبي، ومؤتمر الصيدلة، والمؤتمر الجغرافي، والمؤتمر العلمي، ويحرص المجمع على أن يشترك في هذه المؤتمرات ويتابع نشاطها.

ودرج المؤتمر العلمي على أن يشتمل جدول أعماله على مجموعة قيمة من المصطلحات العلمية، ولا يتردد في أن يحيلها على المجمع.

وللنشر والتأليف العلمي شأن في تداول المصطلحات واستعمالها، يضعها في إطارها ويبرز قيمتها، وقد نشط في السنين الأخيرة نشاطاً ملحوظاً. وأصبحت العربية تشتمل على مؤلفات علمية لم تكن معروفة من قبل، وربما ألحق المؤلف

بكتابه ثبتا بما ورد فيه من مصطلحات ومقابلها الأجنبي. ولا نزاع في أن الدراسة الجامعية ستدفع هذا التأليف قدماً، وتوفر كتبا علمية قيمة.

وليست مشكلة توحيد المصطلح العلمي بمقصورة على العربية، فقد صادفتها لغات أخرى، وعالجتها على النحو الذي نسلكه. وإذا كانت مصطلحات بعض العلوم قد ثبتت فيها واستقرت، فهناك علوم أخرى، وخاصة الحديثة نسبياً، ما تزال مصطلحاتها قلقة ومتعارضة.. ولقد أحست الجامعة العربية بواجبها نحو توحيد المصطلح العلمي والفني، فعقدت له اللجان ونظمت المؤتمرات. وفي وسعها أن تقود حركة ثقافية عربية شاملة ربما كانت أعمق وأنجع مما تعالجه منظمة اليونسكو في النطاق الدولي[1] لهذا أنشأت مكتب تنسيق التعريب الذي سيأتي الكلام عليه.

جهود المجمع في نشر مجموعات المصطلحات العلمية والفنية:

"لقد تولت مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة فور صدورها القيام بنشر بعض المصطلحات العلمية والحضارية بدءا من الجزء الأول[2] وحتى الجزء السابع، وذلك بالإضافة إلى ما كانت تنشره من موضوعات لغوية أخرى. وكانت هذه المصطلحات تتصل بعلوم مختلفة وأكثرها المصطلحات الرياضية والقانونية والاقتصادية، وعلم الأمراض وعلم الرمد البكتيريات وعلم الكيمياء وعلم الحرارة وعلم الكهرباء واللاسلكي وعلم الأحياء، وفي الآداب والفنون والحضارة"[3].

---

1 ـ مدكور، ابراهيم/ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً، ماضية وحاضرة/ 58-57

2 ـ وقد صدر العدد الأول من المجلة في جمادى الآخرة عام 1354هـ الموافق لسبتمبر (أيلول) 1934م وطبعت بالمطبعة الأميرية بالقاهرة. وقد خصص القسم الأول منها لمواضع دائمة مثل القرارات والمصطلحات العلمية.

3 ـ الشهابي، مصطفى /المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ 81

"ولم يقف المجمع عند هذا النشر الضمني في مجلته، بل حرص على أن يقف مجلدات مستقلة على ما أقره من مصطلحات، فنشر العام 1942 (مجموعة المصطلحات العلمية والفنية) التي أقرها في الدورات الست الأولى وتشتمل على نحو 3600 مصطلح ولعلها لا تخلو اليوم من أخذ ورد، فقد كانت الباكورة الأولى، والعلم في تقدم مستمر.

ثم توقف النشر زمناً لأسباب شتى وعاد أخيراً في شيء من الاطراد والتتابع، فنشر المجمع عام 1957 (المجلد الأول من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية) التي أقرها، تاركاً جانباً المجموعة القديمة. ويحتوي هذا المجلد على نحو 9600 مصطلح في شتى العلوم والفنون والذي أعيد طبعه عام 1971."[1].

ثم تتابع نشر هذه المجموعات حتى بلغ عام 1988 ثمانية وعشرين مجلداً احتوت نحو ستين ألف مصطلح (60000) أو يزيد.

"ويحرص المجمع على أن يعرف مصطلحاته وكان قديماً يكتفي بسردها، وأصبح التعريف جزءاً متمماً للمصطلح يوضحه ويعين على نشره واستعماله، وفيه مجال فسيح لتعليق العلميين وملاحظات اللغويين، وقد يتطور البحث فيزيد الفكرة دقة ووضوحاً"[2]

"وربما تحولت هذه المجموعات إلى معاجم متخصصة. وقد حصل أن أتيح للمجمع فرصة إخراج معجمات متخصصة في العلوم الطبيعية والرياضية كالجيولوجيا والهيدرولوجيا والفيزيقا والفيزيقا النووية، والكيمياء والصيدلة"[3].

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها المجمع على مدى ستين عاماً في وضع المصطلحات العلمية والفنية بالطرق المختلفة، فإنها تبقى ناقصة لا تفي بالقصد

---

1 ـ مدكور، ابراهيم/ مجموعة المصطلحات العلمية والفنية/ مج2 (المقدمة).

2 ـ مدكور/ المرجع السابق/ مج 21 (المقدمة) ومج 25 (المقدمة)

3 ـ مدكور/ المرجع السابق/ مج 21 (المقدمة) ومج 25 (المقدمة)

إلا قليلاً نظراً لتقدم الركب العلمي السريع.

ولقد قيل أخيراً: "أن المجمع يكاد يقف على المصطلحات كل وقته، وليته يخفف من نظرها بعض الشيء. وأغلب الظن أنه لم يدفعه إليها إلا حاجة ماسة وضرورة ملجئة. فقد أعانت مصطلحاته حركات التعريب التي تضطلع بها بلاد عربية شقيقة"[1].

ومن الواضح أن المجمع قد نجح في مهمته بوضع آلاف المصطلحات العربية في العلوم والفنون، ولكن الانتفاع بها في مصر كان ضعيفاً، وخاصة في الجامعات والمعاهد العليا التي بقيت بعيدة عن الاستفادة من هذه المصطلحات إذ أن معظمها يعتمد اللغة الانكليزية لغة التدريس.

ويقول أحد الباحثين في هذا المعنى: "ولعل ما جعل أعمال هذا المجمع نظرية أكثر مما هي عملية أن المصطلحات التي أقرها أو وضعها لم تستخدم في التدريس الجامعي الذي ما زال يؤدى في مصر بالانكليزية في الكليات العلمية"[2].

من منشورات المجمع من معاجم المصطلحات العلمية:

1-معجم الجيولوجيا، ط1965. وأعيد طبعه مرة ثانية العام 1982

2-المعجم الجغرافي، ط1974

3-معجم الكيمياء والصيدلة، ط1983

4-معجم الفيزيقا، ط1984

5-معجم الهيدرولوجيا

6-معجم الفيزيقا النووية.

---

1 ـ مدكور، ابراهيم/ مجموعة المصطلحات العلمية والفنية/ مج5 (المقدمة).

2 ـ الخوري، شحادة/ تعريب التعليم العالي وصلته بالترجمة والمصطلح /مجلة (اللسان العربي) مج21/ 146.

اللغات السامية[1]

الحديث عن الأسر اللغوية، قد يفيد دارسي الألسنية المقارنة... ولذا، نعرض هنا أنموذجا عن اللغات السامية، لعله يفيد الدارسين في المقارنة بين اللغات... وخصائصها...

فالسامية تسمية حديثة العهد، اقترحها عالم اللاهوت الألماني -النمساوي شلوتزر Scholzer العام 1781 للميلاد، لتكون علماً على عدد من الشعوب التي نشأت في هذا الجزء من غرب آسيا حضارات ترتبط لغوياً وتاريخياً، كما ترتبط من حيث الأنساب؛ تلك الشعوب التي زعم أنها انحدرت من صلب سام بن نوح، بناء على ما جاء في التوراة في صحيفة الأنساب الواردة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين، من أن الطوفان عندما اجتاح سكان الأرض لم ينج منه سوى نوح وأولاده الثلاثة: سام وحام ويافث وما حمل معه في سفينته من كل زوجين اثنين. وقد شاعت هذه التسمية وأصبحت علماً لهذه المجموعة من الشعوب عند عدد كبير من العلماء في الغرب ومن سايرهم من العرب"، على الرغم من أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي، أو إلى أسس علمية عرقية صحيحة، أو وجهة نظر لغوية.

إن هذه الشعوب التي أطلق عليها خطأ اسم "الساميون" هي في حقيقة الأمر قبائل عربية هاجرت بفعل العوامل الطبيعية من جزيرة العرب بحثاً عن الماء

1 ـ سالم سليمان الخماش، جامعة الملك عبد العزيز بجدة / كلية الآداب والعلوم الإنسانية

والكلأ، ومنها تفرعت الأقوام الأخرى، يؤكد هذا القول ما ذهب إليه "كثير من العلماء الباحثين في أصل الأجناس والسلالات من أن العرب هم أصل العرق السامي، ومن أرومتهم تفرعت الأقوام الأخرى وتشعبت قبائلها، ولهذا الفريق شواهد تاريخية وعرقية ولغوية يدعم بها حجته ويثبت آراءه."

الموطن الأصلي للغات السامية

اختلف علماء الساميات حول الموطن الأصلي للغة السامية الأم. ومن أشهر الآراء في هذا الباب تلك التي تقول إنه:

1-أرض إرمينية وكردستان: ويعتمد أصحاب هذا الرأي على أدلة دينية ولغوية توراتية. فقد ورد في العهد القديم أن سفينة نوح رست على جبل في إرمينية، وقد عاش نوح وأبناؤه في هذه المنطقة، وقد لعن حام وأبعد منها، ورحل عنها يافث، وبقي فيها سام الذي نشأ أبناؤه هناك فيها، ومن ذريته كان أرفكشد. ويزعم هؤلاء أن في هذه المنطقة إقليم يسمى أربختس، وهذا الاسم ما هو إلا تغيير أرفكشد وهو أحد أبناء سام، قائلين إنّ الفاء والباء حروف شفوية والكاف والخاء حروف متقاربة المخارج، أي أن أصل أربختس هو - أربخست - أرفكشد.

2- أرض بابل في العراق، أي جنوب العراق...

3- أرض إفريقيا...

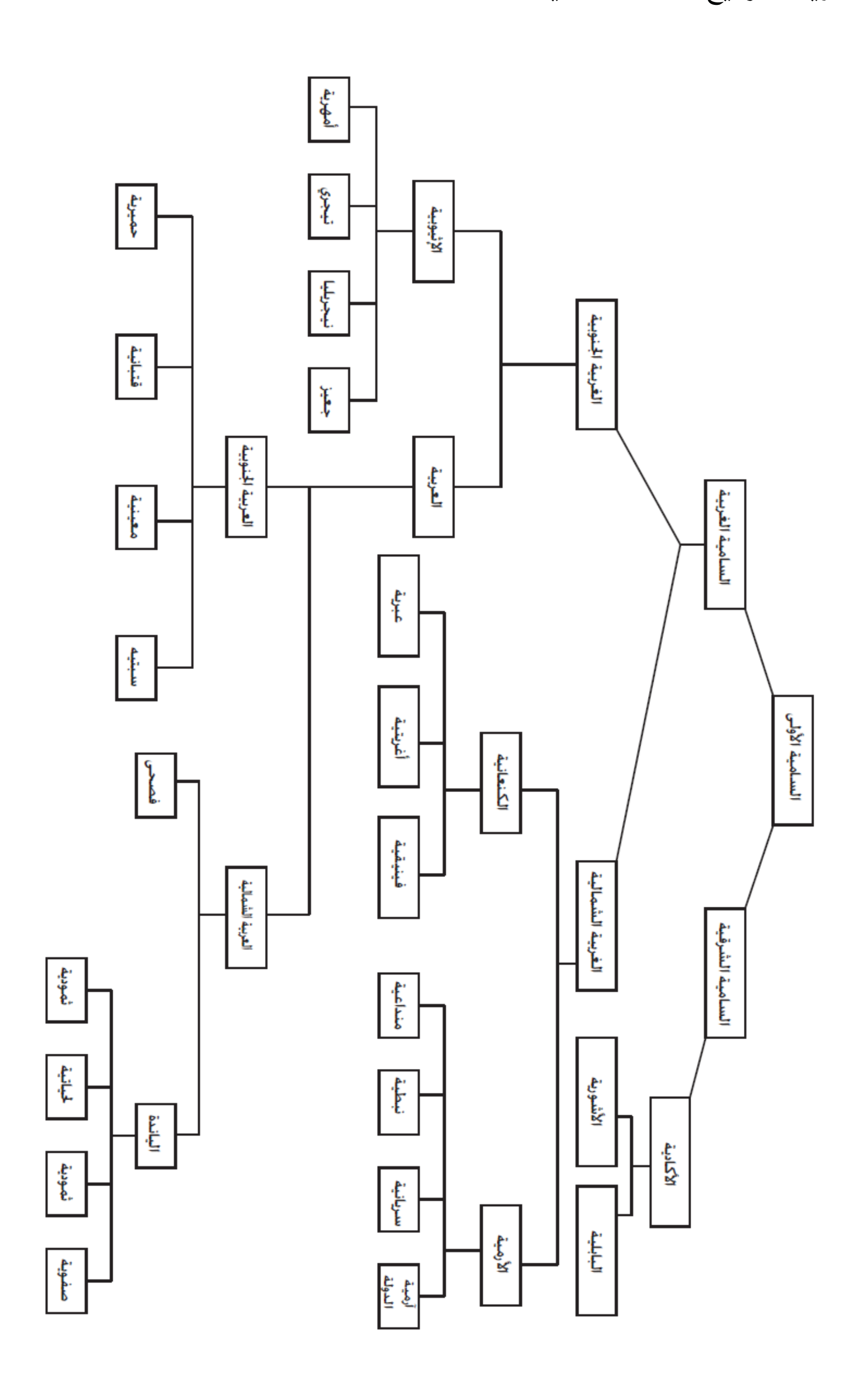
4- شمال سورية بلاد آمورو كما كانت تسمى في النقوش القديمة.

5- جزيرة العرب (اليمن خاصة)...

قال بهذا عدد من المستشرقين مثل إيراهارد شرادر وأيده من بعد فنكلر، وتيله، والأب فنسان، والأثري الفرنسي جاك دي مورجان، والمستشرق الإيطالي كايتاني الذين يرون أن الموطن الأصلي للساميين كان شبه الجزيرة العربية." ويؤيد هذا الرأي الأمور التالية: (أ) إن انتقال البشر من المناطق القاحلة إلى

الخصبة أمر منطقي تماما. أما القول بعكسه فليس له ما يؤيده من ناحية العقل أو التاريخ. (ب) إن العربية تحتفظ بكثير من السمات اللغوية للغة السامية الأم بينما فقد هذه السمات كثير من اللغات السامية المحاذية لأقوام غير سامية، ومن يحتفظ بالسمات الأولى هو أولى بالأصل من غيره، ولا يعقل أن يكون العرب قد انتقلوا من مناطق لأقوام غير سامية ثم جاءوا إلى جزيرة العرب وبقوا محتفظين بسماتها القديمة. (ج) وجود سمات مشتركة بين العبرية والسبئية، يؤكد هذا ما ذهب إليه مرجوليوث من أن الوطن الأصلي لبني إسرائيل هو بلاد اليمن وليس شبه جزيرة سيناء، وقد اعتمد في رأيه هذا على بعض الخصائص اللغوية المشتركة بين السبئيّة والعبرية، إلى جانب اعتماده على تشابه العادات والتقاليد والأخلاق الدينية عند السبئيين وبني إسرائيل. (د) وجود علاقة بين أسماء بعض الآلهة السامية في الأساطير البابلية مثل تيامت، وهي آلهة وثنية تهيمن على السواحل، واسم ساحل تهامة وهو ساحل البحر الأحمر في غرب الجزيرة العربية. وعلاقة لغوية بين الأسماء الدينية في التوراة والقرآن الكريم كجنة عدن وبلاد عدن في جنوب الجزيرة العربية.

- خريطة توزيع اللغات السامية



تقسيم اللغات السامية

اللغات السامية تنقسم إلى ثلاثة فروع هي: (1) اللغات السامية الشرقية و(2) اللغات السامية الشمالية الغربية (3) اللغات السامية الجنوبية الغربية (أو الجنوبية).

ولا يضم الفرع الشرقي غير اللغة الأكادية وهى أقدم لغة سامية تم تأكيد وجودها على أساس النصوص المسمارية. وكانت الأكادية مستعملة في بلاد ما بين النهرين منذ حوالي سنة 3000 قبل الميلاد حتى ما يقارب 100 سنة بعده. واستمرّ استعمالها لغة كتابة منذ حوالي 2000 ق.م وحتى القرن الثاني أو الثالث الميلادي. وقد تطور منها لهجتان هما البابلية في الجنوب والآشورية في الشمال، اللتان خلفتهما الآرامية في القرن السادس ق. م. إنّ الفرق الرئيس بين اللغات السامية الشرقية واللغات السامية الغربية هو اختلاف نظام الأفعال.

السامية الجنوبية الغربية أو الجنوبية

وتحتوي اللغات السامية الجنوبية الغربية أو الجنوبية على (1) العربية الجنوبية و (2) العربية الشمالية و(3) اللغات الإثيوبية.

ومن مصادر اللغة العربية الجنوبية بعض النقوش القديمة إضافة إلى اللهجات العامية المنطوق بها حاليا في اليمن و عُمان. وقد اشتقت أبجديتها من الخط الكنعاني الذي جيء به إلى المنطقة من شمال الجزيرة العربية حوالي سنة 1300 ق .م، وتعود النقوش العربية الجنوبية ـ وهي في شكل نذور ووثائق ونقوش على القبور، إلى فترة ما بين 700 ق. م. و 500م. وتضم العربية الجنوبية بضع لهجات منها السبئية والمعينية والقتبانية ولهجة حضرموت. أما اللغات المعاصرة لجنوب الجزيرة العربية فليست مكتوبة وهى في طريقها إلى الانقراض نتيجة

انتشار اللغة العربية الشمالية. وأشهر تلك اللغات هي المهرية والسقطرية.

العربية الشمالية

وتنقسم إلى العربية البائدة وهي التي كان يتكلمها أبناء قبائل ثمود ولحيان في شمال الحجاز وسكان الصفا في بلاد الشام. وثمة آلاف النصوص القصيرة المنقوشة على الصخور التي تعود إلى حقبة ما بين 700 ق.م .و400 م. ويعود أقدم النصوص العربية المكتوبة بالخط المشتق من الأبجدية النبطية إلى القرن الرابع للميلاد. ويقع مهد اللغة العربية الباقية (الفصحى) في شمال الجزيرة العربية. والمصادر الأولى لتلك اللغة هي الشعر الجاهلي والقرآن الكريم. ومع ظهور الإسلام وانتشاره انتشرت العربية وأصبحت لغة الثقافة والعلوم من بلاد فارس وآسيا الصغرى إلى المحيط الأطلسي وأسبانيا.

والإثيوبية تشبه لغات جنوب الجزيرة العربية أكثر مما تشبه العربية الشمالية. وأقدم تلك اللغات هي الجعزية المعروفة باسم الإثيوبية. ويعتقد بعض علماء الساميات أنها تفرّعت من لغة جنوب الجزيرة العربية في بداية العهد المسيحي لتبلغ أوج اتّساعها في القرن الرابع. وكان تكلّم بها في ذلك الوقت سكّان مملكة أكسوم الواقعة على الحدود الحالية بين إثيوبيا وإريتريا. ومع أنّ الجعزية قد توقف استعمالها كلغة للكلام منذ حوالي 1000م إلاّ أنها ظلت لغة الطقوس الدينية في الكنيسة الحبشية.

ومن يتأمل الكلمات التي وردت في الجدول الآتي، يدرك العلاقة اللغوية بين هذه اللغات:

العربيّة	الإثيوبيّة	الأكاديّة	الأوغاريتية	الآراميّة	العبريّة
أخ	إخْتُ	أَخُو	أخُ	أحَا	أحُ
بَعْل	باعِل	بيلُ	بعل	بَعلا	بَعَل
كَلب	كلب	كلبُ	كلب	كلبا	كِلِف
ذُباب	زمب	زمبُ	ـ	دَبَّاثا	زِفوف
زَرْع	زَرِع	زِيرُ	درع	زرعا	زِرَع
رأس	رِءِس	رِيشُ	ريش	ريشا	رُأش
عين	عين	ينُ	عن	عينا	عَيِنْ
لسان	لسان	لِشانُ	لسن	لِشَّانا	لَشُن
سِنّ	سِنّ	شنُّ	ـ	شِنانا	شِنْ
سماء	سماي	شمو	شمم	شِمَيّا	شمايم
ماء	ماي	مُو	مي	مَيّا	مَيم
بيت	بِت	بيتُ	بت	بيتا	بَيِتْ
سلام	سلام	شلامُ	شلم	شِلاما	شَلُوم
اسم	سِم	شُمُ	شم	شِمَا	شِم

الخصائص المشتركة بين اللغات السامية

(أ) وجود عدد كبير من الحروف الحلقية، وهي: ع، غ، ح، خ، هـ، ء. لكن بعض هذه الأصوات لم يبق على حاله في بعض اللغات، بل تغير بعضها إلى أصوات أخرى. ولم تبق كاملة إلا في العربية الشمالية والعربية الجنوبية والأغاريتية. (انظر الجدول).

حروف الحلق		
ع تغير إلى	ء	الأكادية
ح تغير إلى	هـ > ء	الأكادية
خ تغير إلى	ح	العبرية والآرمية
غ تغير إلى	ع > ء	الأكادية
	ع	العبرية، الآرمية، الإثيوبية

(ب) وجود عدد من حروف الإطباق وهي: ق، ،ص، ط، ض، ظ؛ لكنها لم تبق أيضا على حالها في جميع هذه اللغات، بل تغير بعضها. ولم يحتفظ كاملة إلا العربية الشمالية والعربية الجنوبية (انظر الجدول).

حروف الإطباق		
ض تغير إلى	ص	الأكادية، العبرية، الأوغاريتية
	ع	الآرمية
ظ تغير إلى	ص	الأكادية، العبرية، الإثيوبية
	ط	الآرمية

(ج) يقوم بناء الكلمة على الحروف الصامتة، فهي وحدها التي تؤدي المعنى العام، أما الحركات القصيرة والطويلة والزوائد فوظيفتها تأدية المعاني الاشتقاقية والصرفية، كتَبَ، كاتب، كُتِب، مكتب.

(د) يقوم معظم جذور الكلمات السامية على ثلاثة أحرف، وقليل مكون من حرفين، مثل: أب أخ أو فوق الثلاثة، مثل: أرنب، قنفذ، عقرب.

(هـ) امتازت اللغات السامية بوجود عدد كبير من صيغ الفعل الدلالية التي قلما توجد في عائلات لغوية أخرى، نحو: فعَل، فعّل، أفعل، فاعل ، تفعّل، افتعل، انفعل، تفاعل، استفعل، افعلّ، افعوّل، افعوعل.

(و) ندرة صيغ الدمج الذي نصادفه في اللغات الأوربية مثلاً؛ حيث تدمج كلمتان أو ثلاث لتصبح واحدة كما في الإنجليزية bodyguard المدموجة من (Body+gaurd) و (homework) المدموجة من (home+work)، لكن هناك في الساميات ولا سيما العربية ألفاظ قليلة جاءت عن طريق ما يسمى بالنحت وهو غير الدمج مثل حمدلة وبسملة وجعفل.

(ز) وجود علامات إعرابية تدل على الموقع الإعرابي أو الحالة التركيبية: المسند إليه، والاسم المسند، والمضاف إليه، إلخ، وعلى نصب المضارع وجزمه، وقد فقدت بعض اللغات السامية هذه العلامات ولكن العربية احتفظت بالعلامات الأصلية: الفتحة والضمة والكسرة والسكون، وهناك علامات فرعية كنيابة حركة عن حركة، وحرف عن حركة عن حرف والحذف ...)

(ح) وجود صيغ للتثنية في الأسماء والضمائر المنفصلة والمتصلة الدالة على المخاطب والغائب.

(ط) اتساع النزعة الفعلية في اللغات السامية، أي أن هناك اهتماما بالفعل بدليل وجود صيغ متعددة له، وهناك اشتقاقات لأفعال من أسماء جامدة، مثل: بطن فلان أي أصابه مرض في بطنه، وكبدته أي أصبت كبده.

(ي) تمييز المخلوقات والأشياء إلى مذكر أو مؤنث ولا ثالث لهما، نحو شمس، بئر، وسماء، وجبل، وقمر، وليل، ونهار.

موضوع اللسانيات (غرضها)

كان موضوع اللسانيات، بالنسبة إلى سوسير، يطرح على النحو الآتي: ما هي المحرمات التي ينبغي على هذا الفرع الخاص بدراسة اللغة أن يتحول عنها ويصبح علماً مستقلاً؟ فسوسير قد أجاب أنه ينبغي على اللسانيات الاكتفاء بدراسة اللسان في ذاته ولذاته، بوصفه منظومة من العلامات والقواعد، وهو كنز جماعي موجود في الدماغ كما أنه مجموعة من الاصطلاحات الخاصة بمتكلمي اللغة نفسها، ومدونة وحيدة متجانسة تتيح للمتكلمين إمكانية التواصل.

إنّ المحرم أو المستبعد يعني كل مكوّنات التواصل الأخرى التي لا تدخلُ في إطار هذه المدونة نفسها، وهذا يعني أن أي استخدام لتلك المدونة على أنه سلسلة من العمليات:

-التي لها مكان ضمن إطار زماني -مكاني محدد.

-والمتعلقة بمرجعية (الماهيات، والأحداث، وحالات أشياء العالم خارج- اللغوي) تتغير في كل مرة ليصبح لها شكل خاص.

-التي تضم متحدثاً ومخاطباً بكل ما عندهما من ذاتية، بالمعنى الواسع للكلمة.

-والتي تشكل مكاناً لتبادل فعلي مستمر بين هذا وذاك.

إذاً، فاللسان بالنسبة إلى سوسير هو ذلك النمط الرائع للحادث المصطنع (العارض)، ذلك الموضوع الذي يعيد العالم بناءه من طريق التجريد انطلاقاً من المادة التي تدركها ملاحظته.

ضمن هذا المنظور، تنطوي مهمة الألسني على جمع أوفر كمية ممكنة من الرسائل التي ينتجها مستخدمو اللسان، وبعد أن تجمع مادة البحث هذه، يبحث الألسني، من دون أن تكون لديه فكرة مسبقة عن الوحدات التي تتكون منها مادة البحث... ثم تصنف هذه الوحدات، وتستخلص قوانين تكونها.

هذه المهمة، إجمالاً، هي التي أنجزتها اللسانيات المسماة: "البنيوية".

وقبل ذكر السبب الذي عد وجهة نظر سوسير هذه بشأن اللغة ضيقة جداً، واختزالية وتتصف أحياناً ببساطة تقترب من التبسيطية، قبل هذا... لا بد من الإشارة إلى ثرائها أو خصوبتها.

وفي الحقيقة أن اللسانيات البنيوية برعت في وضع مناهج فعالة -بشكل أساسي المنهجية المتعلقة بالتواصل، تمكنت بعضها بدقة كبيرة، من تقطيع مادة البحث، وعزل الوحدات الدالة والوحدات الصوتية الصغرة غير الدالة، في السلسلة المتصلة التي تشكل مادة البحث، كما تمكنت من التعرف على السيمات Semes المميزة التي بواسطتها تقابل الوحدة كافة الوحدات الأخرى الواقعة في المستوى نفسه (المورفيمي أو الفونيمي)، وضم العناصر التي لها بعض الخواص التوزيعية المشتركة في جذر Pardigme واحد.

في ميدان علم وظائف الأصوات Phonologie، حققت اللسانيات البنوية نجاحاً باهراً، وهي نقطة لا يختلف عليها أحد.

وفي ميدان علم التراكيب Syntaxe، يسجل لها أيضا، نجاح مهم... وحتى علم الدلالة نفسه استفاد من تطبيق المناهج البنيوية، فالبحث عن السمات المميزة في ترتيب الدلالة التي بواسطتها تتعارض المورفيمات إحداها مع الأخرى -وهي سمات خلعت عليها تسمة السيمات، Semes -.هذا البحث أفضى إلى التحليلات السيمية والمدلولية[*1] Componencielles. ومن جانب آخر، فقد قدم تفسير

1 ـ(*)-استخراج المدلولات في لفظة ما.

التركيب السيمي للمورفيمات (الشكيلات) وسيلة لوصف أفضل لظاهرة الترادف، وتعدد المعاني والتشابه اللفظي، والاستعارة والكناية. وأخيراً أتاحت (اللسانيات البنيوية) مجالاً أفضل لاستخلاص البنى التي بمقتضاها ينتظم معجم لسان معيّن.

إذاً، فحصيلة اللسانيات البنيوية غنية. وهي تشكل مرحلة مهمة من مراحل تطور اللسانيات.

ب-شومسكي:

يأخذ تشومسكي على اللسانيات البنيوية أنها لم تهتم بخاصية يعدها أساسية من خواص اللغة وهي الإبداعية، أي قدرة المتحدث -المستمع على إنتاج وتأويل كل جمل اللسان، ولا شيء غير هذه الجمل التي لا حدود لها، انطلاقاً من عدد محدود من المقولات والقواعد التي تشكل كفاءة ذلك المتحدث- المستمع؛ ولإيضاحها فإن القواعد التوليدية تستبدل:

-المفهوم السكوني للغة بمفهوم آخر ديناميكي.

-إدراك الوقائع فقط على مستوى مقطوعات المورفيمات والفونيمات، بفرضية مجموعة من المستويات الواقعة تحت مجموعة من قاعدات التحويل للانتقال من البنية العميقة إلى البنية السطحية.

-الوصف البنيوي لمادة بحث معينة، بسلسلة تصورية على شكل اشتقاقات ذات نمط رياضي (وبالتالي افتراضي- استنتاجي) من العمليات المنظمة تكون نتيجتها جملة ما.

إن مفهومي (المستوى)، و(العملية) اللذين يشكلان جزءاً من الجهاز المفهومي الأساسي للقواعد التوليدية، نجدهما في بعض نظريات الملفوظية، لكن هذا التماثل في المصطلح لا يعني أن شومسكي يعتمد منظوراً ملفوظياً.

فالمنظور الملفوظي يتميز، قبل أي شيء، بموقف أقل تقييداً من موقف

البنيوية في تحليل المعنى، أي أنه يتميز بفهم موسع لعلم الدلالة. عند هذا المستوى نرى أن اللسانيات الشومسكية لا تتجاوز اللسانيات البنيوية على الإطلاق. فأعمال كاتز وفودور التي عاد شومسكي إليها في الجزء الثاني من نظريته كما عرضها في كتابه: (أوجه النظرية التركيبية) لا تمثل أبداً سوى الاندماج في النموذج التوليدي للتحليل المدلولي Componentielle والتحليل الدلالي. أبعد ما يكون عن أن يكفي لإيضاح معنى الإنتاج اللغوي الحقيقي، أي ذلك الإنتاج غير المنفصل سطحياً عن شروط الإنتاج.

والحالة هذه، فإن اهتمام التوليديين في ربط المعجم /Lexique/ بعلم التراكيب Syntaxe (وهو علم لم يكن قائماً عند البنيويين) قد يمكن عده بمنزلة تقدم. لكن، في الواقع، هذا الاهتمام يترجم بتكوين قواعد للاستبدال المعجميInsertonlexicale غالباً ما تظهر (القواعد) على أنها زائدة أو مصطنعة.

صحيح أن شومسكي في أحدث مراحل نظريته قد عدل وجهة نظره حول المكون الدلالي Composante Semantique ليقرر في نموذجه مكاناً لظواهر مثل: الافتراض المسبق، والتركيز، والإبراز[**1] Topicalisation ؛ لكن -بالنسبة إليه- فتلك إضافات لا تسيء إلى الفرضية التي صاغها منذ العام 1957 والقائلة: إنّه من المفضل وضع البنية التركيبية في أعمق مستوى، أي في نقطة انطلاق الاشتقاقات التي تفضي إلى الجملة.

لهذا ترانا نعود إلى شومسكي بشكل خاص، حينما نقرأ في مقدمة كتاب برنار بوتييه: اللسانيات العامة ما يلي: ".. إنا ندهش من المكانة التي آل إليها علم

---

1 ـ [**] عملية لسانية تنطوي على تحويل مكون الجملة إلى موضوع بارز (مبتدأ) بحيث تصبح بقية الجملة تعليقاً عليه (خبر) في عملية الإدماج أو الإدخال يقوم الإبراز بتحويل الركن الاسمي الفاعل إلى مبتدأ للجملة. لكن قد يكون هناك إبراز مكون آخر، كالركن الاسمي المفعول Objet أو الركن الجاري فتحوله إلى ركن فعلي كما هو الحال في الجملة التفخيمية: خالد، رأيته البارحة؛ في دمشق كان الاحتفال.. .

الدلالة. فمن غير المعقول أن استطاعت بعض المدارس عد علم التراكيب أساساً لاهتماماتها. لكن الحسّ السليم هو الذي انتصر."

ج-خلاصة:

تتفق نظريات الملفوظية على اعتبار مفهوم اللسان Langue عند سوسير، والمدونة Code البنيوية ومفهوم الكفاءة عند شومسكي بمنزلة تعريفات لموضوع اللسانيات الاختزالية لدرجة الافراط...

فالاتجاه السائد الآن هو توسيع مجال اللسانيات. وهذا التحول الخارجي، وذلك "التوجه الجابذ" (هذه المصطلحات لبرنار بوتييه) تمثلها السيميائية الألسنية التي طرحها باتريك شارودو في كتابه (اللغة والخطاب) وهو يقدم لنا أفضل مثال على انفتاح اللسانيات الفعال على معارف أخرى لا سيما على علم الاجتماع وعلم النفس[1].

1 ـ جان سيرفوني، الملفوظية* دراسة *ترجمة الدكتور قاسم المقداد من منشورات اتحاد الكتاب العرب 1998، ص14

النظرية التوليدية

تعد النظرية التوليدية من أشهر النظريات اللغوية حالياً، ويعد (نوام تشومسكي) رائد هذه النظرية، ومع أن تشومسكي عاد بالبحث الدلالي إلى الطابع العقلاني الذهني، إلا أن نظريته استطاعت أن تقدم تفسيرات علمية لظواهر لغوية تخص الدلالة، وتستند هذه النظرية على آلية توليد جمل صحيحة اعتماداً على كفاية المتكلم (الكاتب) اللغوي، ويعني ذلك توفر قواعد تنظيمية ذهنية في عقل متكلم اللغة تتيح له ما شاء من الجمل، وقد انطلق (تشومسكي) للتدليل على وجود هذه الكفاية، من تعلم اللغة عند الطفل، بحيث ألفى الطفل ينتج جملاً لم يسبق له أن سمعها من قبل بناء على القواعد الكائنة ضمن كفايته اللغوية، والنظرية التوليدية "تتخذ شكل قاعدة "إعادة كتابة"؛ أي أنها تعيد كتابة رمز يشير إلى عنصر معين من عناصر الكلام برمز آخر أو بعدة رموز"[1]. وتكون هذه الكتابة بالنسبة إلى الجملة المشتملة على ركن فعلي (مؤلف من فعل وفاعل ومفعول به وشبه جملة عائدة للفعل)، وعلى شبه جملة. على النحو الآتي:

ج Ù رف + شج (حيث ج: ترمز إلى الجملة)، وعليه يمكن كتابة الركن الفعلي بمؤلفاته على النحو الآتي:

رفÙ ف + رأ + رأ + شج (حيث ف ترمز إلى الفعل، ورأ ترمز إلى الركن الاسمي ويتم اشتقاق الجملة:

---

1 ـ د. ميشال زكريا، الألسنية، علم اللغة الحديث، ص 2ـ 3.

جÙ رف شج.

رفÙ ف + رأ + رأ + شج.

رأÙ تعر + رأ (تعر ترمز إلى تعريف).

شجÙ ج + رأ .

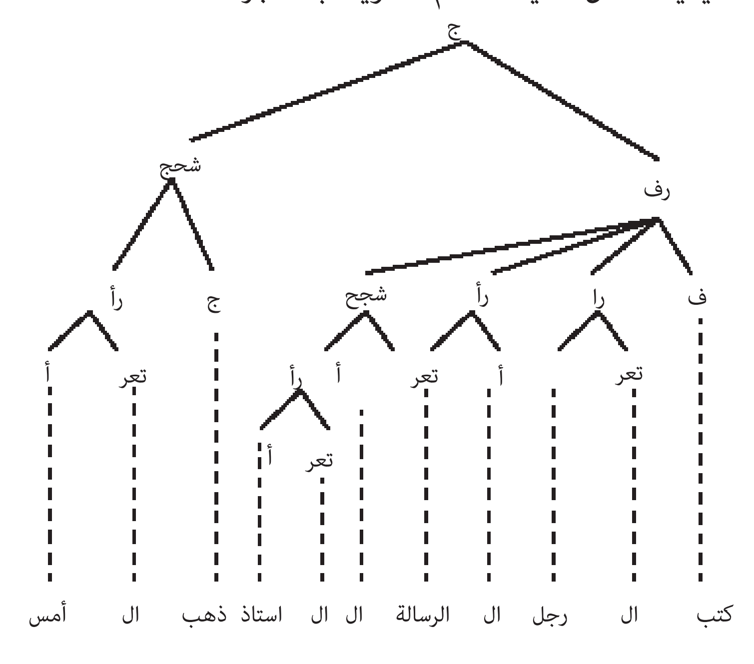
تعر ← ال.

ف Ùكتب ، ذهب، سأل،...

أÙ رجل، رسالة، أستاذ، أمس..

وباستبدال الرموز بعناصر الكلام في نظام اللغة تحصل جمل كثيرة من بينها الجملة:

كتب الرجل الرسالة إلى الأستاذ بالأمس. ويمكن رسم تلك الرموز التي تدل على القواعد التنظيمية ضمن كفاية المتكلم اللغوية" بالمشجر[1] "arbre".



1 ـ د. ميشال زكريا، انظر الألسنية، علم اللغة الحديث، ص 2.2 إلى 2.5.

ويبدو أن اعتماد هذه القواعد من شأنه أن يعقد عملية التواصل والإبلاغ، ولذلك تشترط القاعدة التوليدية وجود متكلم ومتقبل مثاليين، لأن عملية التحام المعنى بالبنى اللغوية هي ليست بالعملية السهلة؛ لأنها تقتضي علماً كافياً بقواعد الإسقاط... وبناء على ذلك "يحتوي المكون الدلالي إذاً على المعجم أو اللائحة بمفردات اللغة وعلى القواعد الإسقاطية التي تشكل قدرة المتكلم على استدلال معنى الجمل من خلال معنى المفردات"[1]..

لقد تحدث (تشومسكي) على وجهي الظاهرة اللغوية السطحي والعميق، أو كما سماه الظاهر والخفي، وعليه حدد مصطلح "الكفاية اللغوية" و"الأداء اللغوي"... وقد أرجع العلماء هذه الفكرة إلى أصول فلسفية تعود إلى نظرية أفلاطون حول العالم. تقول نظرية أفلاطون إن للعالم وجها ظاهريا نعتمد في إدراكه على شهادة الحواس، وقد تكون هذه الحواس خادعة لا موضوعية فيها، ووجه خفي حقيقي يدرك بالعقل.. أو كما يقول كانط: إن العالم الظاهري يخفي عالماً حقيقياً[2]، فالأداء اللغوي يمثل ظاهرة الخطاب في النظرية التوليدية، والكفاية اللغوية تمثل حقيقة الخطاب، وعلى اللغوي كما يقول (تشومسكي) أن لا يبني أحكامه على بنية اللغة السطحية، وإنما عليه أن يصل إلى البنية التحتية العميقة، ليطلع على القواعد الذهنية التي تنتظم اللغة. وقد توصل (تشومسكي) إلى أن العقل الإنساني يحوي آلية مكونة من مجموعة قواعد متناهية بمقدورها تحليل الجمل ومساعدة متكلم اللغة على إنتاج جمل لا متناهية بمعجم لغوي متناه، فضلاً عن فهم الجمل التي لم يسبق له أن سمعها، ورصد الالتباس الحاصل في الجملة، وقد أضاف (تشومسكي) فكرة جريئة لا زالت موضع بحث وجدل بين علماء اللغة

---

1 ـ ميشال زكريا، المكون الدلالي في القواعد التوليدية والتحويلية، مجلة الفكر العربي المعاصر، رقم 18/ 19، لسنة 1982.

2 ـ محمد فهمي زيدان. في فلسفة اللغة، ص 142.

وهي ما سمي بالعموميات اللغوية، وتعني أن جميع اللغات متشابهة في بنياتها الداخلية، وهو ما يفسر خضوع التركيب في أي لغة لتلك المدخلات العميقة، وما يشد من عضد هذه الفكرة هو أن المعاني كما تنص نظرية الأوضاع، لا تتموقل في عالم اللغة، إنما توجد في عالم الأوضاع... وقد تمخض عن هذه الفكرة، البحث عن العلاقة بين البنية الدلالية والعوالم الدلالية؛ "فإن كانت الكلمة على مستوى الدال عبارة عن صرّة من الأصوات"، وإذا كانت كذلك فلم لا تكون على مستوى المعنى "صرّة من الوحدات البدائية للمعنى"[1]. وعوّض التحليل المفهومي في النظرية التوليدية التحليل التوزيعي الذي اتبعته النظريات السابقة في اللغة، فما الدلالة إلا مجموعة سمات تتحدد بواسطة المشير الدلالي وذلك "في تعيين العلاقات الدلالية بين الكلمات المترادفة والمتزايلة أو المتضمنة الواحدة الأخرى"[2]..

إن الهدف الأسمى الذي رسمته النظرية التوليدية هو معرفة الطاقة الكامنة في اللغة على مستوى التعبير... ولذلك تأثراً بآراء المدرسة الفلسفية العقلانية التي سادت القرن السابع عشر، اتخذ (تشومسكي) منهجاً عميقاً لا يعتمد الوصف، وإنما التحليل والتفسير للوصول إلى وضع معايير تحدد قدرة اللغة على الخلق والإبداع والابتكار بإعادة بناء "نسق المعاني" من طريق قواعد التوليد والتحويل، ولذلك عُدّت النظرية التحويلية التوليدية من أحدث النظريات التي قدمت تفسيراً علمياً موضوعياً لنظام اللغة، ووضعت قواعد مرنة تصلح لأي لغة، لأنها قواعد تتسم بالشمولية والعالمية، وهذه المرونة في التقعيد النظري ضرورية للنظام اللغوي الذي ينزع نحو التجدد والتكيف والتطور، فضلاً عن شمولية التناول والدراسة، وغدا (تشومسكي) يرسم المنهج القويم في الدرس اللغوي مميزاً بين الميتودولوجيا

---

1 ـ علم الدلالة، بيار جيرو ترجمة: منذر عياش ، ص 187.

2 ـ ميشال زكريا، المكون الدلالي في القواعد التوليدية والتحويلية، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد رقم 18/19 السنة 1982.

والنظرية، فقد كان اشتغال البنيويين، قبل تشومسكي، منحصراً على وصف الاتجاه، ووضع نظريات تقوم بتطبيق مجموعة عمليات وإجراءات على العينات اللغوية، مهمتها معاينة الوحدات الدالة الصغرى، فأشار (تشومسكي) في كتابه (البنى التركيبية) إلى ضرورة الاهتمام بالمنهج الذي يكمن في الطرق التي تمكن من بناء الأنحاء، وغدا المبحث اللساني مع (تشومسكي) يهتم بالجهاز الداخلي الذهني للمتكلمين بدلاً من الاهتمام بسلوكهم الفعلي، فلم يعد الإنتاج الكلامي الذي هو عبارة عن سلاسل فيزيائية بمفهوم الفونولوجيا قادراً على تقديم تفسير كاف لآليات حدوث التركيب اللغوي، ولذلك اتجه الدرس اللساني، لا إلى تحديد ما هو موجود من السلاسل اللغوية السليمة فحسب، بل أيضاً إلى ما يمكن أن يوجد من التراكيب اللغوية غير اللاحنة بوساطة مجموعة من القواعد التوليدية. يكون بذلك موقف (تشومسكي) قد انحرف بالدرس اللغوي إلى وجهة جديدة، تختلف عن وجهة البنيويين الذين لم يميزوا بين صورة النحو، والوسيلة التي تقود إلى اكتشافه، وهو ما عكف تشومسكي على اتخاذه مبدأ للدراسة اللغوية بحيث فرق بين المنهج والنظرية، وولج بذلك إلى كل ما يشكل العالم الداخلي الذهني للمتكلم، وشأن كل نظرية دلالية فإن النظرية التوليدية، وصلت إلى الباب المسدود، وإن نجحت في الكشف عن البنية العميقة لعدد لا متناه من الجمل، إلا أنها عجزت عن تفسير عدم التوافق بين معاني المفردات المنتظمة في جملة واحدة، وهو ما فسح المجال لنظرية كاتزوفودر التي تعد مكملاً لقواعد (تشومسكي) التوليدية التي ارتكزت على ما يسمى بالمؤلفات الأساسية لمعاني الكلمات، وهي مؤلفات تتجاوز الرموز التي اعتمدها (تشومسكي) في القواعد التوليدية، وفي ضوء نظرية كاتزوفودر يمكن مثلاً تحليل كلمة "رجل" على النحو الآتي:

اسم + محسوس + معدود + حي + بشري + ذكر + بالغ..

وتختلف عنها كلمة "امرأة" بمؤلف "الجنس" فقط[1] وهكذا بالنسبة إلى الكلمات الأخرى..

-النظرية الإشارية:

تشكل هذه النظرية في مسار علم الدلالة الحديث أولى مراحل النظر العلمي في نظام اللغة، بل إلى أصحابها يرجع الفضل في تمييز أركان المعنى وعناصره، معتمدين في ذلك على النتائج التي توصل إليها فرديناالد دي سوسير في أبحاثه اللسانية التي خص بها الإشارة اللغوية بوصفها "الوحدة اللغوية المتكونة من دال ومدلول، الدال هو الإدراك النفساني للكلمة الصوتية، والمدلول هو الفكرة أو مجموعة الأفكار التي تقترن بالدال"[2]. ومع أن أصحاب هذه النظرية لا يكادون يجمعون على رأي واحد، فإن أغلبهم أطلق على هذه النظرية مصطلح "النظرية الاسمية في المعنى (theory of meanings naming) التي تنظر إلى الدلالة على أنها هي مسماها ذاته.

النظرية السياقية:

إن نظام اللغة نظام متشابك العلاقات بين وحداته، ومفتوح دوماً على التجديد والتغيير في بنياته المعجمية والتركيبية، حتى غدا تحديد دلالة الكلمة يحتاج إلى تحديد مجموع السياقات التي ترد فيها، وهذا ما نادت به النظرية السياقية التي نفت عن الصيغة اللغوية دلالتها المعجمية، يقول مارتيني: "خارج السياق لا تتوفر الكلمة على المعنى"[3].

1 ـ موريس أبو ناضر، مدخل إلى علم الدلالة الألسني: ص 26، مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 18/ 19، السنة 1982.

2 ـ ميشال زكريا، الألسنية. علم اللغة الحديث، ص18-178..

3 ـ سالم شاكر، مدخل إلى علم الدلالة، ص 31.

إن منهج النظرية السياقية يعد من المناهج الأكثر موضوعية ومقاربة للدلالة، لأنه يقدم نموذجاً فعلياً لتحديد دلالة الصيغ اللغوية، وقد تبنى كثير من علماء اللغة هذا المنهج منهم العالم (وتغنشتين) (Wittgenstein) الذي صرح قائلاً: "لا تفتش عن معنى الكلمة وإنما عن الطريقة التي تستعمل فيها"[1]. إن هذه الطريقة التي تستعمل فيها الكلمة هي التي تصنف دلالة هذه الكلمة ضمن الدلالة الرئيسة أو القيم الحافة التي تتحدد معها الصور الأسلوبية، لأن السياق يحمل حقائق إضافية تشارك الدلالة المعجمية للكلمة في تحديد الدلالة العامة التي قصدها الباث، يقول ستيفن أولمن: "السياق وحده هو الذي يوضح لنا ما إذا كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنها تعبير موضوعي صرف أو أنها قصد بها أساساً؛ التعبير عن العواطف والانفعالات"[2]. لقد حصل تطور هام في مفهوم السياق إذ لم يعد يقتصر على الجانب اللغوي في إيضاح دلالة الصيغة اللغوية، وإنما وجدت جوانب أخرى قد تنحسم معها الدلالة المقصودة للكلمة، كالوضع والمقام الذي يحدث فيه التواصل أو الملامح الفيزيولوجية النفسية للمتكلم التي تصاحبه يقول الدكتور عبد القادر الفهري الفاسي في ذلك: "اختيار مفهوم ملائم من بين لائحة المفاهيم التي يعبر عنها اللفظ المشترك يتطلب مجهوداً معرفياً خاصاً ويتسبب أحياناً في أخطاء ويقع رفع الالتباس عن طريق السياق اللغوي المباشر، أو السياق الخطابي أو الوضع الذي يحدث فيه التواصل أي كل مصادر المعلومات المتوفرة لرفع اللبس"[3]. إن تعدد المفاهيم التي يدل عليها اللفظ، تعني أن هذا اللفظ له معنى مركزي هو "النواة"، ومعان هامشية ثانوية اكتسبها بفعل دورانه المتجدد

1 ـ د.موريس أبو ناضر، مدخل إلى علم الدلالة الألسني، ص 33، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددج رقم 18/ 19،السنة 1982.

2 ـ دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمن، ترجمة محمد كمال بشير، ص 63.

3 ـ اللسانيات واللغة العربية، ص 372.

في أنساق كلامية مختلفة، حتى أضحى المعنى المركزي يدور في فلك المعاني الثانوية التي لا تفاضل بينهما، وأصبح طريق رفع اللبس في الدلالة يمر عبر السياق اللغوي أو الخطابي أو معاينة المقام الذي يتمثل في المعطيات الخارجية والنفسية. ويتضح ذلك خصوصا عند استعمال المشترك اللفظي (polysemie)، وتبعاً لذلك فإن دلالة الكلمة تتعدد بتعدد السياقات وتنوعها؛ أي تبعاً لتوزعها اللغوي... وقد توصل العلماء إلى تمييز بين أربعة أنواع من السياق:[1].

1 ـ السياق اللغوي.

2 ـ السياق العاطفي الانفعالي.

3 ـ سياق الموقف أو المقام.

4 ـ السياق الثقافي أو الاجتماعي.

1 ـ السياق اللغوي:

السياق اللغوي يشرف على تغيير دلالة الكلمة تبعاً لتغيير يمس التركيب اللغوي، كالتقديم والتأخير في عناصر الجملة فقولنا: "زيد أتم قراءة الكتاب"، تختلف دلالتها اللغوية عن جملة: "قراءة الكتاب أتمها زيد"[2]..

2 ـ السياق العاطفي الانفعالي

السياق العاطفي الانفعالي يحدد دلالة الصيغة أو التركيب من معيار قوة الانفعال أو ضعفه، فعلى الرغم من اشتراك وحدتين لغويتين في أصل المعنى، إلا أن دلالتها تختلف، مثل ذلك الفرق بين دلالة الكلمتين: (اغتال) و(قتل)، بالإضافة

1 ـ د.أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 69.

2 ـ التقديم والتأخير في الكلام يخضع لمقاصد دلالية، حددها البلاغيون في مبحثهم حول تخصيص الدلالة، وقد تبلور ذلك ضمن مفاهيم لسانية منها مصطلح «التبئير» الذي يعني الاهتمام ببؤرة خاصة في الجملة...

إلى القيم الاجتماعية التي تحددها الكلمتان، فهناك إشارة إلى درجة العاطفة والانفعال الذي تصاحب الفعل، فإذا كان الأول يدل على أن المغتال ذو مكانة اجتماعية عالية، وأن الاغتيال كان لدوافع سياسية، فإن الفعل الثاني يحمل دلالات مختلفة عن الأول وهي دلالات تشير إلى أن القتل قد يكون بوحشية، وأن آلة القتل قد تختلف عن آلة الاغتيال، فضلاً عن أن المقتول لا يتمتع بمكانة اجتماعية عالية..

3 ـ سياق الموقف أو المقام:

وهو يعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة فتتغير دلالتها، تبعاً لتغير الموقف أو المقام، وقد أطلق اللغويون على هذه الدلالة مصطلح "الدلالة المقامية"..

4 ـ السياق الثقافي:

وهي القيم الثقافية والاجتماعية التي تحيط بالكلمة، إذ تأخذ ضمنه دلالة معينة. وقد أشار علماء اللغة إلى ضرورة وجود هذه المرجعية الثقافية عند أهل اللغة الواحدة لكي يتم التواصل والإبلاغ، وتخضع القيم الثقافية للطابع الخصوصي الذي يلون كل نظام لغوي بسمة ثقافية معينة، وهو ما يكون أحد العوائق الموضوعية في تعلم اللغات...

وتعد النظرية السياقية بنموذجها النظري التطبيقي من النظريات العملية الأكثر تعلقاً بالنظام اللغوي، بل إنها بطريقتها الإجرائية في تحديد جملة السياقات وما يصاحبها من العوامل الخارجية كالمقام والحال، تعد بذلك مرحلة تمهيدية مهمة بالنسبة إلى النظرية التحليلية؛ حيث "يرى أولمن أنه بعد أن يجمع المعجمي عدداً من السياقات المتمثلة التي ترد فيها كلمة معينة، وحينما يتوقف أي جمع آخر

للسياقات عن إعطاء أي معلومات جديدة، يأتي الجانب العملي إلى نهايته، ويصبح المجال مفتوحاً أمام المنهج التحليلي".[1]

كان آخر ما توصل إليه علماء اللغة في إطار النظرية السياقية هو فكرة "الرصف"، وهو يعني مراعاة وقوع الكلمات مجاورة لبعضها؛ حيث يعد هذا الوقوع أحد معايير تحديد دلالة الكلمة، إن تسييق الصيغة اللغوية يعد المنفذ المهم لتحديد مجالها الدلالي، فلا يمكن أن ترد الصيغة اللغوية بمعزل عن السياق النفسي أو الاجتماعي الثقافي، بل يحصل التجاور بين مجموع الصيغ اللغوية داخل التركيب، وهو ما يمكن التعبير عنه بمصطلح "النظم"، كما سماه قديماً عبد القاهر الجرجاني في كتابه: "دلائل الإعجاز".. وقد عد فيرث *(Firht) أن قائمة الكلمات المتراصفة مع كل كلمة تعد جزءاً من معناها[2]، بحيث يستدعي حضور كلمة ما حضور سلسلة من الكلمات التي تتراصف معها سياقياً وتتوافق معها في الوقوع.

5 ـ النظرية التحليلية:

المبحث الأول: اللغة

لقد بحث موضوع اللغة في بداية نشأة علم الدلالة وعلوم الألسنية بوجه عام، من الجانب التاريخي، حيث اتسع مجال البحث في نشأة اللغة، وهي مسألة شغلت اهتمام العلماء قديماً وحديثاً، أما في المرحلة الثانية فقد بحث موضوع اللغة بمنهج وصفي آني وهو منهج يأخذ دراسة اللغة من جانب بنيتها الداخلية بوصف اللغة نظاماً من الرموز اللسانية أو مجموعة من الأصوات الدالة. كما تناول علماء

1 ـ د.أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 72.

2 ـ المرجع السابق، ص 77.

الدلالة وظائف اللغة والنواميس الخفية التي تتحكم في نظام بنيتها وحركيتها[1] التي وسموها بالتعقيد. يظهر ذلك من اختلافهم في تعريفها. فيعرفها أحدهم بأنها نظام من الرموز والإشارات، ويعرفها آخر بأنها مجموعة الأصوات الدالة أو أداة للفكر، بينما يحددها أنيس فريحة بقوله: "الواقع أن اللغة أكثر من مجموعة أصوات، وأكثر من أن تكون أداة للفكر أو تعبيراً عن عاطفة اللغة جزء من كياننا البسيكولوجي الروحي، وهي عملية فيزيائية اجتماعية بسيكولوجية على غاية من التعقيد[2].

إن البحث في أصل اللغة من المسائل الفكرية الصعبة التي بقي معها فكر العلماء يدور في حلقة مفرغة، بحيث انقسمت آراؤهم حول تحديد نشأة اللغة، وبرزت في ثلاثة اتجاهات: اتجاه يذهب إلى أن اللغة توقيفية طبيعية، واتجاه يذهب إلى أن اللغة عرفية اصطلاحية، واتجاه ثالث يجمع بين الرأيين. وكان جل العلماء اللغويين يأملون التوصل إلى تفسير شامل لهذه المسألة، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، وأضحت أبحاثهم لا تقدم لمسألة نشأة اللغة أي حل مقنع قد يفتح المجال أمام جهود الباحثين في هذا الميدان، بل إن المسألة ازدادت تعقيداً، بكثرة الآراء والنظريات التي نشأت حولها، ما حدا بالجمعية اللغوية الفرنسية (la societe de linguistique) إلى إصدار قانون يمنع إلقاء محاضرات في موضوع نشأة اللغة.

إن اعتماد النظريات اللغوية الحديثة على معطيات مبنية على الحدس والافتراض، هو الذي أبعدها من التوصل إلى نتائج علمية دقيقة، ولقيت بعض هذه النظريات اعترافاً علمياً، لأنها استندت في تعليلها لنشأة اللغة على معطيات لغوية ملموسة من ذلك نظرية (bow waw) التي تذهب إلى أن أصل اللغة هو محاكاة لأصوات استقاها الإنسان من الطبيعة، تدعم رأيها بوجود ألفاظ مأخوذة

---

1 ـ أطلق عليها سوسير مصطلح «ميكانيزم» محاضرات في اللسانيات العامة ص177.

2 ـ أنيس فريحة نظريات في اللغة ص11

من أصوات تصدرها عناصر من الطبيعة كالزقزقة والخرير، والحفيف، والخشخشة، والعواء، والمواء وما إلى ذلك، رأي مماثل تذهب إليه نظرية الأصوات التعجبية العاطفية، وتفيد بأن الكلمات الأولى التي نطق بها الإنسان، كانت أصواتاً تعجبية عاطفية تعبر عن ألم أو دهشة أو فرح من تلك الكلمات "أف" وي "أنين" وغير ذلك[1].

إن المنهج الوصفي الآني، يرمي إلى تحليل البنية الداخلية للغة، وذلك باستنباط الشبكة التنظيمية التي تبدو كنواميس خفية تنتظم في إطارها اللغة. يرى جان بياجي أن اللغة مؤسسة اجتماعية تحكمها نواميس خفية مفروضة على الأفراد، تتناولها الأجيال بضرب من الحتمية التاريخية، إذ كل ماضي اللغة –راهنا- إنما هو منقول عن أشكال سابقة، هي الأخرى منحدرة من أنماط أكثر بدائية، وهكذا إلى الأصل الأوحد أو الأصول الأولية المتعددة[2].

هذه القوانين الخفية التي تنتظم في إطارها اللغة، تعود إلى الأصول الأولية للغة الخطاب وهي تشكل النظام اللغوي، وبذلك سعى اللغويون وعلماء الدلالة بوجه خاص، إلى تفكيك بنية هذا النظام لاكتشاف اللغة اكتشافاً علمياً، قد يقدم تفسيراً مقبولاً لمشكلات لغوية، في عالم أصبح يعتمد على اللغة في الاتصال والإعلام في مستويات رفيعة ومهمة، يقول بيار جيرو: "إنّ اللغة نظام من الإشارات وهي تخدمنا في إيصال الأفكار واستدعاء صور مفاهيم الأشياء التي تكونت في أذهاننا إلى ذهن الآخرين[3].

إن الدرس الدلالي الحديث يهدف أساساً إلى التعرف على القوانين التي تشرف على النظام اللغوي، وذلك بتحليل نصوص لغوية بقصد ضبط المعاني

---

1 ـ أنيس فريحة نظريات في اللغة ص17 - 18

2 ـ عبد السلام المسدي اللسانيات وأسسها المعرفية، ص161.

3 ـ بيار جيرو، ترجمة د. منذر عياشي علم الدلالة – ص51

المختلفة بأدوات محددة، وفي هذا سعي إلى تنويع التراكيب اللغوية لأداء وظائف دلالية معينة، وهذا التنويع هو الذي يثري اللغة إثراء يحفظ أصول هذه اللغة ولا يكون حاجزاً أمام تطورها وتجددها، ويمكن في خضم هذا البحث على النواميس الخفية "خلق" نواميس لغوية جديدة لتشرف على النظام الكلامي والخطابي بين أفراد المجتمع الواحد، يقول عبد السلام المسدي شارحاً ذلك بتعريفه لدور النحوي: "أما النحوي – نعني فقيه اللغة بالاصطلاح المطرد- فمرامه أن يعي وجود اللسان من خلال وجود الكلام، ويأتي عالم اللسان ليكون همه الوعي باللغة عبر إدراك نواميس السلوك الكلامي[1].

وأشارت البحوث الدلالية، في خضم بحثها في موضوع اللغة، إلى أن اكتساب التراكيب اللغوية يخضع إلى التلقائية والعفوية في أثناء الحدث الكلامي، غير أن هذه التلقائية تحمل في جوهرها تلك القواعد التي تحدد للغة الخطاب والتواصل إطارها، ويتعرف المجتمع اللغوي على سننها ويتمرس في توظيفها، يوضح عبد السلام المسدي ذلك قائلاً: "إن الحدث الكلامي يكتسب تلقائياً عن طريق التحصيل بالأمومة، غير أن هذا الاكتساب الأمومي، سرعان ما يتحول إلى ضرب من الإدراك الخفي بقوانين تلك اللغة؛ ذلك أن الظاهرة اللسانية من شروطها الأولية، أنها عقد جماعي يلتزم به الفرد ضمنياً بعد أن يحذق استخدام ما تنص عليه بنوده الصوتية والنحوية والمعجمية والدلالية"[2]. وإلى هذه السنن اللغوية ذاتها أشار نوام تشومسكي في سياق حديثه عن البنية السطحية والبنية العميقة للغة، محدداً مسألة الأداء الكلامي والكفاية اللغوية التي تتيح للفرد التوصل إلى نسج جمل كثيرة وجديدة، بواسطة ما يحمل ذهنه من قواعد وسنن لغوية. يشرح ريمون طحان هذه العملية اللغوية بكيفية مفصلة فيقول: "إن البنى السطحية

---

1 ـ عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، ص1.4.

2 ـ المرجع السابق ص31.

نتيجة آلية وميكانيكية لبنى كانت في الأعماق ودفعتها اللغة إلى السطح، ويبدو أن البنى العميقة هي أسس التفكير وهي التي تستوعب المفاهيم، وأن البنى السطحية تقوم فقط بصوغ المفهوم على شكل جملة أصولية، ويبدو أن هناك تماثلا بين هياكل اللغة وهياكل الذهن، وتصبح البنى الفكرية الخفية، قوالب لغوية بارزة واللسان مرآة صادقة تعكس صورة الفكر"[1].

إن تعميق البحث العلمي في اللغة، مكن من تجاوز البنى السطحية لهذه اللغة إلى بنى عميقة تكشف عن الشبكة الداخلية التي تصنف الأداءات اللغوية وتستمر معها عملية التواصل والإبلاغ؛ إذ، "ليس للساني من مهمة في خاتمة المطاف، سوى استنباط الشبكة التصنيفية التي تقوم عليها الظاهرة اللغوية، ما يتيح له استطلاع مقومات الانتظام الداخلي عبر اكتشاف النواميس المحددة لبنية اللغة والمحركة لوظيفتها في آن معاً"[2].

إن اللغة تشكل مجموعة الخبرات اللغوية للمجتمع... التي تراكمت عبر مراحل التاريخ، وهي لهذا نظام كامل لا يمكن أن يوجد لدى فرد واحد. وقد عبر أفلاطون عن ذلك بقوله: "إن الإنسان لن يجرؤ على أن يعبر باللغة على كل ما يدور بخلده من أفكار وأشياء"[3] ولذلك تقف اللغة عاجزة عن الإلمام بكل ما يريد أن يفصح عنه الإنسان، من أفكار ومشاعر، ومع ذلك تبقى اللغة الأداة الأساسية للتعبير...

ولتمييز اللغة كنظام واستخدام الإنسان لهذا النظام... قسم سوسير دراسة اللغة إلى قسمين:

1- دراسة جوهرية موضوعها اللغة المعنية التي هي اجتماعية في جوهرها ومتكاملة في نظامها.

---

1 ـ ريمون طحان : الألسنية العربية ص144.

2 ـ عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، ص3..

3 ـ ستيفن أولمان ترجمة ك مسلم كمال بشر: دور الكلمة في اللغة ص6.

2- دراسة تتناول الاستخدام الفردي للغة بوصفه تطبيقاً علمياً لنظام اللغة المتكامل الذي هو عبارة عن مجموعة من العلامات المختزنة في العقل الجمعي، ولا تنطق لأنها ليست فردية[1]. يشرح سوسير بكيفية مفصلة التقابل الذي تشكله اللغة بنظامها، والأداء الفردي لهذا النظام مشبها اللغة بالقاموس الذي توجد فيه الكلمات صامتة غير منطوقة، صالحة للنطق والاستعمال، وإنما يستخرج منه الفرد بحسب الحاجة إليها وبحسب الاختيار، وهي القاسم المشترك بين أفراد المجتمع اللغوي، وتوجد في حاصل جمع عقولهم جميعاً، وإذا استطعنا أن نستخرج الصور الكلامية المختزنة في عقول جميع الأفراد في مجتمع لغوي واحد، فإننا سنلمس تلك الرابطة الاجتماعية التي تربطهم جميعاً وهي ما يسمى "باللغة المعينة"؛ وهي لا تمكن أن تكون كاملة في ذهن أي فرد بعينه، بل لا تكتمل إلا في الوعي الجمعي وتمثلها هذه المعادلة الحسابية: [2] 1+1+1+1+1=1.

وما يلاحظ على المناهج التي تناولت اللغة كمادة للبحث، أنها تختلف من مرحلة لأخرى لاختلاف النمط الفكري والعلمي السائدين في العصر، فيمكن أن نذكر المنهج السلوكي الذي يعد اللغة مجموعة عادات صوتية يكيفها حافز البيئة، ويفترض أصحاب هذا المنهج حصول الاستجابة الكلامية للحافز على نحو شبيه في الواقع إلى حد كبير بما يحصل عند الحيوان. وهناك المنهج العقلي المستمد أساساً من فلسفة ديكارت، وينظر هذا المنهج إلى الأداء الكلامي، كونه يخفي وراءه معرفة ضمنية بقواعد معينة، ويحرص العقلانيون على تبيان السنن القاعدية في النظام اللغوي، بغية التوصل إلى إدراك الآلية العقلية

---

1 ـ 37-38: p cours de linguistique generale f. de saussure

2 ـ المرجع السابق ص37 - 38 .

المحركة لعمل اللغة[1].

هذا التناول اللغوي الموسوم بالتحليل العميق لبنية اللغة الداخلية، يبين المدى الذين توصلت إليه الدراسات اللسانية والدلالية في العصر الحديث، فلم تعد الدراسة تكتفي بالوصف السطحي للظاهرة اللغوية فحسب، وإنما تلاقح العلوم الحديثة من فلسفية ونفسية واجتماعية، أثرى المنهج اللغوي المعتمد في استنباطات سنن اللغة وقواعد نظامها، وتمكن العلماء معه إلى تحديد وظائف اللغة بحسب العملية التواصلية، حيث يميز رومان جاكسون في الحديث اللساني ست وظائف هي[2]:

1- الوظيفة المرجعية (referentielle): وهي تعني إشارة اللغة إلى محتوى معين لإيصاله إلى أذهان الآخرين وتبادل الرأي معهم.

2- الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية (emotive): وهي التي تشير فيها اللغة إلى موقف المرسل من مختلف القضايا التي يتحدث عنها.

3- الوظيفة الإنشائية (conative): تظهر في اللغة التي يتوجه بها إلى المخاطب قصد لفت انتباهه إلى أمر أو طلب منه القيام بعمل معين.

4- الوظيفة الورألسنية (Metalinguistique): وهي تعكس شعور المعبّر بنظام التواصل وتتمحور حول اللغة نفسها.

5- وظيفة الاتصال (phatique): وهي تقوم على تعابير تتيح للمرسل إقامة الاتصال أو قطعه .

6- الوظيفة الشعرية (poetique): وهي تتمحور حول اللغة بوصفها تحمل ظلالاً من المعاني والقيم الدلالية.

هذه الوظائف الست هي التي تتمحور في إطارها العملية الإبلاغية التي

1 ـ د. ميشال زكريا: الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام ص73 - 74.

2 ـ انظر المرجع السابق ص54 وكتاب intiation aux problemes des lingustiques contemporaires c. fuchs et p. le goffi c. p. 116 - 115

تتخذ اللغة كخطاب يؤدي الدلالات المقصودة في الأحوال العادية، وهي تشير إلى مدى العمق العلمي التحليلي الذي سارت عليه الدراسات اللغوية الحديثة، من أجل إبراز القيم الجوهرية في اللغة بوصفها أهم نظام للتواصل. يقول سوسير: "إن اللغة هي نظام من العلامات المعبرة عن أفكار، وبهذا ومقارنة بالأنظمة التواصلية الأخرى كنظام لغة الصم البكم أو نظام الطقوس والشعائر أو الإشارات العسكرية، وما إلى ذلك، تبقى اللغة الأهم من هذه الأنظمة"[1].

ويدعم هذه الفكرة الدكتور أحمد مختار عمر بقوله: "ومع اهتمام علم الدلالة بدراسة الرموز وأنظمتها حتى ما كان منها خارج نطاق اللغة، فإنه يركز على اللغة من بين أنظمة الرموز بوصفها ذات أهمية خاصة بالنسبة إلى الإنسان.[2].

هذه الجوانب من مبحث اللغة كما تناولته الدراسات الألسنية والدلالية الحديثة... التي كانت ترمي إلى تأسيس رؤية علمية شاملة، تبرز الدور الوظيفة الأساسي للغة، بتفكيك بنيتها الداخلية للتعرف إلى الشبكة التنظيمية التي تشرف على عملية التواصل والإبلاغ، وهو ما دأب عليه علماء اللسانيات والدلالة في دراسات مستفيضة، استعانت بمناهج علمية مختلفة أحدثت في مبحث اللغة نقلة نوعية، وأنتجت نظريات – على الرغم من قدمها- ما زالت تعتمد كمراجع في البحث اللغوي المعاصر.

المبحث الثاني: الدال والمدلول:

من القضايا الدلالية المهمة التي تناولها علماء الألسنية والدلالة، مسألة الدال والمدلول والعلاقة بينهما، كانت القضية في بداية طرحها في الدرس اللغوي، تقتصر على اللفظ والمعنى، وباتساع مجال علم الدلالة أضحت المسألة تتعلق

---

1 ـ cours de linguistiques generale f .de sausure

2 ـ علم الدلالة ص12.

بالدال والمدلول سواء أكان الدال لفظاً أو غير لفظ، واللغة في الأخير ما هي إلا علاقات تربط دالا بمدلوله، ضمن شبكة تنظيمية، آية ذلك أن الدال لا يحمل دلالته في ذاته، إنما منبع الدلالة هي تلك التقابلات الثنائية التي تتم على مستوى الرصيد اللغوي، يقول في ذلك عبد السلام المسدي: "اللغة هي مجموعة من العلاقات الثنائية القائمة بين جملة العلامات المكونة لرصيد اللغة ذاتها، وعندئذ نستسيغ أيضاً ما دأب عليه اللسانيون من تعريف العلامة بأنها تشكل لا يستمد قيمته ولا دلالته من ذاته، وإنما يستمدهما من طبيعة العلاقات القائمة بينه وبين سائر العلامات الأخرى"[1].

وقد خصص سوسير حيزاً واسعاً لدراسة مسألة الدال والمدلول، وأطلق مصطلح الدليل اللساني على وجهي العملية الدلالية (الدال والمدلول) فالدال هو القيمة الصوتية أو الصورة الأكوستيكية، أما المدلول فهو المحتوى الذهني أو الفكري[2].

إن علم الدلالة، يقوم على أساس تحديد العلاقة بين الدال والمدلول، وهي علاقة لا يمكن ضبطها إلا إذا تعرفنا إلى طبيعة كل من الدال والمدلول وخواصهما، وفي هذا الإطار فإن الدال اللغوي لا يمكن بحال من الأحوال أن يحيلنا على الشيء الذي يعنيه في العالم الخارجي مباشرة، وإنما مرورا بالمدلول أو المحتوى الذهني الذي يرجعنا إلى الشيء الذي تشير إليه العلامة اللسانية، فالعلامات اللسانية بحسب النموذج السوسيري تقتضي توفر ثلاثة شروط:

أ-أن تكون العلامة اللسانية دالة على المعنى.

ب-أن تكون مستعملة في مجتمع لساني يفهمها.

ج-أن تنتمي إلى نظام من العلامات اللغوية.

---

1 ـ عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، ص3..

2 ـ cours de linguistiques generale f. de saussure p. 99

فالمرجع يعني الشيء الخارجي الذي يحيلنا عليه الدليل اللساني، وهو عالم غير لغوي، وهو لا يحدد فقط بالأشياء المادية المحسوسة، فكثير من المراجع لا توجد إلا في إطار الخطاب اللغوي، فمثلاً "حب" أو "صداقة" تسجل في الخطاب اللساني، ولكن لا نجد قيمتها الدلالية الحقيقية إلا داخل المجتمع اللغوي. وهذا المثلث، الذي يوضح العلاقات التي يقيمها الرمز اللغوي مع الدال والمدلول والمرجع، يبرز أن العلاقة بين الدال والمرجع هي ......، للدلالة على أن استحضار المرجع يمر غالباً عبر المدلول، وتترك حالات قليلة يمكن أن يستحضر فيها المرجع بواسطة الدال... وذلك مثلاً في الأسماء الأعلام[1].

واتخذ منحى دراسة الدليل اللساني في المباحث الدلالية، عدة أبعاد ترمي إلى تعميق الدراسة لرصد العلاقة التي تجمع الدال بالمدلول، وأخذ علم الدلالة بالمبادئ اللسانية التي كتب لها النجاح في علم الأصوات الوظيفي، ورسم العلماء منهجاً لدراسة طرفي الفعل الدلالي، أو الدليل اللساني بمصطلح سوسير وحددوا جانبين رئيسين لهذه الدراسة:

1-التحليل الداخلي للدليل... من خلال تحليل المدلول بأساليب مختلفة برده واختزاله إلى صفاته الدلالية.

2-التحليل الخارجي للدليل، أي تحليل علاقات الدليل ببقية المعجم في إطار الحقول الدلالية[2]. وتفرعت المباحث الدلالية في العصر الحديث لتشمل عناصر الدلالة الثلاثة: الدال والمدلول والمرجع، وحرص العلماء على التأكيد أن علم الدلالة يختص بدراسة المدلول محدداً في سبيل ذلك معايير علمية؛ "فالمدلول يتحدد بواسطة الوحدات المجاورة له، وكل

1 ـ linguistique francaises, intiation a la problematique structurale tomel j. L. chiss. J. filliolet, d maigueneau p. 118-119

2 ـ سالم شاكر ترجمة محمد جباني مدخل إلى علم الدلالة، ص21

تغير يصيب وحدة ما من وحدات النظام يمكن أن ينعكس على مجموع أو جزء من هذا النظام(...) فقيمة وحدة ما هي ذات طبيعية علائقية (relationnel) وهذا لا ينفي على كل حال الوجود الإيجابي للمدلول كوحدة معجمية"[1].

ويمكن أن تجمع عناصر الدلالة، في دراسة متكاملة تدخل ضمن مباحث الحقول الدلالية، التي تنتظم وفقاً للمنهج التصنيفي التنظيمي في دراسة الأدلة ومحتوياتها، لأن الدراسة التي تناولها الدال تنسحب بالضرورة لتتناول المدلول ومن ثم المرجع. فتقسيم الدراسة العلمية لمؤلفات الدلالة الثلاثة ليس سوى تيسير منهجي، يعتمد في تفكيك البنية الواحدة ذات المكونات المتحدة ليعيد تركيبها مرة أخرى لتكون الدراسة ذات طابع شمولي متكامل.

إذا كانت اللسانيات تركز اهتمامها على دراسة "الدال" من جوانبه المختلفة، فإن علم الدلالة- كما أسلفنا- يعني، بالأخص، بالجانب المفهومي "للدال" فيتناول ضمن مباحثه العلاقة التي يقيمها "المدلول" مع الأشياء، وعلاقته ببقية المدلولات داخل السياق اللغوي، يوضح موريس أبو ناضر ذلك بقوله: "يعرف علم المعاني أو علم الدلالة بأنه العلم الذي يعنى بدراسة الدلالات الألسنية، وعلى الأخص الجانب المعنوي من هذه الدلالات، أي المدلول، والمدلول يدرس في ضوء هذا العلم من عدة جوانب:

أ-الجانب الأول: يتمثل في العلاقات التي يقيمها المدلول مع الأشياء التي يومئ إليها أو يعبر عنها (المفاهيم – العواطف- معطيات العالم الخارجي).

ب-الجانب الثاني: يتمثل في العلاقات التي يقيمها المدلول مع غيره من المدلولات.

1 ـ سالم شاكر، المرجع السابق ص18.

ج-الجانب الثالث: يتمثل في العلاقات التي تنشأ بين السمات الأساسية التي تتكون منها المدلولات[1].

فقد يكون للدال أكثر من مدلول يتحدد وفق السياق اللغوي، ومن ثم قد يكون المعنى أساسياً أو ثانوياً تصريحياً أو إيمائياً، وقد يحمل الدال قيماً دلالية تسمى القيم التعبيرية أو الأسلوبية... يذهب بيار جيرو إلى التأكيد أن للكلمة غير معنى تصريحي وآخر إيمائي، نظراً إلى التداعيات التي يمكن أن تحدثها في أثناء الاستعمال، فأي كلمة قد تستدعي قيماً اجتماعية أو ثقافية أو حتى قيماً انفعالية، تعكس صورة قائلها وتحدد بعض ملامح الجانب النفسي فيه [2].

وتوصل علماء الدلالة في العصر الحديث، إلى تصنيف للمدلولات بالاعتماد على عدة طرق، حددها الدكتور موريس أبو ناضر؛ منها:

1-الطريقة الشكلية: وهي تعني تصنيف المدلولات وفقاً للشكل الذي يجمعها في بنية واحدة بتفرعها عن أصل واحد يبرز القرابة بينها مثل: علم- يعلم- تعليم- معلم..

2-الطريقة السياقية: وتفيد أن المدلولات تصنف باعتبار المعنى الذي ترد من خلاله في السياقات المختلفة.

3-الطريقة الموضعية: وهي تعني أن المدلول يتحدد من خلال الموضع والموقف الذي يكون فيهما المتكلم.

4-الحقول الدلالية: وهي تكشف عن القرابة المعنوية بين المدلولات.

5-التحليل المؤلفاتي: وهو يفيد أن المدلول يعيّن انطلاقاً من مؤلفات الكلمة الأساسية أو ما يطلق عليه باللكسيم "مثل لكسيم" امرأة يحوي المؤلفات

---

1 ـ انظر مقال: مدخل إلى علم الدلالة الألسني د. موريس أبو ناضر، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 18 - 19، السنة 1982، ص34.

2 ـ بيار جيرو، انظر علم الدلالة، ترجمة د. منذر عياشي ص61-62-63.

الآتية: أنثى +بالغ +بشر[1].

أما دراسة (المرجع) عند علماء الدلالة فإنها لم تحسم ذلك الجدل الدائر حول تحديد الموجودات في عالم الأعيان، بحيث إن المرجع الذي يحدّد في السياق اللغوي أو في الصيغة المعجمية لا يمكنه أن يحيل إلى الشيء المعين في العالم الخارجي إحالة دقيقة، آية ذلك أن الموجودات في العالم الخارجي، تتميز بالتصنيف المتعدد والمتداخل حتى داخل الحقل الواحد الذي يضم موجودات متماثلة، نظرا إلى "أن التحديد المرجعي يقع في الخطأ عد علاقة: دال- مدلول علاقة تسمية (...) في حين يتعين علينا أولا عند إقدامنا على وصف المدلول، استنباط الصفات المشتركة التي تلازم (المراجع) التي قد ينطبق عليها (دليل) ما، فكوننا قد شاهدنا كرسياً واحداً، لا يخبرنا بالخصائص (الفيزيائية والوظيفية) اللصيقة بمجموعة لا متناهية من الأشياء التي تكوّن جنس الكرسي[2] وإلى الفكرة ذاتها يشير كولردج بقوله: "ولا يتضمن" معنى "اللفظة في رأيي مجرد الموضوع الذي يقابلها، بل يشمل أيضاً جميع الارتباطات التي تبعثها اللفظة في أذهاننا"[3].

- علاقة اللسانيات بعلم النفس

إن الحديث المتشعب عن اللسانيات، يوحي بعلاقة واسعة تصل اللسانيات بغيرها من العلوم التجريبية؛ كالبيولوجية والفيزياء وكذلك بالعلوم الإنسانية المتعددة؛ نظرا إلى كون اللغة وعاء يحوي نشاطات إنسانية متنوعة؛ لكن السؤال المطروح ههنا، ما علاقة اللسانيات بعلم النفس؟

---

1 ـ مقال: مدخل إلى علم الدلالة الأنسي. موريس أبو ناضر: مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 18/ 19، السنة 1982، ص34 - 35.

2 ـ سالم شاكر: ترجمة محمد جباني، مدخل إلى علم الدلالة، ص23. يحياتين.

3 ـ محمد مضطفى: بدوي كولردج ص97

جلي أن احتواء اللغة على الجانب النفسي الذي يتحكم في إنتاج الكلام وفهمه، وهو جانب من اختصاص علم النفس، يجعل هذا العلم يلتقي باللسانيات من حيث كون الظاهرة اللغوية في جانبها النفسي تتضمن عمليتين: الإنجاز والفهم، ونضيف الى هذا أمراض الكلام؛ والملفت للنظر حقاً أن اجتهاد البنيويين الجدد في إقصاء الإنسان يقابله جهد الألسنيين عامة في تطعيم منهجهم بأبعاد شتى تنفتح على التاريخ والأنثربولوجيا والاجتماع وعلم النفس..[1] لأن الفرد في حقيقته جملة علاقاته الاجتماعية، ولأن الإنسان: «هو منتج كل ما هو إنساني... والبشر هم الذين يخلقون اللغات والأساطير والأديان والمجتمعات»[2].

ولعل جاك لاكان هو بطل التحليل النفسي في الدراسات الأدبية، فقد وظف المقولات الألسنية اللغوية التي نادى بها سوسير ونادى بها "ما بعد البنيويين"، وأرسى أسس التحليل النفسي عليها؛ ونتيجة لذلك، توصل لاكان إلى شعاره المألوف: "إن اللاوعي مبني كما تبنى اللغة".

فالمحلل النفسي (جاك لاكان) يحاول الجمع بين الألسنية وعلم النفس، ليدفع بالنقد نحو اتجاه جديد يقوم على مبدأ أن (البنية الشاملة للغة هي بنية لا شعورية)، وهي تشبه حالة (الحلم)، حيث يكون الفعل للدال، بينما المدلول في حكم التفسير أو هو شيء طائر. وبذا يحرر لاكان الدال من قيد المدلول، ويصبح (المدلول) منزلقاً، و(الدال) عائماً.

ويكون دورنا -كقرّاء -هو تفسير الإشارات أو البحث عن (نواة) أو دال رئيس مخزون في اللاشعور يمثل حالة الصفر أو اللامعنى. وهذا قمة انعتاق الدال.. ولذا، لا غرابة في أن يطبق لاكان المنهج البنيوي على علم النفس، حيث أصبحت اللغة عنده نظرية علمية مستقلة يمكن بوساطتها وصف اللاشعور

---

1 ـ حبيب مونسي، القراءة والحداثة، ص159

2 ـ بول سباغ: الماركسية والبنيوية ص:114

بطريقة علمية، وفهم قوانينه بدقة متناهية. وبناء على هذا المبدأ، وضع لاكان بعض الأسس التي ترى أن كلام اللاشعور ينتظم في بنية متماسكة على أنه لغة، وأن بنية الشخصية هي عدة مستويات لغوية. ويترتب على هذا، أن الأمر الحاسم ليس الحلم في ذاته، وإنما مادته المحكية التي هي "أهم" وثيقة من وجهة النظر التحليلية. وهي مرتبطة بالبنية اللغوية متعددة المستويات. كما يعد التفسير بدوره وثيقة؛ ومهمة المحلل عندئذ هي اتخاذ موقف تكميلي كان فرويد يصفه بأنه تركيبي.

وعلى هذا؛ فإن المادة التي يعمل بها المحلل النفسي هي المادة اللغوية؛ ولذا، ينبغي ألا ندهش مما كان يخصصه فرويد من وقت لدراسة وتحليل التداعيات اللغوية واللعب بالألفاظ وخطأ اللسان... إذ إن التحليل اللغوي هو المنهج الملائم لدراسة اللاشعور. وقد أبرز لاكان أهمية مرحلة (المرآة) في التطور المبكر للطفل واكتشافه المندهش لصورته، ما يمثل الإدراك الأولي لنفسه كجسم موحد يمكن التحكم فيه. وهذه الصورة لا تلبث أن تسيطر على علاقته بالأطفال الآخرين، وتتحول إلى لعبة السيد والخادم أو الممثل والنظارة. ويصبح ذلك مظهراً لرفض الواقع. ويحدث شبيه بهذا في اللغة؛ فطبيعة اللغة التجريدية تجعل أي معرفة بشرية ممكنة، وتتضمن نوعاً من إنكار الحقيقة الواقعة. ومع ذلك؛ فإن الوظيفة الأساسية للغة، إن لم تكن جزءاً من الحوار الإنساني وتخضع لقوانين القول العادي؛ فإنها يمكن أن تطبق جميع إمكانياتها في النقل والتكثيف والإسقاط لإنكار الواقع والخضوع المطلق لمبدأ اللذة. وهكذا تتكون (اللغة المنسية) للاشعور.[1]

---

1 ـ محمد عزّام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، دراسة في نقد النقد، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق – 2..3، ص5.-52

- الأسلوبية الإحصائية:

تعتمد الأسلوبية الإحصائية الإحصاء الرياضي مطية للدخول إلى عوالم النصوص الأدبية، دلالة منها على خصائص الخطاب الأدبي في أدواته البلاغية والجمالية؛ إذ "يهدف التشخيص الأسلوبي الإحصائي إلى تحقيق الوصف الإحصائي الأسلوبي للنص، لتبيان ما يميزه من خصائص أسلوبية"[1] عن باقي النصوص الأخرى.

انصبت جهود الأسلوبيين الإحصائيين على مدارسة النصوص الإبداعية، من خلال بنياتها المشكّلة لها، ومراعاة عدم تكرارها، والبحث عن الصيغ والمفردات التي يركز عليها المبدع دون غيرها، للوقوف على المعجم الإفرادي والتركيبي والإيقاعي للمبدع ذاته، كما سعت إلى تبيان خصائص اللغة التي اعتمدها الكاتب، محاولة منها لتأكيد أن المقاربة الإحصائية للأسلوب يقصد منها تمييز الملامح اللغوية للنص؛ من خلال إبراز معدلات تكرار مختلف المعاجم، سواء أكانت إفرادية أم تركيبية أم إيقاعية ونسب هذا التكرار، ولهذا النمط من المقاربة أهمية خاصة في تشخيص الاستعمال اللغوي عند المبدع، وإظهار الفروق اللغوية بينه وبين مبدع آخر، مع ذكر العلل والأسباب إلى حد ما.

وتنهض اللسانية الإحصائية على دراسة ذات طرفين؛ أولهما: هو التعبير بالحدث، والثاني هو التعبير بالوصف؛ ويعنى بالأول الكلمات أو الجمل التي تعبر عن حدث، وبالتالي الكلمات التي تعبر عن صفة؛ ويتم احتساب عدد التراكيب و القيمة العددية الحاصلة؛ تزيد أو تنقص تبعاً لزيادة أو نقص عدد الكلمات الموجودة في هذه التراكيب، وتستخدم هذه القيمة في الدلالة على أدبية الأسلوب، والتفريق بين أسلوب كاتب و كاتب... فمثلاً، تبين في كتاب "الأيام" لطه حسين،

---

1 ـ محمد عبد العزيز الوافي، حول الأسلوبية الإحصائية، مجلة علامات، ج42، مج11، ديسمبر 2..1، ص122

أن نسبة الجمل الفعلية إلى الوصفية 39 %، في حين أن نسبة تكرار هذه الجمل في كتاب "حياة قلم" للعقاد لا تتعدى 18 %، ومعنى ذلك؛ أن كتاب "الأيام" أقرب إلى الأسلوب الانفعالي والحركي من كتاب العقاد الذي يميل فيه إلى الطابع الذهني العقلاني.

لا بد من الإشارة هنا إلى أهمية الاستفادة من الإحصاء، والأسلوبية الإحصائية في التحليل النفسي للأدب؛ فنحن لا نغفل في سياق الغوص على الأعماق، دلالة الكلمة أو الكلمات المكرورة في نتاج أديب من الأدباء؛ فإلحاح الشاعر على لفظ معين، ذو دلالة نفسية مؤكدة؛ لذلك نبه بعض الدارسين الى أهمية الإحصاءات في بحوثهم الأدبية[1]؛ وهذا ما فعله شارل بودوان في كتابه عن «فيكتور هوغو»، حين درس في أربعة من أعمال الشاعر نمط النور والظل في طباق «النهار- الليل، والأسود-أبيض...»، وقد أفرد بودوان فصلا كاملا من كتابه لهذا الإحصاء اللغوي[2]. وبدهي أن الغاية من هذه العملية الحسابية لا تتحقق إلا إذا وظفت لخدمة المنهج التحليلي الذي يرى في هذه النتيجة دليلا على ثنائية العواطف لدى الشاعر...

فدلالة اللفظة المرددة إذًا، إحدى وسائل المحلل النفسي؛ لأنها تكشف في الوقت نفسه، عن دوافع السلوك وحيثياته؛ فلو تناولنا لفظة "الكأس" أو "الخمر" عند أحد الشعراء، لتبينا افتقاره الى العطف، وافتقاده المرأة، ونفوره من الواقع، وتوقه الى الهرب في غيبوبة الحلم وإدمان الكحول...وهكذا، تستطيع كلمة مكررة معينة أن ترمز الى مجموعة أشياء، امتزجت في ما بينها، وتشكلت مضخمة بقدرة الفن وأدواته...

---

1 ـ خريستو نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي، ص4.

2 ـ Baudouin Charles. Psychanalyse de Victor Hugo. Edition Armand colin. 1972. P243-261

- الأسلوبية التعبيرية (شارل بالي)(1865- 1947)

الأسلوبية أو الأسلوبيات، أو علم الأسلوب؛ كلمات مشتقة من الأسلوب، تشكل اتجاهاً نقدياً يعتني بمقاربة الجوانب الأسلوبية في النصوص الإبداعية، وقد ظهرت خلال القرن التاسع عشر في النقد الغربي، لكن ملامحها كمنهج نقدي لم يحدد إلا في بداية القرن العشرين مع "شارل بالي"، بعد أن كانت متداخلة مع علم البلاغة في التراث اللغوي العالمي.

استفاد شارل بالي في التأسيس للأسلوبية كثيراً من أستاذه سوسير، ولا سيما في بعض إنجازاته اللغوية الأساسية، فوضع "شارل بالي" ـ بوصفه مؤسس الأسلوبية ورائد التعبيرية منها ـ الطابع الوجداني، محدداً في عملية التواصل بين المرسل والمتلقي، ضمن الإطار اللغوي للرسالة، إذ "يعد من الرواد المؤسسين للأسلوبية، وهي تعني عنده البحث عن القيمة التأثيرية لعناصر اللغة المنظمة والفاعلية المتبادلة بين العناصر التعبيرية التي تتلاقى لتشكيل نظام الوسائل اللغوية المعبرة، وتدرس الأسلوبية عند "بالي" هذه العناصر من خلال محتواها التعبيري والتأثيري"[1] من النص إلى المتلقي عبر اللغة.

واهتم "بالي" في أسلوبيته التعبيرية بالجانب الأدائي للغة الإبلاغية، من خلال تأليف المفردات والتراكيب اللغوية ورصدها جانباً إلى جنب، انطلاقاً مما يمليه وجدان المؤلف، بذلك تعد التراكيب اللغوية حاملة لمضمون عاطفي، مشحون دلالياً يجعل المتلقي يتأثر به...

حصر "بالي" أسلوبيته في اللغة الشائعة؛ لغة التواصل اليومي، دون اللغة الأدبية، لغة الإبداع؛ ولذا، كان "الأسلوب" عند "بالي" هو تتبع السمات والخصائص داخل اللغة اليومية، ثم استكشاف الجوانب العاطفية والتأثيرية

1 ـ نور الدين السدّ، الأسلوبية وتحليل الخطاب، الجزائر، دار هومة، ط1، 1997، ص 6..

والانفعالية التي تميز أداء عن أداء"[1]، من شخص إلى شخص، ومن بيئة إلى بيئة.

وهكذا، تميزت الأسلوبية منذ القرن العشرين "عما هو مشترك في مفهوم الأسلوب عن البلاغة القديمة، ولذلك ركز "شارل بالي" في دراسته للأسلوب على الكلام أو الحديث اليومي بوصفه الخطاب البسيط و البعيد من التعقيد والوعي القصدي؛ واشتغل كثيراً بالوصف اللغوي، ولهذا نعتت أسلوبيته منذ البداية بالوصفية؛ إذ هي عبارة "عن وصف للوسائل المقدمة من اللغة، واختبار للعلاقة السنكرونية بين العبارة والوعي النفسي التحليلي"، وبذلك نجد أن "شارل بالي" في أسلوبيته الوصفية يترجح بين سلطان العقل والعاطفة من أثر اللغة في المتلقي.

- الأسلوبية والبنيوية: (الوظيفة).

تنطلق الأسلوبية البنيوية في بحثها من النص كنسق لغوي، متأثرة في أطروحاتها باللسانيات الحديثة، وبخاصة علوم: الصرف، والمعاني والتراكيب، لرصد ما يحمله النص من دلالات وإيحاءات بدءاً بمفرداته وتراكيبه المشكّلة له، إذ تقارب الأسلوبية البنيوية الأسلوب من خلال النسيج اللغوي للنص، فتحدد العلائق اللغوية في مستوياتها الإفرادية والتركيبية المشكّلة لنسيجها النصاني في تتابعها ومماثلتها، مهتمة بمقاربة الظواهر، وما تولده من فروق تتولد في سياق الوقائع الأسلوبية، ووظائفها في الخطاب الأدبي ذي الجودة العالية فنياً وجمالياً.

ينطلق البحث الأسلوبي البنيوي في تحليله للآثار الأدبية من خلال البنى اللغوية المشكلة لها، ومدى تناسقها وتضافرها داخلياً لتكوين ذلك الكل الشمولي المتمثل في النص،"، وليس النص الأدبي نتاجاً بسيطاً من العناصر المكونة، بل هو بنية متكاملة تحكم العلاقات بين عناصرها قوانين خاصة بها، وتعتمد صفة كل عنصر

1 ـ رجاء عيد، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ص 31.

من العناصر على بنية الكل، وعلى القوانين التي تحكمه. ولا يمكن أن يكون للعنصر وجود ـ (فيزيولوجي أو سيكولوجي) ـ قبل أن يوجد الكل، وعلى هذا الأساس؛ فإنه لا يمكن تعريف أي عنصر منفصل إلا من خلال علاقاته التقابلية أو التضادية مع العناصر الأخرى في إطار بنية الكل"[1]، حينئذ يمكننا مدارسة النصوص الأدبية انطلاقاً من لغتها الحاملة لها، ومدى تفاعل الشكل المتمثل في المفردات والتراكيب في سياق نحوي ما، ناهيك عن تفاعل هذا الشكل بما تولده هذه المفردات والتراكيب والأصوات من دلالات تكتسبها ضمن علاقاتها جنباً إلى جنب لتكون النص في شكله العام.

تؤسس الأسلوبية البنيوية لمنهج غايته دراسة النصوص الأدبية انطلاقاً من لغتها، وما تحدثه في تجاور مفرداتها وتراكيبها، في إطار النص كنسق لغوي معزول عن كل اعتبارات تاريخية أو نفسية، لذلك لا يبحث النقاد الأسلوبيون البنيويون عن ملامح أصالة النص في محاكاته "للأسيقة" بكل أنواعها، بل نجد أن اهتمامهم ينصب على انسجام النص مع نفسه، ويركزون على مقاربة وحداته التي أسست لتناميه، فيبرزون جماليات مكوناته، وثراء دلالاته من خلال تناسق أساليبه وانسجامها؛ فالنص الأدبي من هذا المنظور هو نظم لغوي يعبر عن ذاته بدءاً، بانسجام مفرداته وتراكيبه، وعلاقة بعضها ببعض، ومن ثم، يجب مقاربته بذاته ولذاته.

وتركز الأسلوبية البنيوية على تناسق أجزاء النص اللغوية، ورصد مدى انسجامها علائقياً، حتى تكتسب اللغة من خلال النص صفة الأدبية زيادة على صفة الإبداعية ضمن السياق العام للغة، هذا كله ينبئ بأنها بقدر ما تهتم بالنص لذاته وبذاته، فإنها تهتم كذلك بالمتلقي كعنصر مهم في تفعيل العملية الإبداعية، ما دام هذا الأخير يقبل على الأثر الأدبي إذا بلغ درجة فنية راقية، تجعله يقع في

---

1 ـ محمد عزام، الأسلوبية منهجاً نقدياً، دمشق، وزارة الثقافة السورية، ط1، 1989، ص 11..

نفسه موقع الاستحسان والقبول الفنيين، فيتمتع به، ويصغي إلى محمولته الدلالية، وينجذب نحو سحره الظاهر في إطار لغة فنية راقية، تسمو عن التواصلية النفعية، إلى التأثير الجمالي، وتالياً إلى الإبداع والفن.

لقد كان لـ"رومان جاكبسون" الأثر الأعظم في التأسيس للتحليل الأسلوبي؛ وبخاصة البنيوي منه، إذ كان منطلقه في ذلك أن "الأدب أبعد من المعنى، والعمل الأدبي يمثل كل طرائق الأسلوب، وأن الأسلوب هو البطل الوحيد في الأدب"... لكن هذا المنهج، لم يسلم من الانتقاد المنهجي من بعض الدارسين الذين عابوا عليه الانغماس في الطابع اللغوي الجاف، متناسياً الجانب المضموني في العمل الأدبي. وهذا ما دفع إلى بروز اتجاه آخر في الأسلوبية يركز على المناحي الانطباعية، ويحاول ملامسة الجوانب الإنسانية في الأعمال الأدبية، وقد عرف بالأسلوبية الأدبية، ولاقى رواجاً في الدراسات الألمانية التي تستند في كثير من أطروحاتها إلى الفلسفة المثالية.

- ومن الاتجاهات الأسلوبية أيضا:

-الأسلوبية الصوتية: وهي التي تهتم بالأصوات والإيقاع والعلاقة بين الصوت والمعنى.
-الأسلوبية النحوية: تهتم بدراسة العلاقات، والترابط والانسجام الداخلي في النص وتماسكه، من طريق الروابط التركيبية المختلفة؛ ومن هذه العلاقات: استخدام الضمائر والعطف والتعميم بعد التخصيص... وهذه العلاقات يلجأ إليها الكاتب لتنظيم جمله بعضها إلى جانب بعض، ما يؤدي إلى تماسكها وترابطها...
-الأسلوبية الوظيفية: وتهتم بدراسة العدول، أو ما يسمى بالانحراف أو الانزياح. وتقوم على مبدأين:
أ-دراسة نصوص كثيرة تمثل أنواعاً أدبية مختلفة، وأجناسا متعددة، وعصورا،

بغية الكشف عن الآليات التي تتحكم في تكوين الأسلوب الشعري.

ب- الإفادة من نتائج علم النفس...

فدراسة العمل الأدبي أسلوبياً، يتطلب التحرك بمرونة قصوى بين الأطراف والمركز الباطني للنص، والوصول إلى تلك النتائج يتطلب إعادة قراءة النص مرارا.

نموذج تحليلي (سيكو- بنيوي)

لقصيدة الملك بهرام شاه الأيوبي

ارتأينا أن نحلل قصيدة للملك الأمجد بهرام شاه الأيوبي، استنادا إلى منهج التحليل النفسي، والألسنية.. لإغناء الدراسة، وإظهار خصائص من شخصية الشاعر الأيوبي المفعمة بالتبعية للحبيبة/الأم... وآية ذلك أن الإنسان في نظر لاكان، يمتاز بنطقه، والتعابير اللغوية هي المعبر عنه، واختياره للمفردات والتعابير والكلمات والأسماء... لا يأتي على سبيل المصادفة، بل تتحكم به بنية نفسية ترتكز في الأساس على الأسلوب...

إن المحلل النفسي لاكان، يرى أن اللغة ظاهرة بنيوية، وأن اللاشعور الذي يتحكم برغباتنا هو من هذه البنية الشبيهة بتركيبة اللغة؛ ولذا، قال لاكان: "إن الحلم نص ظاهر يشير إلى نص باطن". وهذا يتفق وفرويد القائل بالتكثيف والنقلة والترميز، وهي شبيهة بالمجاز والكناية، إضافة الى الفكرة المجردة والصورة الصوتية. ولذا اعتمد دي سوسير تشبيه الصورة الصوتية بالدال، والفكرة المجردة بالمدلول... فشخصية اللغة ليست في الواقع غير شخصية الشاعر من خلل قصائده...[1]».

يقول الملك بهرام شاه من الطويل والقافية من المتدارك:

حَقِيْـقٌ[2] بِـأَنْ يبـكِي الدِّيَـارَ غَرِيْبُـهَـا بِأَدْمُـــعِ عَيْـــنٍ لا تَجِـــفُّ غُروبُهَـــا[3]

---

1 ـ خريستو نجم. المرجع في مناقشات جامعية. جروس برس، لاط، لات، ص241

2 ـ حقيق به: أي خليق به.

3 ـ غروب: عرق في العين يسقي ولا ينقطع، والدمع وسيله، أو انهلاله من العين.

دِيارٌ عَلَى بعدِ المسافةِ شَاقَنِـــــي	نَضَارَتُهَا قَبْـــلَ الفــراقِ وَطِيْبُهَـــــا
شهيٌّ إلى هــذي النفوسِ حِمَامُهَــا[1]	إِذَا بَانَ عَنْهَا بَعْدَ قربٍ حَبِيْبُهَـــــا
تناءَى فَمَا أَبْقَـى وَقَدْ بَانَ أُنسُــــهُ	عَـنِ الجِـزْعِ[2] لِـي مِـنْ رَاحَــةٍ أَسْتَطِيْبُهَا
فللّهِ أَغصانُ الوصــالِ لَقَــدْ ذَوَى[3]	سَرِيْعًا بحكمِ البينِ منها رطيبُهَـــــا
ولله ليلاتٌ يطـولُ عَلَى المـــــدى	نحيبي على أمثالِها ونحيبُهَـــــا
متى ذكرتْهَا النَّفْسُ ذابتْ صبابـــةً	وَتَذْكَارُ أيامِ اللّقاءِ يُذيبُهَـــــا
ليـاليَ قلبــي فـي الغــرامِ كأَنَّمَـــا	يُجِنُّ الذي باتَتْ تُجِنُّ قلوبُهـــــا[4]
قريبٌ إلينا الأُنسُ منهنَّ كلَّمـــا	تباعدَ عن ليلى الغداةَ رقيبُهَـــــا
فيا حبـذا تلـكَ الليـالي وطيبُهـــا	ويا حبذا إحسانُها وذنوبُهَـــــا
وما ذاتُ طوقٍ لا تـزالُ على الغَضـا	تنوحُ اشتياقًا والهديلُ يُجيبُهَـــــا
بأكثَرَ مِنْ قلبي حنينًا إلى الحمــــى	إذا عَنَّ[5] مِنْ تلــكَ الرِّياحِ هبوبُهـــا[6]

- تحليل القصيدة لغويا ونفسيا[7]

يتعين المتكلم (المرسل) في هذه القصيدة، بالإحالة الضميرية "ياء المتكلم" المتغلغل في ثنايا القصيدة،... والذي يؤشر إلى نرجسية صاحبه: "شاقني- قلبي[2]- نحيبي..."، والمرسل إليه لم يعين بشكل دقيق؛ إنما بقي غائبا، فقد يكون

1 ـ الحمام: قدر الموت.

2 ـ الجزع بكسر الجيم: منعطف الوادي.

3 ـ ذوى: ذبل.

4 ـ تجن: تستر.

5 ـ عنّ له كذا، يعنّ بضم العين وكسرها: أي عرض واعترض.

6 ـ الأمجد. الديوان. ص341.34-

7 ـ لعلنا، من خلل استخدام التحليل اللغوي والنفسي، نتأثر بالمحلل النفسي جان لاكان الذي جمع بين الحالة النفسية والدراسة اللغوية لاظهار المدلول... ينظر: أنور الموسى، علم النفس الأدبي، بيروت، دار النهضة العربية، ط1..

الديار التي لجأ إليها الشاعر للتخفيف من حرقته، أو زمن اللقاء (الحياة الجنينية) حين كانت أغصان التداني مورقة وندية، وحضن الأم وعطفها وحنانها... قريبي المنال...، أو الحبيبة الغائبة، أو جمهور القراء؛ لأن عاطفة الحب كونية، لا يخلو منها زمان أو مكان...

-الحقول المعجمية ومؤشراتها النفسية

1 الحقل المعجمي للبين: "بان[2]- بعد – الفراق – البين –تباعد..."، وليس بغريب أن تنتشر مترادفات البين في هذه القصيدة، لأن كل ما أصاب الشاعر من عذاب كان سببه الفراق الذي أدى بدوره إلى زيادة قلق الهجر والانفصال...، ولذلك يمكننا جعل لفظة "البين" الكلمة المفتاح لهذه القصيدة.

2 حقل المعاناة :" يبكي- أدمع عين-لا تجف غروبها – بعد المسافة – حمامها - بعد قرب- تناءى - ما أبقى... لي من راحة - ذوى سريعا - نحيبي- نحيبها - ذابت صبابة – يذيبها – رقيبها - تنوح ..."

من الملاحظ أن الألفاظ والعبارات التي تشير إلى معاناة المازوخي، تتغلغل في القصيدة من ألفها إلى يائها؛ آية ذلك، أن الشاعر يتحدث في بائيته عن كارثة عاطفية كبرى، ما يجعل النص وجدانيا، ومفعما بمعاني العذاب الإنساني بأشكاله كافة...

بيد أن ذلك لا يمنع من وجود حقل آخر يكشف عن حنين إلى زمن الوصال (الحياة الجنينية)، فما هو هذا الحقل؟

3 حقل الوصال والسعادة: "نضارتها – طيبها – راحة – أغصان الوصال – رطيب – يا حبذا [2] – طيبها – احسانها...".

حقل الوصال قليل في القصيدة إذا ما قارناه بالحقلين السابقين، وهو يعود إلى

زمن ولى يحن إليه الشاعر، حيث النضارة، والتلاقي، والطيب والإحسان...والتمتع برؤية وجه الحبيبة/الأم...

ولا بد من الإشارة في هذا السياق، إلى أن الشبكة المعجمية للمعاناة والبين والوصال، على ما يبدو، توفر للنص تماسكه ووحدته...، كما أنها تعكس ثنائيات ضدية بارزة على صعيد القصيدة ككل، وعلى صعيد الديوان بشكل عام؛ أعني ثنائية الموت/ الحياة، الفراق/الوصال، الحضور/الغياب،...أو قل الموت/الحياة.

أضف إلى ذلك، أن حقل الجمال الجسدي يغيب عن القصيدة كليا، ما يعكس أن حب الملك الأيوبي، روحي لا أثر فيه لتصوير جسدي، أو مجون، أو تهتك...

وهناك حقل ثانوي لجأ إليه الشاعر للتخفيف من وطأة ألمه، وللتنفيس عن كربه وهمّه الناتجين عن صدمة الولادة (الانفصال)... يتعلق ببعض عناصر الطبيعة الجامدة حينا، والمتحركة أحيانا: "الديار[2] - الجزع – أغصان – ليلات – ليالي[2] – ذات طوق – الغضا – الهديل – الرياح - هبوبها" .

وانتشار هذا الحقل لا ينفي تماسك القصيدة، إنما هو أمر طبيعي عند شاعر نأت عنه الحبيبة/الأم، وشمت به الرقباء والكاشحون، فلم يجد سوى الطبيعة ملجأ، نظرا الى أن عناصرها ترمز الى كل ما يمت الى الأمومة بصلة؛ ثديها، صدرها، رحمها،... حنانها...

وما من شك في أن العالم الداخلي للشاعر مثقل بالعذاب والمعاناة، فما كان منه إلا أن ترجم انفعالاته من خلال ألفاظ تنبع من ذاك العالم لتصب في قصيدة حب كهذه...لكن السؤال المطروح ههنا: ما سر هذه الازدواجية النفسية التي تنبئ عن انصهار دافع الحياة بدافع الموت في شخصية الملك الأيوبي؟ ولِمَ يشبه تجربته في الحب بقوة الشر (المتمثلة ههنا بالمعاناة) ورموزها المدمرة؟ مع أن "الحب، بتحديده الأعمق، نقيض الدمار؛ لأنه لحمة وتواصل مع الآخر ومع الكون، يبني

ويعمر ويأنف من التفكك والانهيار"،[1] لا ريب في أن الشاعر كان يعاني من نقص رهيب... ومن دونية لا واعية تستنفر أحقاده المكبوتة، فيصبغ الحب عنده بلون الدم، فيضحي لذة في الألم وألما في اللذة...

وهكذا نرى أن شخصية الملك الأيوبي في أبعادها العميقة؛ مصدومة في الصميم، تحاول إشباع رغباتها المازوخية... ويؤمن صاحبها بالحب الملازم للألم والمعاناة...بحسبه مازوخيا يتلذذ بالحب/المعاناة.

-الأفعال ومفهوم الشاعر عن الزمن

تكثر في قصيدة الملك الأيوبي الأفعال الماضية، وتليها المضارعة، وتغيب أفعال الأمر كليا...

الأفعال المضارعة يبلغ عددها أحد عشر فعلا، وهي على التوالي: "يبكي، تجف، أبقى، أستطيبها، يطول، يذيبها، يجن، تجن، لا تزال، تنوح، يجيبها".

وزمن هذه الأفعال "استباقي"؛ (إذ تفيد الزمن المستقبل، فضلا عن الزمن الحاضر). فالبكاء على سبيل التمثيل لا الحصر، يلازم الشاعر في حاضره ومستقبله... شأنه في ذلك شأن الطفل الذي يبكي ليطعم...، ولذلك، كان فعل "يبكي" الأول الذي أورده الشاعر في القصيدة... وهو يحيل أيضا إلى البكاء الأول الذي أطلقه الطفل/الملك؛ عقب صدمة الانفصال أو الولادة...

أما الزمن الاسترجاعي المتمثل بالفعل الماضي، فقد ورد اثنتي عشرة مرة: "شاقني، بان[2]، تناءى، ذوى، ذكرتها، ذابت، باتت، تباعد، حبذا[2]، عنّ".

ويلاحظ أن الزمن الاسترجاعي يرتبط بالماضي حيث حصل البين والهجر (بان[2]، تناءى، تباعد...)، كما أن هذا الزمن سبق الزمن السابق ومهد له، إذ إن

1 ـ جان طنوس. توفيق يوسف عواد دراسة نفسية في شخصيته وأدبه. بيروت. دار الكتب العلمية. ط1، 1994، ص3.

البين (الهجر وصدمة الانفصال) أورث المعاناة، والبكاء...

ويلاحظ في مجال "الزمن الاسترجاعي"، تكرار فعل "بان" مرتين، لما يحمل من دلالة تفيد التحول من حال إلى حال مناقضة لها، وكذلك الحال بالنسبة إلى فعل "حبذا" في بيت واحد (العاشر)، لما يحمل من دلالة العودوية الممثلة بزمن الفرح والحياة، وهذه العودوية هي تعبير عن الاطمئنان إلى هذا العالم الخاص بالشاعر، المتعلق بزمن الوصال ولقاء الحبيبة/الأم.

وقد خلت القصيدة من أفعال الأمر، وهو –أي الشاعر- في ذلك يعبر عن تواصلية زمنية، إذ لا يود الانسلاخ عن ماضيه(رحم الأم)، ذلك الماضي المليء بالحيوية والحياة، والذي يمثل حلما جميلا، يقول في قصيدة ميمية من الرجز والقافية من المتواتر:

كَأَنَّنِي كُنْتُ أَرَى وِصَالَهَا   زَمَانَ جَادَتْ لي بِهِ، مَنَامَا

وَالعَيْشُ لا تَصْحَبُهُ لذاذةٌ   إلاَّ إذا مَا أشبَهَ الأَحْلامَا[1]

وكأني بالشاعر الذي يقر ههنا بأن وصال الحبيبة/الأم، أشبه ما يكون بمنام جميل، يؤكد أيضا أن العيش بما فيه نظم الشعر، شبيه بحلم جميل يبعث على اللذة، ويعوض من الرغبات المكبوتة... ولا غرابة في ذلك، ما دام التحليل النفسي التطبيقي يعد العمل الأدبي شبيه بفانتازيا، وعامل النص كعرض من أعراض المؤلف...وهذه الفرضيات التي تحيل ضمنيا إلى نفسية المؤلف، تتأسس على أن غاية العمل الفني الشبيهة بالحلم هي الإشباع السري لرغبة طفولية مكبوتة تستقر في اللاشعور... نظرا الى ان كل "اثر هو حصيلة سبب سيكولوجي، ويحتوي على مضمون ظاهر ومستتر كالحلم تماما. إنه إضفاء للحياة النفسية للمؤلف، ولدوافع غالبا ما تكون بعيدة عن أن يعيها حين يكتب"[2].

---

1 ـ الأمجد، الديوان، ص93

2 ـ كارلوني وفيللو. النقد الأدبي. تر. كيتي سالم. بيروت. دار عويدات، ط2، 1984، ص119

-الضمائر ودلالتها النفسية

في مجال الضمائر، يلاحظ أن الضميرين المهيمنين في هذه القصيدة هما: ضمير الغائب للمؤنث (ها) الذي يتصل بألفاظ لا رابط معنويا بينها، و"ياء" المتكلم التي تعود إلى الشاعر، فضلا عن ضمائر أخرى وردت بقلة...

فالأول ورد إحدى وعشرين مرة، متصلا بالألفاظ الآتية: "غريب، غروب، نضارة، طيب[2]، حمام، عن، حبيب، أستطيب، من، رطيب، ذكرت، يذيب، أمثال، قلوب، رقيب، نحيب، إحسان، ذنوب، يجيب، هبوب ".

ورود الضمير (ها) بهذه الكثرة، جعل القصيدة تعج بالتأوهات المنبعثة من التلفظ بهذا الضمير، والتي قد تحيل الى تأوهات الرضيع خلل البكاء... ما أضفى على القصيدة مسحة حزن بارزة...

أما الضمير الثاني الذي يلفت النظر في القصيدة، (ياء المتكلم العائدة إلى المرسل)، فقد ورد خمس مرات في الكلمات الآتية: " شاقني، قلبي[2]، لي، نحيبي"، فضلا عن ضمير (نا) للمتكلمين: "إلينا" الذي ورد لمرة واحدة، والضمير المستتر (أنا) الذي يعود إلى المرسل: "أستطيبها"، بما يعطي أهمية خاصة لرؤية المتكلم عالمه و"أناه"، فضلا عن موقعه المحوري في الوحدة ككل...

أما الضمائر التي وردت لمرة واحدة فهي: (هنّ)، وضمير الغائب للمذكر في كلمة (أنسه)..

يتضح مما سبق، أن قصيدة بهرام شاه، تظهره وجدانيا، يعبر عن حزن إنساني عميق، وعن لحظة الضعف العاطفي بأشكاله كافة... وآية ذلك أن الملك المعذب ينطوي على ذاته في عزلة كبيرة، بعد أن اقتنع أن الواقع معضلة سلبية تقف حائلاً دون تحققِ ذاته، فرجع إلى تلك الذات يتخبط بها...

-الجمل ودلالتها النفسية

الجمل في غالبيتها اسمية، وهي تشير إلى دوام الحال والاستمرارية، ولكأن الشاعر يرزح تحت واقع لا تبدل له بسبب الهجر، والنص في النهاية ينتج شؤما لا خلاص منه...

وصحيح أن الجمل في غالبيتها خبرية، لكنها استباقية؛ لأن الشاعر يتحسر على زمن ماض؛ زمن وصال الحبيبة/الأم الذي أثار ذكرياته وشجونه...

-ثانيا: مستوى الصورة والرمز ودلالاته السيكولوجية

تستوقفنا في هذه القصيدة بعض الصور التي تعبر عن واقع الشاعر المرير، وهي على قلتها، تشير إلى ثنائية ضدية مركزية؛ أعني ثنائية الوصال/الفراق.

ففي البيت الخامس صورة للوصال عبر عنها الملك المذكور حسيا حين قال:

فللّهِ أَغصانُ الوصالِ لَقَــدْ ذَوَى سَرِيْعًا بحكمِ البينِ منها رطيبُهَـــا

فقد جعل للوصال أغصانا أنيقة، رطبة، فيها حياة؛ ذلك أن الرطوبة منبعثة من الماء الذي يصيّر كل شيء حيا، في إشارة إلى الحياة الجنينية الهادئة، ومن خلله تتفجر ينابيع الحياة، وتنتشر الرياض التي يعد الغصن أحد عناصرها...

فعناصر الطبيعة هذه، بما ترمز إليه من عناصر أمومية، استغلها الشاعر حين أضاف الأغصان –التي هي أمر حسي- إلى الوصال (المعنوي)... فالوصال يعني اللقاء، والأمل، والتشوق، ورؤية جسد الحبيبة/الأم، وبالتالي الحياة...والأغصان أيضا هي مكان التقاء الفروع والعيدان والأوراق...

فكل هذه الأمور التي ترمز إلى الحياة، أفرغت من مدلولاتها بحسب سياقها في البيت، ذلك أن رطوبة الأغصان ذبلت (ذوت) بشكل سريع (ذوى...سريعا رطيبها)، دلالة على صدمة الانفصال السريعة لكن أثرها يدوم مدى الحياة، ما يوحي أيضا باقتراب أجل الشاعر، وزوال حياته بسرعة؛ لأن مصدر حياته (المرأة) قد بان...

والواقع أن في هذه الصورة انزياحاً، ولا ملاءمة في العلاقة الإسنادية؛ إلا أنه انزياح لم يخرج عن المألوف. ولا نجد فيها صورة رؤيوية تحتمل التأويلات، وتكتسي دلالات شتى؛ إنها أحادية الدلالة تتضمن انزياحا ضمن باب المحسوسات، وضمن حيز البصريات...

كما أن الليالي في البيت العاشر، شخصت حين راح الشاعر يمدح إحسانها وذنوبها. فصحيح أن الليالي في زمن الوصال لم تكن سرورا كلها، إلا أنها كانت عنصر أمل وفرح، ولذة وسط حياة جنينية مطمئنة...، بيد أنها بعد الفراق، أصبحت تُمْدَحُ وتُذْكَر، لا لشيء سوى لأن ليالي الشاعر الحالية أضحت عابسة، مليئة بالوحشة والفراغ والمآسي... ولعل ما يؤكد هذا قوله في قصيدة ميمية من الطويل والقافية من المتدارك مصورا وحشة ليله بعد الفراق:

فَيَا لِيَ مِنْ ليلٍ طويلٍ سَهِرتُــهُ يُسامِرُنِـــي هَمٌّ ، كليليَ مُظْلِمُ

وَمِنْ كَبِدٍ حرَّى، وَقَدْ طَوَّحَتْ بِهَا مرامي النّوى، مِنْ جورِهَــا تَتَظَلَّمُ

أكابدُ مِنْهَا هجرَها وبعادَهـــا وَأَيُّ قوًى مِنْ ذينِ لا تَتَهَـــدَّمُ؟![1]

وهكذا يكون الليل بالنسبة إلى الشاعر، مصدر سعادة في زمن الوصال، ومصدر يأس وشقاء بعد الفراق، ما يولد ثنائية ضدية مهمة على صعيد ألفاظ هذه الصورة...

أضف إلى ذلك، أن هذه الصورة ـ على الرغم من جمالها، ودلالتها الانفعالية والنفسية ـ لم تخرج عن نطاق المألوف كأختها في المثال السابق...

وهناك صورة لا تقل أهمية عما سبق في البيتين: الحادي عشر والثاني عشر، وهي صورة الحمامة التي استعان الملك الأيوبي بها، وجعل منها رمزا للتعبير عن معاناته وحبه، فتحدث عنها حديثا كل مواده الأولى من عالم الطير(ذات

1 ـ الأمجد. الديوان. ص11، تتظلم: لعلها يتظلم.

طوق، الغضا، الهديل...)، ولكن كل دوافعه العميقة، وكل تلاوينه الداخلية، من هذا العالم النفسي الذي يضطرم في أعماقه: "عالم الحب". وكأني بالحمامة هنا وهي تبكي، الشاعر نفسه ينقل صراعه الداخلي من خلل صورة الطائر الذي يغرد ساجعا، والشاعر في امتطائه لهذه الأسطورة، يجعل البكاء قديما في الزمن، ومتواصلا في المستقبل، ويدخل أيضا عنصر الأمومة في الصورة، فهل ثمة حزن وتفجع بمستوى حزن الأم الثكلى وتفجيعها؟!

ويبدو أن للفظة الحمامة وعناصرها، وقعاً خاصاً في نفسية الملك المذكور؛ نظرا الى أنه يذكرها بمعنى مشابه غير مرة في أشعاره، يقول مثلا في قصيدة أخرى بائية من الطويل والقافية من المتدارك متحدثا أيضا عن الحمامة التي تندب وتثير أحزانه:

يبيتُ بتغريدِ الحمامِ يُعذَّبُ ... يُروِّعُه لمعُ البروقِ وتارةً

إذا ما انبرتْ تلكَ الحمائِمُ تَنْدُبُ ... ودَمْعٌ على الخدَّيْنِ يَهمي سحابُه

فتُوفي على فرعٍ مِنَ البانِ تَخْطُبُ[1] ... ويَشْعَفُهَا بانُ الحمى وظِلالُه

-اللغة والموسيقى الداخلية وإيحاءاتها النفسية

-تكرار الألفاظ والحروف:

أ- تكرار الألفاظ

يلاحظ في هذا السياق، أن للتكرار في قصيدة بهرام شاه، دورا مهما في إظهار معاناته، فتكرار لفظة "ديار" في البيتين الأول والثاني، يحمل في داخله دلالات

1-الأمجد.الديوان.ص396

-يشعفها: الشعاف: أن يذهب الحب بالقلب، وقوله تعالى: {قد شعَفها حبا}، قرئت بالغين والعين، فمن قرأها بالعين المهملة فمعناها تيمها، ومن قراها بالعين المعجمة أي أصاب شغافها.والشعف: شدة الفزع حتى يذهب بالقلب.ـ ينظر: ابن منظور.لسان العرب.المج. التاسع، 1375/1956، ص177 - 178

نفسية ترجع إلى تعلق روح الشاعر بمكان وجد فيه حبيبا، وحبا، وحياة. ولذا، فإن الديار جديرة بأن تذرف عليها الدموع؛ لأنها تمثل أماكن نأت عنها الحبيبة...

وتكرار أداة النداء (يا) في البيت العاشر يحمل دلالة الاستنجاد، وكأني بالشاعر يستغيث نتيجة صدمة الولادة، ورؤية حياة غريبة...

كما أن تكرار الألفاظ نحيب[2]، وقلب[2]، وبان[2]، يؤكد مدى عذاب الحبيب الذي أصيب بكارثة عاطفية كبرى، خصوصا أن الألفاظ المتكررة السابقة تحمل دلالات الألم، والحزن، والأسى، والمعاناة... والمازوخية، وبالتالي فإن التكرار أتى على سبيل التوجع الشبيه بما يعانيه الطفل حينما يبكي ليطعم أو يشفى أو يرضع...

فتكرار الألفاظ على هذا الشكل، يولد إيقاعات جنائزية تدفع إلى مشاركة الشاعر آلامه ومعاناته...

وبدهي أن يكون لتواتر هذه الألفاظ في أشعار الملوك، منشأ نفسي يعود الى الطفولة... فالطفل يطلق كلماته الأولى أو المقاطع الصوتية الشبيهة بالكلمات؛ لأنه كان قد سمع هذه الأصوات في مواقف مستحبة، في أثناء إطعامه أو هدهدته مثلا. ولذا تغدو هذه الأصوات بالنسبة إلى الطفل، وبفعل اقترانها بهذه المواقف المستحبة، أصواتا مستحبة، وتملي بالتالي، دور ما يطلق عليه تعزيزا أوليا. وحينما يتوصل الطفل إلى أن يطلق بنفسه فيما بعد هذه الأصوات اللغوية، فإنه بمجرد سماعه لها يؤدي بصورة آلية، دورا تعويضيا أو ما يدعى تعزيزا ثانويا... ذلك "أن الطفل، لا يكتسب عادة إطلاق الكلمة من طريق ترداده لها فقط، إنما، قبل ذلك، من طريق سماع ترداد الآخرين لها[1]».

---

1 ـ كمال بكداش. علم النفس ومسائل اللغة. بيروت. دار الطليعة. ط1، 2..2، ص17 - 18

للمزيد عن نظرية المحاكاة في اللغة، ينظر.Mowrer. Oh. H. Learning Theory and Symbolic Processes

.New Yor;. Wiley. 196

ولا بد من الإشارة هنا، إلى أنه لا وجود لتكرار ألفاظ تصور جسد المرأة، ما يثبت أن الشاعر عذري، لا إباحي أو مادي... وبالتالي شاعر حب لا غزل...

ب- تكرار الحروف

تتغلغل حروف المد في ثنايا القصيدة، ففي البيت العاشر:

فيا حبذا تلكَ الليالي وطيبُهـــا   ويا حبذا إحسانُها وذنوبُهَـــا

يتكرر حرف المد (الألف) ثماني مرات، فضلا عن وجود الياء[4]، والواو[4].

وفي البيت الثاني يتكرر حرف المد (الألف) ست مرات:

دِيارٌ عَلَى بعدِ المسافةِ شَاقَنِـــي   نَضَارَتُهَا قَبْلَ الفراقِ وَطِيْبُهَـــا

وفي البيت السادس يلاحظ المد بشكل لافت أيضا...

فحروف المد واللين التي تتغلغل في ثنايا النص، وألف الإطلاق التي تأتي خاتمة لنهايات أبياته والتي تسمح بامتداد الصوت والتفريج الصوتي، ما يجعل النص نصا غنائيا ذاتيا على المستوى النفسي والوجداني، وعلى المستوى اللغوي والموسيقي أيضا، ما "يسمح للشاعر بالتعبير المرهف الحار عن جيشانه العاطفي وقلقه[(1)]".

ثمة قيم موسيقية لحروف المد، وثمة علاقات بين هذه القيم تحدث تأثيرا نفسيا شبيها بالتأثير الذي يحدثه لحن الموسيقى... ويصف لانس هذا التأثير بأنه نوع من الشوق[2].

وفي مجال التكرار، لا بد من الإشارة إلى تكرار ياء المتكلم[5]، وها [21] في القصيدة ككل، ما يولد نغما حزينا ومفعما بالمعاناة...

---

1 ـ وهب رومية.شعرنا القديم والنقد الجديد.ص174

2 ـ شكري محمد عياد.موسيقى الشعر العربي، ص11.

-البديع وجرس الألفاظ

يعد البديع مظهرا مهما من مظاهر الموسيقى الداخلية، وقد رفع من شأنه عدد من الباحثين، منهم إبراهيم أنيس الذي أكد أن الهدف من البديع هو العناية بحسن الجرس، ووقع الألفاظ في الأسماع[1]، ومن أبرز مظاهر البديع الذي يولد إيقاعا في القصيدة السابقة:

- الطباق وهو الذي يولد ما يمكن تسميته بـ"إيقاع التعارض"، والأمثلة عليه في هذه القصيدة عديدة من مثل: (قرب – وبان) في البيت الثالث، و (قريب – تباعد) في البيت التاسع، و (إحسان – ذنوب) في البيت العاشر...

إيقاع التعارض في هذه القصيدة، يؤكد الثنائية الضدية، إذ إنه يشير إلى حالتين متناقضتين، غياب الأولى؛ (القرب والوصال)، سبب في هيمنة وسيطرة الحالة الثانية؛ (الكدر والحزن) ، ويظهر أيضا التحول من حال إلى حال مناقضة لها...ما يولد حزنا دائما وإحباطا شديدا... وكأني بالملك الطفل ههنا، يعاني من غياب ما يسميه دونالد فينكوت(Donald Winnicott) "الأشياء الوسيطة"[2]

---

1 ـ إبراهيم أنيس. موسيقى الشعر. ص44 - 45

2 ـ فينكوت(1896 - 1971)؛ طبيب أطفال ومحلل نفسي. قدم نظرية حول الاهتمامات الأمومية الأولية، أشار فيها إلى قدرة الأم على التماهي بطفلها، وتلبية حاجاته. تتطور، في نظره، الاهتمامات الأمومية الأولية خلل مرحلة الحمل، وتستمر بعض الوقت بعد الولادة، ما يحمي الطفل من قلق الانفصال، ويمكنه من إثراء ذاته من دون صعوبة. دور الأم أساسي بالنسبة إليه، وقد صاغ في هذا الصدد، مفهوم "الأم الطيبة بشكل كاف"... وهو يهتم بأن تكون الأم قادرة على عدم التسبب للطفل بصعوبات أكثر مما يستطيع احتماله... وبناء على ذلك، حدد دور الأم بثلاث وظائف: أخذ الطفل(نظافته، مداعبته...)، الحضور(الاستعداد لتقديم الدعم النفسي والمادي للطفل)، وتقديم الاشياء في الوقت الملائم...

بيد أن إبدعات فينكوت، ترتبط أيضا بمفهوم "الشيء الوسيط" أو "المجال الوسيط" الذي هو عبارة عن أشياء حقيقية محسوسة... يحتفظ بها الطفل، ملتصقا بها ليل نهار، ولا سيما في أثناء الانفصال عن الام أو غيابها الموقت. والشيء الوسيط (البديل)، ليس جزءا من الطفل =

من حياته... وهو ما يسوغ عدم قدرته على احتمال الانفصال عن الحبيبة/الأم، وبروز الإحباطات المبكرة لديه...

كما أن الجمع بين الأضداد في شعر الملك الأيوبي، أضفى على أبياته رونقا وجمالا، ذلك أن "الجمع بين الأضداد من أهم أركان الجمال في الشعر والأدب"[1] ومن خلله أيضا، استطاع أن ينقل توتره الشديد، وعاطفته الملتهبة... وبالتالي ثنائية عواطفه...

لقد أضفى وعي التضاد عند الملك المذكور، على شعره بعدا ثنائيا تجلى في استخدامه الطباق كوجه بلاغي وظيفي وليس زخرفيا؛ فهذا البناء المزدوج يعكس بالمقابل واقعا متناقضا، فهناك جدل بين الفني والواقعي؛ وبديهي أن اللغة المتناقضة هي من سمات الوعي المتشعب، أعني الوعي المدرك للسلب والعامل على تخطيه...

- الجناس: وهو ما يمكن تسميته "إيقاع التماثل"، ويظهر أثره في وحدة الجرس، فيما يظهر أثر الطباق في تنويع هذه الوحدة[2].

وبالعودة إلى القصيدة، يلاحظ التآلف الفونيمي/الغرافيمي في البيت الأول بين "غريب" و"غروب" (بمعنى عرق في العين يسقي ولا ينقطع)، وفي البيت الثامن بين يجن وتجن (بمعنى تستر)، كما يلاحظ التآلف الصوتي الإيقاعي في البيت التاسع بين "قريب" و "رقيب"، بما يقرب -صوتيا- بين القرب المرغوب، والرقيب المرفوض...

= أو شيئا خارجيا؛ إنما هو شيء وسيط بين موقفين يمكنان الطفل من الانتقال، من وجهة نظر نظريات النمو، من الانصهار في الاشياء مثلما كان يحدث في البداية، الى الانفصال عنها. وهذه الاشياء الوسيطة هي عناصر طبيعية تساعد الطفل على الوصول إلى وعي ذاته وحالته الفردية...ينظر: مريم سليم. علم نفس النمو. بيروت. دار النهضة العربية. ط1، 2..2، ص98-97، أنظر: Donald Winnicott. Jeux et realite. Paris. Gallimard. 1975

1 ـ روز غريب.تمهيد في النقد الأدبي. ص113

2 ـ عبد الله الطيب المجذوب.المرشد إلى فهم أشعار العرب.ج2،ص271

- ويضاف إلى البديع "التصريع" الذي حل في مطلع القصيدة، إذ تساوى العروض مع الضرب لفظا ووزنا، وتكرر ذلك في صلب القصيدة (البيت العاشر)...

ويضاف إلى الموسيقى الداخلية والخارجية في القصيدة، الإيقاع "الداخلي النفسي" الذي يقوم على الإيحاء وما يحدثه الشعر في النفس من حالات وأصداء داخلية تعاني وتدرك بغير الحواس، وقد لا تفسر أحيانا ولا تفهم ، ولكن يحس بها الشاعر، وتسري إلى القارئ بالعدوى، فيدركها بوعيه الباطن، ولا يقدر على حصرها في حدود معينة، إنها تخلق في القارئ جوا نفسيا أكثر مما تمنحه أفكارا ومعلومات...

فنحن عندما نقرأ أبيات القصيدة ـ بما فيها من إيقاعات متنوعة ـ نشارك صاحبها في حالته النفسية، ونفرح لفرحه ونحزن لحزنه، ونتألم معه، وقد نشاطره في حب الحبيبة، ونغضب ونثور عندما نسمعه ثائرا وغاضبا، ذلك أن الإيقاع ليس شيئا فيزيائيا... إنما هو في الواقع "إيقاع للنشاط النفسي الذي من خلاله ندرك لا صوت الكلمات فقط، بل ما فيها من معنى وشعور[1]».

ولذلك ليس غريبا أن يؤكد بعض الباحثين[2] أن دراسة الإيقاع في الشعر بمعزل عن المعنى محاولة مشكوك في قيمتها، بما أن المعنى هو بلا شك الفاعل المهيمن في اختيار الشاعر للمؤثرات الإيقاعية التي يحدثها[3].

---

1 ـ شكري محمد عياد.موسيقى الشعر العربي.ص139

2 ـ منهم ريتشارد الذي يرى أن الإيقاع تابع للمعنى وصادر عنه. ينظر: شكري عياد. موسيقى الشعر العربي.ص138

3 ـ المرجع نفسه. ص137 - 138

تحليل لغوي لساني[1]

من الكتاب الحماديين، أبو القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن القالمي الذي قيد له صاحب الخريدة نصاً لعله من أهم نصوص النثر في الأدب الحمادي...وهنا نطرح الأسئلة الآتية: ما البنية الدلالية للنص؟ وما مستواه الصوتي... واللغوي؟

النص:

"ولما كنت في مضمار سلفك جارياً، ولنا موالياً، وفي قضاء طاعتنا متباهياً، رأينا أن نثبت مبانيك، ونؤكد أواخيك، ونوجب لك ولخلفك، ما أوجبه سلفنا لسلفك، تمييزاً لهم عن الأكفاء، ومجازاة لهم عن محض الصفاء والولاء، فاستدم هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر فأنت به جدي [ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور]".

1-في البنية الدلالية للنص:

يندرج هذا النص في إطار أدب المعاملات الرسمية بين الحاكم ورعيته، والرعية والحاكم، كالنصح والإرشاد. وقد استفاد من مستويات دلالية توحي بوضوح الخطاب وتضفي عليه نوعاً من الاستحباب والتودد والاقتراب، ويبدو أن التحليل الدلالي هو الذي يكشف عن هذه المستويات، "وبموجب مبدأ البنية المكونة تتألف الوحدات اللغوية الكبرى من وحدات لغوية أصغر، وأن أي جزء من الكلام هو بنيوياً مؤلف من غير مستوى، والمستويات اللغوية الثلاثة: الصوتي، التركيبي، والدلالي تتكامل عناصرها في خدمة القدرة اللغوية التي بوساطتها تقوى على توليد الجمل، أياً كانت، كما نقوى على فهمها." ونحن لا يمكننا الاقتراب من النص إلا من خلال هذه المستويات التي تكشف عن جماليته، ...ومن الصعب الفصل بينها في إحداث التأثير في المخاطب وتوصيل الرسالة.

أ- المستوى الصوتي:

جاء الصوت في هذا النص غنياً ومثمراً للعملية التواصلية، وقد شكل تكراره ظاهرة مميزة، خصوصا في أواخر الفواصل، فساهم في البناء الدلالي للنص، للصلة القائمة بين الصوت وما يدلّ عليه، أو بين الرمز ودلالته في ذهن المتكلم

1 ـ محمد تحريشي، أدوات الـنص، دراســـــة، من منشورات اتحاد الكتّاب العرب2...

وذهن المخاطب...

واعتمد الكاتب على مبدأ الاختيار، والميل إلى أصوات دون غيرها؛ فانتقى لذلك ألفاظاً تساعد حروفها على التواصل والالتقاء نتيجة انسجام هذه الحروف وتلاؤمها من الناحية الصوتية، وهذا التآلف والتناسق هو الذي يجعل اللفظ سهلاً على اللسان من جهة، وعلى السمع من جهة أخرى،، وقد سمى الجاحظ هذه الخاصية "القران"، وهي ترتبط ببنية اللفظ الصوتية التي تتمثل في انسجام الأصوات المكوّنة له وتآلفها، وقد اهتم الدارسون العرب المحدثون بهذه الخاصية، يقول أحدهم "لقد لاحظ الأقدمون أنّ الكلمة العربية إذا أريد لها أن تكون فصيحة مقبولة: فإنّها تتطلب في مخارج حروفها أن تكون متناسقة، ولا تتسامح اللغة فتتخلى عن هذا المطلب إلا في الحدود في مثل حالات الزيادة والإلصاق ونحوهما".

ويبدو أن هذا النص قد حقق هذا الهدف، فكانت بنياته منسجمة صوتياً أسهمت في جماليته... فالفواصل الأولى انتهت بصوت الياء الممدودة التي تدعو المخاطب إلى تقبل الرسالة، وكانت هذه المقاطع الصوتية ممدودة لتعلن عن المشاركة الوجدانية بين المتكلم والمتلقي، وتساهم في فصاحة الكلام ووضوحه، قال ابن القالمي"ولما كنت في مضمار سلفك جارياً، ولنا موالياً، وفي قضاء طاعتنا متباهياً" فجاء الخطاب واضحاً مباشراً يعتمد على مبدأ الجملة الشرطية لاستحضار مجموعة من الأفعال المرجعية التي تبرر ما يأتي بعدها وتدعو إليه، وتحفز المخاطب وتهيئه إلى سماع الباقي وتقبله، بل إنها قد توجّه الخطاب بحسب إرادة المتكلم، ولهذا جاءت الفواصل الثانية موجهة الرسالة إلى المخاطب مباشرة جواباً عن الجملة الشرطية... قال الكاتب: "رأينا أن نثبت مبانيك، ونؤكد أواخيك، ونوجب لك ولخلفك، ما أوجبه سلفنا لسلفك.." ويبدو أن صوت الكاف في أواخر هذه الفواصل جاء لتنبيه المتلقي، وتوجيه الخطاب إليه للكشف عن العلاقة التي تجمع المتكلم بالمخاطب، وحرف الكاف حرف ذو جرس قوي يأتي لتوكيد المعنى، والتنبيه والإشارة إلى ما يريده المتكلم، وقد قرنه ابن القالمي بالأسماء ليعقد القران بين هذه الألفاظ الدالة على أفعال إنجازية، وبين المخاطب للوصول إلى المشاركة الوجدانية والتفاعل الحيوي والشعور بالمسؤولية.

ويبدو أن الصوت لن يؤدي دوره المنوط به إلا ضمن سياق تركيبي، مع أن لكل كلمة مفردة صوتاً فعلياً يساهم في تحديد دلالتها، فإن الكلمة إذا ما ركبت مع كلمات أخرى أنتجت مجموعة من الأصوات توجه معنى النص، ضمن السياق في نظام تركيبي وترتيبي للجمل... ولذا، يصبح ما نبه عليه ريني وليك أمراً

مهماً... يقول "لقد حلل اللغويون المحدثون الأصوات الكامنة على أنها عناصر أولى ذات دلالة، كما أن بإمكانهم أن يحللوا أيضاً الوحدات الصوتية المعنوية الأولى، والوحدات النحوية؛ فالجملة مثلاً لا توصف فقط بأنها نطق مقصور على غرض معين، بل إنها طراز ترتيب الكلام." ولا شك أن ابن القالمي قد ربط بين أصوات هذا النص وبين تراكيبه وبين معانيه وقد وفق في ذلك أيما توفيق.

ثم كانت الفواصل الصوتية الأخيرة للنص"... تمييزاً لهم عن الأكفاء، ومجازاة لهم عن محض الصفاء والولاء، فاستدم هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر فأنت به جدير..." فجاءت هذه الفواصل منطلقة الصوت معتمدة على صوت الهمزة المسبوق بألف المد لتفصح عن الغرض، وتعلن في الوقت ذاته نهاية الرسالة باقتباس من القرآن الكريم الذي زود النص بحمولة تنهل من حمولة الخطاب الديني الإسلامي، ويبدو أن أي تغيير يصيب البنية الصوتية للنص أو حتى التركيبية يؤدي إلى فساده وضياع غرضه.

لقد جاء النص فصيحاً مبيناً لفصاحة ألفاظه ووضوحها، فهي ليست غريبة وغير مخالفة للقياس في اللغة العربية، ثم إن حروفها غير متنافرة وهذه صفات اشترطها العلماء في فصاحة اللفظ. "فإذا كانت سمة الفصاحة تتحقق لدى المتكلم بوضوح النطق وطلاقة اللسان، فإن فصاحة الكلمة تتحقق بالتناسق أو التآلف الصوتي الذي يجعل النطق باللفظ سهلاً خفيفاً عن اللسان من جهة، كما يجعل أثره السمعي واضحاً مقبولاً على الأذن من جهة أخرى." ويبدو أن نص ابن القالمي قد كان له ذلك فحقق الفصاحة المرجوة في كل نص إبداعي لتأكيد العملية التواصلية، وقد ابتعد عن ظاهرة التنافر الصوتي.

ب-المستوى اللغوي:

لقد اختار ابن القالمي لنصه مستوى لغوياً تقليدياً سار فيه على نهج القدماء في كتابة النصوص النثرية، فبنى النص بناء تركيبياً يرتكز على أنساق لغوية تستفيد من جماليات التعبير للغة العربية.

1- الأنساق اللغوية للنص:

لقد جاء النص في ثلاثة أنساق لغوية تتكون من وحدات تركيبية تتفاوت في الطول والقصر والتوزيع بحسب ورودها في النص. والتوزيع كما حدده أحد الباحثين بقوله "يحدد توزيع عنصر بأنه مجموع العناصر التي تحيط به، ومحيط عنصر (أ) يتكون من ترتيب العناصر التي ترد معه، أي العناصر الأخرى التي يتوافق كل منها في موقع معين مع العنصر في تركيب كلامي، والعناصر التي

ترد مع العناصر (أ) في موقع معين تدعى انتقاء هذا العنصر لهذا الموقع." ويبدو أن ابن القالمي قد انتقى هذه العناصر التي تحقق المحتوى الفكري لكلامه في الواقع، وتجسد تلك المعاني الذهنية التي أراد التعبير عنها، والكاتب في الواقع "ليس حراً سوى في اختياره لوحدات الفئات التي ترد عادة معاً، ولا يقوم باختيارها إلا في الترتيب الذي ترد فيه هذه الفئات."

لقد جاءت هذه الوحدات التركيبية للأنساق اللغوية المكونة لهذا النص متآلفة متجانسة، تدعو الواحدة الأخرى في شكل فني خفيف، وكأنها تنتمي إلى حقل دلالي واحد تكشف عن حسن توزيع الكاتب لها، وقد جاءت هذه الأنساق كالآتي:

النسق الأول: يتكون هذا النسق من الوحدات التركيبية الآتية:

أ- ولما كنت في مضمار سلفك جارياً

ب- ولنا موالياً

جـ- وفي قضاء طاعتنا متباهياً

لقد جاء هذا النسق في ثلاث وحدات متفاوتة من حيث الطول والقصر، ليعكس إرادة الكاتب في تهيئة المخاطب بجملة شرطية تجعله في وضع تأهب وترقب لسماع المزيد والاستعداد لتأدية ما يطلب منه؛ ولهذا جاءت هذه الوحدات اللغوية محصورة الدلالة تدعو إلى معنى هو ردف المعنى المركزي أو صنوه أو ما يترتب عنه. لقد كانت الوحدتان (أ،جـ) طويلتين بالقياس إلى الوحدة (ب) لحاجة المعنى المعبر عنه لذلك. ثم إن الوحدة (أ) جاءت في ثلاثة عناصر هي المخاطب والسلف واتباع آثار السلف، ثم هناك الفعل الكلامي الذي يربط بين هذه العناصر في وحدة تركيبية اعتمدت التقديم والتأخير بما تقتضيه خصائص اللغة العربية في التعبير، فلو قلنا: ولما كنت جارياً في مضمار سلفك، لفسد المعنى وذهب رونقه.

أما الوحدة الثانية (لنا مواليا) فكانت في عنصرين: المتكلم والمخاطب، والعلاقة التي تجمع بينهما هي الولاء الذي لا يكون إلا بين اثنين؛ ولهذا لم يحتج الكاتب إلى غير هذا ليغطي هذا المعنى. ثم إن (نا) المتكلم جاءت لتدل على عظمة المتكلم وعلو شأنه ومرتبته، ولا سيما أنها تحتم على المخاطب الولاء والاحترام والانقياد، وقد اقترنت بـ(موالياً) لتعكس تلك العلاقة الرابطة بين المتكلم والمخاطب وهي علاقة تجاور وبناء، وعلاقة تزكية المعنى ليبدو فخماً، خصوصاً إذا قرىء في سياقه التاريخي والاجتماعي والأدبي.

وجاءت الوحدة الثالثة "وفي قضاء طاعتنا متباهياً" فعلاً كلامياً يؤكد تلك العلاقة التي تربط المتكلم بالمتلقي إلى درجة التباهي بالإخلاص والطاعة، والقيام

بالخدمة. لقد جاءت هذه الوحدة في موقع المفعول لفعل وفاعل "كنت" وهي رابطة النسق بوحداته الثلاثة.

-النسق الثاني: لقد تشاكل هذا النسق مع النسق الأول، فأسهم في تقوية المعنى عن طريق وحداته المتفاوتة نسبياً في الطول، فأعطت النص إيقاعاً خاصاً. لقد تكوّن هذا النسق من الوحدات الآتية:

أ- رأينا أن تثبت مبانيك

ب- ونؤكد أواخيك

ج- ونوجب لك ولخلفك ما أوجبه سلفنا لسلفك

د- تمييزاً لهم عن الأكفاء، ومجازاة لهم عن محض الصفاء والولاء

ولعل اللافت للنظر أن هذه الوحدات قد غلبت عليها الجمل الفعلية التي جاءت لتدلّ على الحدث والحركة والفاعلية، وتطالب بموقف يكون جواباً عن الجملة الشرطية التي بدأ بها النسق الأول... وقد اختار الكاتب الفعل "رأى"... وهذا الفعل مفتوح الدلالة، يقبل الدخول على الأسماء وعلى الأفعال على حد سواء ليوجهها نحو دلالات جديدة ومتنوعة تفهم من سياق الكلام. لقد وفق ابن القالمي في اختيار هذه الوحدات المكوّنة لهذا النسق، كما وفّق في تركيب هذه الوحدات داخلياً على مستوى كل واحدة، وخارجياً على مستوى كل الوحدات من حيث المعنى والمبنى، ولعل "التطابق بين جدول التوزيع الذي للرصف، وجدول الاختيار الذي للنمطية الاستبدالية يقرر الانسجام بين مفردات النص الأدبي، بوصفها علامات استبدالية، أي وحدات لغوية معجمية في عملية الإبلاغ."

إنّ وحدات هذا النسق جاءت متعادلة من حيث دلالة التركيب على معناه، فتعادلت التراكيب مع دلالتها، وأدّت إلى نمطية لغوية ومعجمية لهذا النص، ومع أنّ صيغته كانت تقليدية، إلاّ أنه نص قائم بذاته، له خصوصية أسلوبية وبنيوية تتجه دلالياً نحو المعنى لتكشف عن المضمون الإبلاغي للعلامات اللغوية من طريق تشاكل ألفاظ هذا النسق وتقابلها، كاقتران تثبيت المباني وتوكيد الأواخي، حيث تطابقت هذه الألفاظ مع بعضها لتقوية المعنى وإرساليته.

لقد احتوى هذا النسق على ألفاظ متقابلة، من مثل "توجب لك ولخلفك، ما أوجبه سلفنا لسلفك" فذكره الخلف والسلف كان مكوناً مباشراً اعتمد على الجمع بين هذين المتناقضين، وبهذا أدى هذا النسق وظيفته الأسلوبية متعددة الجوانب من حيث علاقتها، كعلاقة النص بالمتكلم، أو علاقة المتكلم بالمخاطب، أو علاقة النص بالمخاطب إلى غير ذلك من العلاقات الممكنة.

الخاتمة

ميادين البحث اللغوي متشعبة، بيد أن علم اللغة الحديث، ترك مجالا رحبا للدارسين في ولوج عوالم النصوص... وتشريحها... فضلا عن أن مدارس لغوية جمة ولدت ولا تزال في تطور مستمر...

وتطرق هذا الكتاب إلى ثلاثة فصول؛ الأول تناول إلى اللغة: تعريفها وخصائصها... ومراحل اكتسابها، ووسائل الاتصال غير الكلامية، ووسائل التواصل عند الحيوان والحشرات... ونظريات تعلم اللغة، ونظريات تفسير اكتسابها...

أما الفصل الثاني بعنوان: "ماهية علم الأصوات ومجالاته..."، فتطرق إلى علم الأصوات (تعريفه ووظائفه، وميادينه، ومعايير تصنيف الأصوات... والفرق بين الفوناتيكا والفونولوجي، فضلا عن التحليل الصوتي والمقطعي، والفرق بين علم الأصوات وعلم التجويد... وعلم الأصوات في معجم العين... متوقفا عن الحروف وأصواتها ودلالاتها... وعلاقة علم الأصوات بعلم التجويد..).

وركز الفصل الثالث على الألسنية: تعريفها، وجذورها، واتجاهاتها ومفاهيمها، متوقفا عند الألسنية المقارنة، وجذورها، وميادين دراساتها... واللغات السامية، فضلا عن دور المجامع اللغوية في الدراسة اللسانية المقارنة، من خلال الكلام بإسهاب على مجمع اللغة العربية بالقاهرة ...

وعرض الفصل الأخير أيضا لعلاقة الألسنية بعلم النفس والدلالة... ولا يهمل هذا جوانب تطبيقية...

وهكذا، أظهر هذا الكتاب غنى الدراسات اللغوية، من خلال تركيزه على محاور اللغة والألسنية وعلم الأصوات، ويخلص إلى التوصيات الآتية:

-دعوة الدارسين إلى إعداد المزيد من الدراسات اللسانية في الوطن العربي..

-تكثيف الدراسات الميدانية التي تستهدف لهجات القبائل العربية... لا إحياء للعامية، بل للمقارنة، ودراسة التطور اللغوي...

-المزيد من العناية بعلم الأصوات، وتدريسه في المراحل التعليمية كافة...

-تشجيع الطلاب على الدخول إلى عوالم البحث اللساني...

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ط5 القاهرة 1971
- ابن الأنباري. أسرار العربية. تحق. محمد بهجت البيطار. دمشق، مط. الترقي، 1957
- ابن جني. الخصائص. تحق. محمد علي النجار، القاهرة، دار الكتب، ط1، 1952
- ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري.(711/1311) لسان العرب. بيروت، مط. دار صادر، لا.ط، مج.1374/1955،1، مج. 9و11، 1375/1956
- أبو الفرج، محمد أحمد، المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 1966
- أبو ناضر، موريس، مدخل إلى علم الدلالة الألسني، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 19-18، السنة 1982
- الأرسوزي، زكي، اللسان العربي. ط 1972
- الأسد، ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط:4، دار المعارف، مصر 1969
- الأشقر، محمد سليمان عبد الله. معجم علوم اللغة العربية عن الأئمة. بيروت، مط. مؤسسة الرسالة، ط1، 1415/1995
- الأشقر، محمد سليمان عبد الله، معجم علوم اللغة العربية، بيروت، مط.مؤسسة الرسالة، ط1
- أنيس، إبراهيم. موسيقى الشعر. القاهرة، مط. الإنجلو المصرية، ط4، 1392/1972
- بكداش. كمال، علم النفس ومسائل اللغة. بيروت، دار الطليعة.ط1، 2002
- تحريشي، محمد، أدوات الـنص، دراســـــة، من منشورات اتحاد الكتّاب العرب2000
- تقي الدين. المعروف بالحموي. خزانة الأدب. تحق. عصام شعيتو، مط. الهلال. بيروت،1987، ط1

- ثعلب، أبو العباس احمد بن يحيى. (291/903). قواعد الشعر. تحق. وتقديم رمضان عبد التواب، القاهرة، الناشر دار المعرفة، ط1، 1386/1966
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الحيوان، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مصر
- الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر 87
- حلاوة، محمد السيد، مدخل إلى أدب الأطفال .. مدخل نفسي اجتماعي، مصر، المكتبة المصرية للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، 2003م
- خرما، نايف، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد أيلول 1978
- ر بلاشير ، تاريخ الأدب العربي، ط:2، تر. إبراهيم كيلاني، دار الفكر، 1984
- الراجحي، عبده. فقه اللغة في الكتب العربية. بيروت، دار النهضة العربية، ط 1972
- رافع النصير الزغول وعماد عبد الرحيم الزغول، علم النفس المعرفي، دار الشروق، 2003
- الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، ط:82، مط. الاستقامة، تحقيق محمد سعيد العريا
- زيدان، محمد فهمي، في فلسفة اللغة، ط بيروت 1985
- زيعور، علي، ومريم سليم، حقول علم النفس. بيروت، دار الطليعة، 1986
- ستيتية، سمير: المشكلات اللغوية في الوظائف والمصطلح والازدواجية، دار القلم، دبي ـ 1996
- السعران، محمود. علم اللغة، مصر، دار المعارف، ط1962
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. سبب وضع علم العربية. تحق. مروان العطية، دمشق، دار الهجرة، ط1، 1988
- الصالح، صبحي. دراسات في فقه اللغة. بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1960
- الطاهر، حمروني، منهج أبي علي المرزوقي في شرح الشعر، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر1985
- طحان، ريمون. الألسنية العربية. بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط3
- الطرابلسي، أمجد، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة

والأدب ط:6، دار الفتح، دمشق1976

- عباس، حسن، خصائص الحروف العربية ومعانيها- دراسة -منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998
- العدناني، محمد. معجم الأخطاء الشائعة. بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1989
- العلايلي، عبد الله ، تهذيب المقدمة اللغوية، تحقيق أسعد علي 1968
- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة. ط8، 1945
- الغلاييني، مصطفى ، جامع الدروس العربية. جزء 3ط 11، 1972
- فردينان دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة د. يوئيل عزيز، جامعة الموصل بالعراق 1988م
- المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، ط2، 1972
- مدكور، إبراهيم. مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما. القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. 1964، ج1
- المرزوقي، أبو علي، شرح حماسة أبي تمام ـ نشر: أحمد أمين وعبد السلام هارون ـ القاهرة. 1951
- المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية في القاهرة
- معروف، نايف. تعلم الإملاء وتعليمه. بيروت، دار النفائس. ط1، 1984
- معروف، نايف. خصائص العربية وطرائق تدريسها، بيروت، دار النفائس، ط2، 1987
- الموسى، أنور. في علوم اللغة العربية وفنون الضاد، بيروت، دار النهضة العربية. ط1، 2010
- مونين، جورج، تاريخ علم اللغة.. ترجمة بدر الدين قاسم، ط981
- ميشال زكريا، المكون الدلالي في القواعد التوليدية والتحويلية، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد رقم 18/19 السنة 1982
- الهاشمي، السيد أحمد. جواهر البلاغة.بيروت، دار الفكر، ط1998
- يعقوب، إميل. من قضايا النحو واللغة. بيروت، الدار العربية للموسوعات، ط1، 2009
- يوسف، جمعة، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 145، 1990

الفهرست

المؤلف في سطور

* ولد في بيروت العام ١٩٧٦
* حاز على الدكتوراه اللبنانية في اللغة العربية وآدابها، بتاريخ ٢٠٠٧ (من الجامعة اللبنانية، بتقدير جيد جداً) (٨٥٪). «دراسة في التحليل النفسي للأدب».
* نال شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها من الجامعة اللبنانية العام ٢٠٠٢ (تقدير جيدجداً على رسالة حول أشعر ملوك بني أيوب).
* إجازة في الصحافة المكتوبة ووكالات الأنباء من الجامعة اللبنانية (ف ١) بتاريخ ٢٠٠٣/٢٠٠٤.
* إجازة في الإذاعة والتلفزيون من الجامعة اللبنانية بتاريخ ٢٠٠٤/٢٠٠٥
*دبلوم تربية من معهد التربية العام ٢٠٠٧/٢٠٠٨.
*إجازة في علم النفس التربوي (الجامعةاللبنانية ٢٠١٠).
*إجازة في علم النفس العيادي (الجامعةاللبنانية ٢٠١١).
* محاضر في الجامعة اللبنانية.
* مشرف على أبحاث الدراسات العليا في الجامعة اللبنانية.
* خبرة في ميدان التدريس والإعلام في الصحافة اللبنانية.

* من مؤلفاته:

- في علوم اللغة العربية وفنون «الضاد»
- أدب الأطفال... «فنّ المستقبل»
- علم النفس الأدبي (منهج «سيكولوجي» في قراءة «الأعماق»)
-علم الاجتماع الأدبيّ (...منهج «سوسيولوجيّ» في القراءة والنَّقد)
- فنون الكتابة الأدبيّة والصّحافيّة والعلميّة (الجزء الأول والثاني)
- فن تدقيق النصوص وإخراجها وتحقيقها
- المعالم الحضارية... والأدبية في عصر صدر الإسلام
- التكنولوجيا في خدمة التعلم والتعليم


ISBN 614-442-495-7
9 786144 424957